وداعاً أيّتها السّماء
رواية

حامد عبد الصمد

الطبعة الأولى 2008.
دار ميريت (c)
6 ب) شارع قصر النيل، القاهرة)
تليفون / فاكس: 25797710 (202)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: 9242/2008

الترقيم الدولى: 977-351-420-X

وداعاً أيّتها السّماء
رواية

دار ميريت
القاهرة 2008

"وأنّا لاندرى أشرٌ أُريدَ بمن فى الأرض أم أراد بهم ربُّهم رَشَدَا"

"سورة الجن"

إهداء

...إلى "كونى".. الزهرة الأخيرة فى صحرائى

سفـارة الخــلاص

قبل أن أسافر إلى ألمانيا كان إسم هذا البلد مرتبطاً بذهنى بأسماء وأحداث متناقضة: ألمانيا "جوته" و"ريلكه" وألمانيا "هتلر" و"جورنج".. ألمانيا المحطمة بعد الحرب، وألمانيا المعجزة الإقتصادية وإعادة البناء. ألمانيا المقسمة لشرق وغرب، وإعادة التوحيد بدون قطرة دماء. ألمانيا العمل والنظام وعلامة الجودة "صُنع فى ألمانيا". وبالطبع أيضا المنتخب الألمانى لكرة القدم الذى كان يكسب كل مباراة حتى ولو لم يلعب جيداً. ألمانيا أرض "مارتين لوثر" وأرض التحرر والمجون.. ألمانيا بلد "الفرنجة".. أقربائى... بلد الشعراء والفلاسفة والأبطال.. والبلد الذى لم يعد مسموحاً له أن يكون له أبطال.

كانت الصور الوحيدة التى رأيتها عن ألمانيا عبر التليفزيون هى صور مظاهرات النازيين الجدد فى الشوارع وصور إحتراق بعض بيوت اللاجئين هناك، وصورة إنهيار حائط برلين فى سلام تام. وصورة أخرى تلقيتها عن ألمانيا من فيلم "النمر الأسود" الذى تعلّمنا منه أن أى جاهل مصرى يمكنه أن يسافر إلى ألمانيا فيصير مليونيراً فى غضون سنوات ويتزوج أجمل النساء..

قرأت الكثير عن الأدب الألمانى، ولكننى لم أكن أعرف شيئا عن الظروف السياسية والاجتماعية فى ألمانيا اليوم. ولكن صورة ألمانيا بشكل عام كانت إيجابية فى أذهاننا، فليس لهم تاريخ استعمارى فى منطقتنا.. حتى "المحرقة" وهى النقطة السوداء الكبيرة فى تاريخهم كانت تزكيهم عندنا ولا تخزيهم.. فعدو عدوى هو صديقى.

وكان أول لقاء مباشر لى بألمانيا لقاءً مليئاً بالخزى والمرارة. ذهبت إلى سفارة ألمانيا بالزمالك لتقديم طلب الحصول على تأشيرة، ففوجئت بحشود من الشباب تقف أمام بوابات السفارة وكأنهم يطوفون بالكعبة. ولكن السفارة كانت تسمح فقط لخمسين متقدم بالدخول من بين الآلاف المنتظرة. وكان أقل القليل ممن يدخل يحصل بالفعل على تأشيرة الدخول لـ "أرض الميعاد". وعرفت أن هؤلاء الخمسين يعسكرون أمام السفارة منذ ليلة أمس قبل وفود الحجيج. كان موظفو الأمن بالسفارة يحاولون "هش" الغوغاء بعيداً ولكن ذلك لم يأت بنتيجة.. فقد كان هؤلاء الشباب يقفون أمام السفارة لأن ليس لهم وجهة أخرى، وكان من الأسهل عليهم أن يتعقبوا سراباً خيراً من أن يواجهوا واقعهم الأليم.

عدت مرة أخرى للسفارة فى المساء قبل التاسعة، فوجدت أول عشرين قد شكلوا طابوراً وقالوا لى إنى رقم 21. كان أحدهم يرغب فى زيارة أخيه فى برلين ثم "يغطس" هناك.. وكان إثنان مثلى يرغبان فى الدراسة، وآخر أراد الزواج من سائحة ألمانية عجوزة تعرّف عليها فى الفندق الذى كان يعمل به "جارسون". أما الآخرون فلم يكن لديهم فكرة ماذا يريدون أن يفعلوا بألمانيا ولماذا ألمانيا بالذات. كان بعضهم يقف أمام سفارة ألمانيا لسبب واحد: لأن الطابور أمام سفارة ألمانيا كان لا يزال أقصر من الطابور أمام سفارات أمريكا وفرنسا وإنجلترا.

كلنا كنا شباباً متفتحاً يمكن لمصر أن تحتاجه، ولكن بلدنا تجاهلتنا.. أعطتنا التعليم أفيوناً وسلمتنا الشهادات منظراً. ولكن كان من بين المجموعة الأولى أيضا رجل يفوق السبعين، وكنت أتعجب ماذا يريد هذا العجوز فى ألمانيا. كان يلبس جلباباً بسيطاً ولم يبدُ عليه أنه من رجال الأعمال أو من راغبى السياحة العلاجية.. "ربما أراد أن يذهب لزيارة أحد أبناءه هناك"، قلت لنفسى.

راح الشباب يتسامرون ويمزحون لكى يقتلوا الوقت، بينما جلس الرجل العجوز متكئاً على سور السفارة ولم ينطق بكلمة. كان معظم الشباب جاهزاً للسهرة الطويلة وقد أحضروا معهم بطاطين ومخدات. وقد عرض أحد الشباب على الرجل العجوز بطانية ومخدة ولكن الرجل رفض متذمراً. لفت إنتباهى أن الرجل لم يكن بحوزته ملف تقديم الطلبات، فأردت تنبيهه لذلك ولكنى خشيت أن ألقى منه نفس الرد العنيف. وفجأة ومن اللا شئ جاء رجل فى الأربعينيات أظن أن إسمه كان "خميس" ونصب فى غضون دقائق كُشكاً أمام السفارة وراح يبيع للمنتظرين الشاى والساندويتشات. أتذكر أن شاى خميس كان لذيذاً جداً رغم قذارة الكوب الذى كان يصب فيه الشاى. كانت تعجبنى دائماً مرونة أبناء شعبنا فى تعاملهم مع الوظائف، فهم لا يقبلون تسمية "عاطل". فإذا ضاقت الدنيا أمام أحدهم فإنه لا ييأس ويجلس فى بيته وإنما يحمل بعض المناديل ويبيعها فى إشارات المرور

ويسمى نفسه "رجل أعمال". ويبدو أن "خميس" كان قد وجد فرصة عمل لأن آلاف من شباب مصر لم يجدوا هذه الفرصة، فمصائب قوم عند قوم فوائد.

راح الشباب يتحدثون عن ألمانيا وما سيفعلون هناك وكأنهم قد حصلوا على التأشيرة بالفعل، على الرغم من أن كل منهم كان يعلم أن فرصة حصوله على التأشيرة محدودة جدا. أيقظت ضحكات الشباب الرجل العجوز المتكئ على سور السفارة، فراح ينظر إلينا بنظرة حادة مليئة بالمرارة. كنت أتسائل فى نفسى: ماذا يظن هذا الرجل بنا؟ هل يلوم علينا أننا نحاول أن نغادر البلد فى هذا السنِ المبكر؟ هل يعلم أننا نلعن الغرب فى ضمائرنا ولكننا لا نجد أملاً إلا على أبواب سفاراته؟ أو ربما نذكِّره بإبنه الذى تركه وذهب إلى ألمانيا؟

إتكأ الرجل من جديد على السور وواصل النوم جالساً. وبدأنا نتساقط الواحد تلو الآخر فى نوم عميق لم توقظنا منه إلا أشعة الشمس الأولى. وزَّع خميس أكواب الشاى وبعض السندويتشات للفطور ثم فك كشكه وإختفى كما جاء قبل أن يراه أحد من السفارة أو من رجال الشرطة.

كان أول رجل فى الصف لا يزال نائماً وهو يمسك بباب السفارة الحديدى حتى يثبت أولويته. فتح الرجل العجوز عينيه وحلق بهما فى اللا شئ، ثم وقف فى مكانه فى الصف أمامى. وقبل أن تفتح السفارة أبوابها بدقائق جاء رجل أنيق فى متوسط العمر يحمل حقيبة سوداء ووقف فى الصف أمام الرجل العجوز. ثارت ثائرتى فذهبت إليه وقلت: "يا أستاذ احنا منتظرين هنا من إمبارح بالليل. إيه مش عاجبك الحاج اللى عايز تاخد مكانه دا؟" قلت وانتظرت نظرة عرفان من الرجل العجوز. ولكن نظرة الرجل المتحجرة اليائسة تحولت لنظرة خزى وحسرة.

-"حضرتك فاهم غلط. أصبر عليّا بس" قالها الرجل الأنيق وأعطى الرجل العجوز مبلغ خمسة جنيهات وقال له: "روَّح انت بقى يا عم احمد!"

أخذ الرجل الدراهم البخثة وذهب بخطى متعبة وهو يهمس لنفسه بكلمات غير مفهومة. لم يكن الرجل يرغب فى الذهاب إلى ألمانيا وربما لم يكن يعلم أين ألمانيا من الأصل.. لقد كان فقط يحجز المكان لرجل "أفضل". أحسست بغضب شديد عندما رأيت هذا المنظر، بل أحسست بالعار. هل إستغل هذا الأنيق الرجل العجوز أم أنه فقط قدم له فرصة لكسب خمسة جنيهات؟

لم أجد وقتاً للتفكير فى قضايا الظلم الإجتماعى هذه، فقد كان دورى قد جاء لكى أدخل إلى "سفارة النجاة"، فدخلت من باب الحصن الحصين ووقفت أمام موظف السفارة المصرى الذى بدأ يتحدث إلى بالألمانية.

"آسف.. لغتى الألمانية لِسَّه مش...." قلت مملوئا بخيبة الأمل لأن مستقبلى كان لا يزال فى أيدى مصرية.

سلمت الموظف المغرور كل الأوراق اللازمة لسفرى وإقامتى فى ألمانيا شاملة خطاب موافقة جامعة "ميونخ" على دراستى بها وأوراق إعتمادى فى دورة تعلم اللغة الألمانية بنفس الجامعة وأوراق الضمان الصحى.. الخ. فحص الموظف أوراقى بعناية وكأنه كان يبحث عن ثغرة ليرفض طلبى، ولكنه فى النهاية قبل ملفى وقال إن إجراءات التأشيرة تستغرق ستة أسابيع. خرجت من باب السفارة وأنا أرتل من القرآن "ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها!"

وبعد أسابيع ستة ذهبت إلى السفارة وحصلت على تأشيرة الدخول لبلد كارل ماركس والمرسيدس. وكنت من أقل القلائل الذين نالهم هذا الحظ "السعيد". خرجت من السفارة ورحت أجوب شوارع القاهرة، فقادتنى قدماى بطريقة غير إرادية إلى الشارع الذى كان جدّى يسكن فيه والذى لم أدخله لمدة 19 سنة. لم أكن أدرى لماذا ذهبت إلى هناك وعن ماذا كنت أبحث فى هذا المكان الذى قضيت فيه أسعد وأتعس لحظات طفولتى. ربما كنت أبحث عن جرح آخذه معى تذكاراً من مصر. أو ربما كنت أبحث هناك عن عذرٍ لهروبى. كان بيت جدى قد انهار منذ سنوات ووقفت مكانه أثاثات بيت جديد. كانت الأثاثات تبشِّر ببناءٍ أعلى وأفخم من البناء الذى انهار ولكنها كانت أيضا تبشر بأنه سيكون بناءً بلا روح. وقفت أمام المكان طويلا أراقب المخبز والمقهى وورشة الميكانيكى. لم أبكِ ولم أشعر حتى بألم. راحت ذكريات جميلة وأخرى رهيبة تتبادل فى رأسى، دون أن يرد عليها وجدانى بالسلب أو بالإيجاب.

ذهبت لقريتى لأودع عائلتى.

***

كانت آثار رياح الخماسين لا تزال واضحة عند الأفق وتحجب قرص الشمس خلفها. غطت العاصفة قريتنا لليوم الثانى على التوالى بالرمال. كل شئ بدا مهزوماً.. فانياً.. مقبورا. كان جواً أسطورياً يتوافق مع مشاعرى ويليق بيوم الوداع. ولكن لا شئ ولا أحد كان يشعر بالخوف الغاضب الذى تملكنى وأنا أبدأ أول خطوات طريقى إلى المجهول.

سارت السيارة ببطء وراحت تبعدنى تدريجياً عن مسقط رأسى ومقبرة أحزانى. مررت على حقل الموز الذى كنت أزوره أيام مراهقتى وأتخطى فيه حدود المسموح. مررت على النيل الذى بدا هادئاً رغم شدة الرياح. نظرت إلى النهر الصامت وقرأت على صفحته قصته التى هى قصتى: قصة ملكٍ لا يملك ومعبودٍ لا يُعبد.. قصة أسدٍ مخصى محبوس خلف سد عال، فصار بلا طمى ولا فيضان. وبعد قليل إستقبلتنا القاهرة بضبابها وسحابتها السوداء. ولكن الزحام القاهرى لم يكن بالحِدَّة المعهودة، وكأن عاصمة بلادى كانت تريد أن تطردنى بأسرع ما يمكن.

"خلى بالك يا ابن عمى ماتجبلناش العار! أنا سمعت ان البنات فى ألمانيا فُجَّر وبيمشوا عريانين فى الشوارع." قال لى محمود ابن عمى محذراً قبل أن أدخل لصالة السفر بالمطار. "والّا أقولك: هات لإبن عمك معاك وانت راجع بنت ألمانية شقرا ووظوووظة كده بتاعت بلدها!" قال محمود مبتسماً.

إنهال فوق رأسى هواء شديد البرودة من فوهات أجهزة التكييف. إقتربت منى مضيفة مصرية كانت تحاول عبثاً أن تخفى عمرها خلف طبقات "المكياج" الكثيفة، وطلبت منى أن أربط حزام مقعدى. بدأت المواتير فى الجعير وتحركت الطائرة إلى الـ "الران واى". إرتفع صوت المواتير ومكيفات الهواء. فقدت عجلات الطائرة ملمس الأرض وراح الطائر الحديدى يحلق فى سماء القاهرة. "إلى أرضٍ بلا أبطال!" راح خليط من نشوة الحرية وقبضة الخوف يهز كيانى: التحرر من قيود مجتمع أعرفه والخوف من خفايا مجتمع لا أعرفه.. التحرر من عيون

المراقبين والخوف ألا أجد فى غربتى عين تحرسنى.. الخوف من أن أصير سفينة بلا ميناء، أترك ضفة دون أن أصل إلى ضفة أخرى، فأصبح حائراً بين ضفتين.

"الحياة فى أوروبا مش لأمثالك. إنت ضعيف أكتر من اللازم وحسَّاس أكتر من اللازم ومش حتتحمل برد أوروبا ولا برود الأوربيين!" راحت ترن فى أذنى آخر كلمات أبى لى. وكان أبى يعارض فكرة سفرى إلى أوروبا معارضة تامة وتنبأ لى بأن أعود من سفرى مهزوماً مكسوراً "بإيد ورا وإيد قُدَّام". لم يستطع أبى إمام القرية أن يفهم لماذا يفضل إبنه الحياة مع "الكفار" على الدراسة فى الأزهر. ثار أبى لأننى لم أخبره بموعد سفرى إلا يوماً واحداً قبل رحيلى، فأخذ جواز سفرى والتذاكر وخبأهم حتى لا أتمكن من السفر، ولكن أمى أقنعته فى نهاية المطاف أن يخلّى سبيلى..

كان وداعاً بلا عناق ولكنه كان مليئاً بالتوتر والدموع. رأيت حزناً كبيراً فى عينى أمى ورأيت الهزيمة فى عيون أبى. كانت كلمات الوداع الوحيدة التى صدرت منه لى هى "لا حول ولا قوة إلا بالله!" تصاحبها زفرة يأس عميق.

نظرت من خلال نافذة الطائرة إلى القاهرة وكأن عيونى شُدَّت بخيوط إلى الأرض. راح بحر البيوت الحجرية ينسال من تحتى بسرعة حتى إختفت العاصمة الصماء. ثم ظهرت دلتا مصر العملاقة يحتضنها النيل بساعدين فتيين، وكان الجميع محبوساً فى قبضة صحراء لا ترحم.

كنت أظن الألمان أزرقو العيون أشقرو الشعر وطويلو القامة!! ولكن جارى فى الطائرة كان قصيراً مكوَّراً وكان شعره خفيفاً وغير مهذب وكأنه خليط من شعر الإبط وشعر العانة.

-"هل هذه أول زيارة لك لألمانيا؟" سألنى جارى بلغة إنجليزية متواضعة.

-"نعم" رددت فى برود، فلم أكن أرغب فى الدخول معه فى حديث عقيم فقط من أجل كسر ملل سفره الطويل.

-"هل مسموح لى أن أسألك ماذا ستفعل فى ألمانيا؟" سأل الجار العرقان.

-"نعم.. إنه مسموح لك" رددت بسخرية لم يفهمها فكرر سؤاله.

-"سأدرس فى الجامعة هناك."

-"وماذا ستدرس؟"

-"العلوم السياسية"

-"العلوم السياسية؟.. رائع.. ولكن لماذا فى ألمانيا بالذات؟" واصل الجار الممل سؤالاته.

-"إخترت ألمانيا بسبب المنتخب الألمانى الذى يكسب كأس العالم كل مرة رغم أن خصمه يلعب أفضل!" قلت بسخرية وظننت أن ردى هذه المرة سينقذنى من فضول ذلك الشخص المثير للإشمئزاز..

-"لا..لا.. لقد كان ذلك فى الماضى فقط. أما الآن فلا يكسب فريقنا حتى زهرية ورود واحدة!"

لم أجد فى النهاية حلاً إلا إصطناع النوم.

نظرت من النافذة من جديد قبل وصول الطائرة لمطار "فرانكفورت". رأيت خَضاراً بكل أشكاله ودرجاته.. خَضار غير متناهى وكأنه الصحراء الكبرى. كانت دلتا مصر مقارنةً بهذا الخضار الممتد مجرد ضيعة صغيرة أو مجرد بصيص أمل للنمو. بدأ هذا اللون الطاغى يملأنى بالخوف، فقد كان يحمل بداخله ثقة المغرور وتخمة الشبعان الذى لا يعرف شيئا عن معاناة الأشقياء. كان هذا اللون يرمز لقوة لا تُقهر وجيش لا يُهزم. ثم بدأت مدينة "فرانكفورت" فى الظهور تحيط بها مرتفعات جبلية صغيرة وسحابات بيضاء، فبدت وكأنها وعاء تصب فيه الحياة من جهة وتهرب منه الحياة من جهة أخرى.

هبطت الطائرة شيئاً فشيئاً فرأيت أبراجاً وبنوكاً ومصانعاً يشق نهر "الماين" طريقه بينهم بصعوبة، وكأن وظيفته الرئيسية كانت إنعاش مدينة مريضة.

صرخت عجلات الطائرة عندما أرغمتها الفرامل على التوقف أمام صالة الوصول. خرجت من الطائرة الباردة ومررت خلال خرطوم شفط المهاجرين. وقفت فى الصالة الكبيرة تبهرنى الأضواء وتزكم أنفى الروائح غير المألوفة. شممت رائحة قهوة أوروبية وعرق مشبع بالكحول وروائح عطور قوية ولكنها بلا روح. وطغت على كل ذلك رائحة مواد معقمة ومطهرة وكأن المكان كله مرحاض نظيف.

وقفت أمام ضابط الجوازات فراح ينظر إلى صورتى فى جواز السفر ثم يمعن النظر إلى وجهى وكأن لسان حاله يقول "راعى جمال آخر يريد أن يستمتع بحريتنا ورفاهيتنا؟" لو كانت عيونه تنطق باللهجة المصرية لقالت: "هِيَّ المشرحة ناقصه قُتَلة؟"

وجدت حقيبتى بمجرد وصولى إلى مكان الأمتعة وخرجت من بوابة الخروج كالمسطول. كانت "أنطونيا" تنتظرنى أمام صالة الوصول. زاد وزنها على ما يبدو بعض الشئ مقارنة بآخر مرة رأيتها فيها، وبدا على وجهها أنها تقترب من الأربعين. عانقتنى بحرارة وهى تقول:

-"لقد فعلتها بالفعل! أنا فخورة بك جداً يا شاكر!"

لم أدر لماذا كانت فخورة بى. فما فعلته هو مجرد هروب لا أكثر.

-"أنا أعمل الآن كمدرسَّة، وقد اشتريت سيارة جديدة" قالت لى وابتسامتها لا تريد أن تفارق وجهها. كانت كلتا المعلومتين بلا قيمة بالنسبة لى: فقد كتبت لى فى رسالتها الأخيرة أنها عادت لوظيفتها القديمة، وكانت رائحة الجلد الجديد فى سيارتها تثير غثيانى منذ أن امتطينا السيارة.

كانت طريقة كلامها وملابسها تختلف تماماً عن ذلك الوقت حين التقينا أول مرة فى مطار القاهرة منذ ثلاث سنوات. كانت نظراتها وكلماتها اليوم فقيرة وخاوية.

درجة أبرد من القاهرة. سفر طويل عبر الطريق السريع. شارع خالى من البشر تماماً. منزل جميل على 15 حافة إحدى الغابات فى أطراف مدينة "أوجسبرج". دخلنا إلى شقة واسعة يتدفق النور إليها من كل مكان. موبيليا بيضاء غالية ذات تصميم حديث. لقد كنت أنتظر غرفة صغيرة تليق بإمرأة يسارية ذات ميول صوفية مثل أنطونيا. كل شئ فى بيتها الكبير كان ناصع البياض وشديد النظافة والترتيب. كيف يمكن لفوضوى مثلى أن يطيق كل هذا النظام أو يحافظ عليه؟

-"أرجو ألا يكون الجو بارداً عليك كثيراً هنا" قالت أنطونيا بعطف.
-"لا أبداً" قلت وأنا أكاد أتجمد بجوارها على الكنبة الجلد.

"لا أحد حُرّ سوى"زيوس!

كانت ليلة رأس السنه عام 1992 ليلة غريبة. كنت أعمل فى وردية الليل فى مطار القاهرة عندما أتانى ضابط شرطة وسألنى إن كنت أتكلم الفرنسية. فقد كانت هناك سائحة بصالة الوصول ترفض مغادرة المطار، ويبدو أنها لا تفهم الإنجليزية. ذهبت مع الشرطى لصالة الوصول ورأيت امرأة جميلة فى متوسط الثلاثينات تجلس على أحد المقاعد وقد وضعت ساقاً فوق الأخرى فى كبرياء.
-"هل تتكلمين الفرنسية؟ " سألتها بالفرنسية.
-"نعم أتكلم الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإسبانية" جائت إجابتها بالإنجليزية مما أثار دهشة الشرطى.
أحسست أن قصة هذه المرأة طويلة ، فطلبت من ضابط الشرطة أن يغادر المكان ووعدته أن أحكى له فيما بعد قصة السائحة المتمردة .
كانت ألمانية، جميلة وأنيقة جدا، كانت تعقد جبينها بشريط أحمر أبرز جمال عينيها الخضراوتين. كان شعرها أحمر وقصير، وبدت على وجهها علامات الإرهاق وخيبة الامل.
-"هل هناك شئ يمكن أن أفعله من أجلك يا سيدتى ؟" سألتها بأدب.
-"المصريون أناس يصعب الثقة بهم!" قالت بمرارة.
-"نعم أنا أعلم ذلك" قلت دون تردد.
إنفرجت شفتاها بإبتسامة حزينة عندما سمعت إجابتى.. إبتسامة تخلط "الميلانكولية" بالأمل: نفس الخليط الذى كنت أشعر به دائما وأنا أقرأ الأدب الألمانى. ورغم أنى كنت أعمل فى مكتب سياحة بالمطار منذ فترة فقد كانت هذه أول مرة أتحاور فيها مع ألمانية.
قالت لى انها من عشاق النيل وأن هذه هى المرة العاشرة لها فى مصر. وقالت انها حجزت رحلة لتقضى ليلة رأس السنة بالقاهرة ودفعت المبلغ لشركة السياحة، ولكن أحداً لم يأت لإستقبالها. خطر ببالى عذر معقول لشركة السياحة ، فقد كانت ليلة رأس السنة ليلة مزدحمة جداً وربما لم تستطع حافلة شركة السياحة الوصول للمطار، أو ربما لم يصلهم تأكيد الحجز فى الوقت المناسب، ولكننى لم أقل لها شيئاً من ذلك، فلم تكن لدىّ رغبة فى الدفاع عن أبناء بلدى فى هذا الوقت.
رحنا نتسامر لفترة طويلة، وأعجبنى الإنصات لحديثها، فلغتها الانجليزية كانت منمقة وبليغة على الرغم من أنها لم تكن لغتها الأم. حكت لى أنها كانت متزوجة من طبيب مشهور بألمانيا وأنها أنجبت منه طفلين جميلين، ولكنهما إنفصلا منذ شهور، فقد صارت تمل الحياة "السعيدة" الخالية من المفاجئات.
توقفت عن الحديث فجأة وفتحت حقيبة سفرها وأخرجت بعض الهدايا وأرادت أن تعطينى إياها ولكننى رفضت بأدب.
-"كنت أظن أن المصريين يلهفون كل ما يقابلهم، ولكن يبدو أن هناك بعض الإستثناءات!" قالت مبتسمة. كنت لا أريد أن أفشى لها أننى تماماً مثل كل أبناء بلدى.. مشبع بنفاقهم وأعانى من كل مرض منتشر بينهم . فلم تكن تدرى على سبيل المثال أننى كنت أنوى أن أحجز لها فندقاً غالياً فى القاهرة وأحصّل بذلك عمولة 25% من الفندق.
ولكننى كنت مهتم كثيراً بهذه المرأة الغامضة وكان يجذبنى الحديث اليها. كانت مختلفة تماما عن السائحات العاديات، فهى لم تأت بحثاً عن ترفيه أو لذّة، ولكنها كانت على ما يبدو تهرب مثلى من ألم عميق. عندما سألتها لماذا تقضى هذه الليلة وحدها، شرعت فى البكاء وقالت: "طفلتى الصغيرة قالت انها لا تريد أن تقضى أى وقت معى لأننى لست أمّاً جيدة. هذا بالطبع ما علّمها أبوها لها بعد أن تركت العائلة.. ولكن يبدو أنه محقّ. فأنا لست أمّاً جيدة.. نعم ..لا يوجد إنسان كامل!" راحت تكرر هذه الجملة حتى ظننت أنها لن تتوقف . لا يوجد إنسان كامل" كانت تقولها مرة بنبرة إعتذار ومرة بنبرة حسرة وخيبة أمل، وكأنها تندم انها لم تلاق إنساناً كاملاً فى حياتها وتأسف أنها لم تكن هى أبداً هذا الإنسان.
ثم أخرجت من حقيبة يدها صورة صغيرة رسمتها بنفسها وقدمتها لى كهدية. وقد قبلت الهدية هذه المرة وسألتها عن معنى الرموز التى وردت فيها: كانت دائرة كبيرة لها ثقب فى القاع وكانت الدائرة مليئة بالرموز التى تشبه رموز الأديان ورمز علامة النازية مقلوباً. وكانت بعض الرموز قد سقطت من الثقب الموجود بقاع الدائرة. كانت رموز كل الأديان صغيرة مما جعل من المنطقى أنها سوف تسقط من الثقب ، ولكن رمز النازية المقلوب كان كبيراً بدرجة تسمح ببقائه فى الدائرة. فسألتها عن هذا الرمز فقالت:
-"هذا الرمز كان يرمز فى الماضى لله وقد أساء النازيون استخدامه."
وقد فسرت لوحتها كالتالى :
-"إن الله قد خلق العالم واهيا ضعيفاً حتى يسقط كل شئ فى النهاية - حتى الإيمان به - فلا يبقى عند نهاية

الكون غير الله فقط ".
- ولماذا يفعل ذلك؟" سألتها بفضول".
- لأنه لا يوجد أحد حر إلا "زيوس" قالت بزفرة حزينة".
أثارت هذه المقولة إهتمامى الشديد بالأساطير الإغريقية ، وهى مقولة لـ"بروميثيوس". وقد كان نصف بشر ونصف إله وأراد أن يتحدى إرادة الآلهة ويسرق منهم النار ولكن الإله الأكبر "زيوس" عاقبه بثلاثين عاماً من العذاب تأكل الطيور الجارحة من قلبه المفتوح. فراح يبكى حظه التعيس ويشكو.. وفى نهاية المطاف لم يتسع له إلا أن يعترف : لا أحد حر غير "زيوس" وعندما قال ذلك إنتهى ألمه الطويل. ذكرتنى هذه الروح التمردية بـ "دكتور فاوستوس" الذى باع روحه من أجل الحرية ولكنه لم يحصل فى مقابل ذلك إلا على بعض اللذات الرخيصة والقدرات السحرية البهلوانية، فاعترف بحدوده كبشر قبل أن يسلم روحه للشيطان حسب الإتفاق. رحت أفكر كثيرا فى لوحة المرأة الألمانية الحساسة. هل يسقط الجميع إلا الخالق؟
- لوحتك تدعو إلى تفسيرات كثيرة. هل من الممكن أنّ كل شئ سيخرج من سجن الحياة ويختفى فى بحر" العدم، ويبقى الخالق وحده فى النهاية فى الدائرة التى خلقها؟"
كانت إبتسامة عذبة هى الإجابة الوحيدة التى صدرت منها .
كان إسمها "أنطونيا" ورحنا نتسامر طول الليل.
أثارت هذه المرأة إعجابى واحترامى. كان كل شئ تقوله فيه رقة وحكمة وحزن. حتى القصيدة التى تلتها علىّ كانت جميلة ومؤلمة فى نفس الوقت: "حكمت على الناس وحكم على الناس. رأيت الخير والشر . دخلت الجنة وخضت الجحيم . وفى النهاية عرفت أن كل شئ بداخلى وأننى بداخل كل شئ ".
أثار دهشتى كم كان فكرى وإحساسى قريب من هذه المرأة التى نشأت وتربت وعاشت فى بيئة أخرى غير بيئتى... نشأت بيننا صداقة عميقة دامت حتى بعد عودتها إلى ألمانيا. كنا نتراسل بإستمرار ونلعق جراح بعضنا عبر مسافة تزيد عن 3000 كم.
عرضت على "أنطونيا" أن تساعدنى لتقديم أوراقى بإحدى الجامعات الألمانية، فوجدتها فرصة جيدة لمغادرة مصر. ولكن كان على أن أنهى عامى الدراسى الأخير وأن أقضى الخدمة العسكرية الإجبارية لمدة سنة.
***
وبعد ثلاثة أعوام كانت أنطونيا قد عادت إلى الحياة "الطبيعية" من جديد، وصارت تقود سيارة "تويوتا كورولا" وتنتخب الحزب المسيحى المحافظ لأنه يطالب بخفض الضرائب عن الطبقة المتوسطة.
كان كل شيء غريب على حواسى فى الأيام الأولى فى ألمانيا: الناس، الروائح، الألوان والطعام ودرجات الحرارة. رحت أفتقد الأصوات والأشياء والألوان المألوفة التى كانت تساعدنى على التعرف على نفسى وعلى محيطى. رحت حتى أفتقد الصور النمطية التى كانت مرتبطة فى ذهنى بألمانيا.. فقد أصبت حتى بخيبة الأمل لأننى أبداً لم أرَ شباب النازيين الجدد يجوبون الشوارع ويهتفون مطالبين بطرد الأجانب.. وأصابنى أكثر من ذلك بخيبة الأمل أننى لم أرَ شقروات عاريات فى الشوارع على الإطلاق... لاحظت أن معظم الألمان لهم شعر بنى وعيون داكنة.
أنا راجل مسلم ولا أستطيع أن أنام مع إمرأة فى سرير واحد إذا لم تكن زوجتى. قررنا الزواج بين عشية وضحاها دون أن نفكر كثيرا فى تبعات هذا القرار. كانت أنطونيا تحاول أن تثبت لنفسها بعد فشل زواجها الأول أنها لا تزال قادرة على خوض الحياة الزوجية وكنت أنا أبحث عن حنان إمرأة تفهم مشاعرى. وبالطبع كنت أطمع أيضاً فى الحصول على الإقامة الدائمة فى ألمانيا من خلال هذا الزواج.
تزوجنا كطفلين متمردين دون أن ندرى أى مستقبل سيجمعنا. كانت تحاول أن تكون حنونة ورقيقة ولكن الفارق كان شاسعاً بين أمزجتنا وإيقاع حياتنا وثقافتنا، وهكذا كان الصراع بيننا مبرمجاً مسبقاً. علمتنى السباحة ولكنها لم تستطع أن تعلمنى القيم الألمانية الغربية كالنظام والإنضباط والدقة . فقد كانت أمراض "النظام" الذى نشأت فيه قد هاجرت معى فى حقائب سفرى وصارت جزءً لا يتجزأ من شخصيتى. ومع ذلك حاولت التأقلم بقدر المستطاع.
- "ماذا على أن أفعل حتى أصير مثل الألمان تماماً؟"
- "عليك أن تتقن الألمانية جيداً"
- "وماذا بعد؟"
- "قيادة السيارات"
بعد أسبوعين:
- "شاكر، أعتقد أن قيادة السيارات ليست لأمثالك. أنت مجاذف وأرعن!"
عندما رأيت الثليج لأول مرة كدت لا أصدق عينى. لففت نفسى فى أسمك ملابسى وأخفيت كل شى ما عدا عيونى وفتحتى أنفى ورحت أسير فوق الثليج تملؤنى سعادة طفل .
- "ما رأيك فى رحلة لجبال الألب؟ ستجد هناك ثليجاً أكثر!" إقترحت على أنطونيا.
- "آاااااه يا ضهرى!! إنزلاق غضروفى.
هذا جزاء كل مصرى تسوّل له نفسه أن يتعلم التزحلق على الجليد!
- "هل يوجد هناك أى نشاط ألمانى ليس فيه خطورة على الحياة؟"
- "أكيد!! الإستماع للموسيقى الكلاسيكة مثلاً"
- "والله فكرة! أنا أعز موتسارت جداً"
بس موتسارت كان نمساوى مش ألمانى!
آه بس آبو موتسارت إتولد فى "أوجسبرج" والمدينة تفتخر به كثيراً.
تفتخر "أوجسبرج" اليوم أيضاً بإثنين من أبنائها المقبورين: "رودولف ديزيل" مخترع الموتور و"برتهولد بريخت" الشاعر والمسرحى اليسارى. ولكن "أوجسبرج" تنكرت لديزيل بعد وفاته لأنه مات منتحراً ورفضت دفنه فى مقابر المسيحيين. أما "بريخت" فقد تنكر لمدينته وقال عنها "إن أجمل ما فى أوجسبرج هو القطار السريع إلى

"ميونخ"".
حاولت أنطونيا كل ما فى وسعها كى أشعر أن بيتها هو بيتى ولكن دون جدوى. إكتشفتْ بعد قليل أن هذا الشاب المصرى الحساس المثقف الذى التقت به فى مطار القاهرة لم يكن إلا واجهة حسنة لكيان "قبيح".. لم يكن إلا لفافة جميلة حول شخصية مهزوزة ونفس مريضة. بدأت أشعر ببرودة أكبر وغربة أعمق وبدأت أنطونيا تشعر بأنها تسرعت فى إتخاذ قرار الزواج. لم أستغل الهجرة فى تفكيك ثقافتى وإعادة النظر فيها بل قادتنى الوحدة إلى تعظيم الذات وتصوير حضارتى على أنها أرقى حضارات الأرض. ورحت أصلى كثيرا أمام "أنطونيا" وأسمع القرآن فى حضرتها، وحاولت إقناعها بإعتناق الإسلام.
كنت أتظاهر أمام أنطونيا بالتديُّن، ولكننى كنت أنتظر حتى تنام وأشاهد أفلام "السكس" التى كانت تعرضها القنوات الألمانية الخاصة بعد منتصف الليل. كان يدهشنى أن العاهرات فى ألمانيا يتمتعن بحرية كبيرة تسمح لهن حتى بالإعلان عن أنفسهن فى التليفزيون. أهكذا بهذه البساطة يحصل الألمان على إمكانيات الترفيه الجنسى؟ والله الشعب دا الظاهر إن ربنا راضى عنه!! رحت أتذكر أول أيامى فى القاهرة بعد أن إنتقلت من القرية للمدينة بغرض الدراسة. كنت أقف كالتائه بجوار سور الأزبكية أراقب جموع البشر، فجاء إلىّ أحد باعة الصحف وسألنى:
-"مش عايز مجلة سكس؟"
فرددت بتلقائية "بكام؟"
- "بعشرين جنيه".
كان فى جيبى فقط خمسة وثلاثون جنيهاً كنت أنوى أن أشترى بها قميصاً جديداً، ولكنى قبلت العرض. إختفى البائع لدقائق وعاد بالمجلة ملفوفة فى ورق صحف وطلب منى ألا أفتحها إلا بعد أن أترك المكان حتى لا ترانى الشرطة. فأخذت المجلة وسرت فى الشارع التفت حولى كسارق مبتدئ ورحت أبحث عن مكان آمن أتصفح فيه الصور العارية. دخلت "جروبّى" وكان شبه خالى من الزبائن، فطلبت عصيراً غالياً وفتحت اللفافة بحذر وترقب فوجدت بداخلها مجلة "آخر ساعة".
رحت أتصل بعاهرات الهاتف بعد منتصف الليل وأمارس معهن "السكس" عبر التيليفون وأنا أفك ضيقى بيدى. وكانت أنطونيا تتعجب فى نهاية كل شهر من غلاء فاتورة التليفون. وكنت أذهب فى الصيف لإحدى البحيرات وأتلصص على الفتيات عاريات الثدى الراقدات تحت الشمس. كنت أراقبهن وهن يقبِّلن أصدقائهن الأولاد فأقول "يا بختكم!" كنت أتمنى أن أولد فى مجتمع كهذا من جديد فألتقى بواحدة من هؤلاء الصبايا فى سن السادسة عشر فأبدا معها علاقة جنسية غير معقدة...
أكانت هذه هى الحرية التى فررت إليها من مصر؟ حرية التلصص ومبدأ "عشرة باليد ولا الحوجة لحد"؟ أليس ذلك ما كنت أفعله فى مصر أيضاً؟ أم أننى قد هربت من عبودية إلى عبودية أخرى.. أم أنها حرية مثل حرية "فاوستوس" الذى باع روحه للشيطان مقابل لذات رخيصة؟ وجدت فى أيامى الأولى بألمانيا "تفرّدا" ولم أجد "فردية"، وجدت "تحرّرا" ولم أجد "حرية". حريتهم لم تكن لى إلا إمكانية الإختيار بين "كوكاكولا" و"بيبسى كولا"!!
وكان النضام الدراسى فى الجامعة مختلفاً تماماً عن النظام المصرى، فلم تكن هناك مقررات ولا جداول للحصص، فكان علىّ أن أختار دروسى وأساتذتى بنفسى. وكان ذلك صعباً على من إعتاد النظام السلطوى فى كل شئ. ولكننى تعلمت اللغة الألمانية فى زمن قياسى، حتى كتبت عنى كبرى الصحف الألمانية مقالة طويلة بعنوان "معجزة لغوية من أرض النيل!". وبعد فترة غيَّرت الجامعة وإلتحقت بجامعة "أوجسبرج" بدلاً من "ميونخ" لأوفر مصاريف السفر. ولكن دراستى هناك كانت مملة للغاية، فكانت معظم الدروس المعروضة تدور حول نظام الأحزاب فى ألمانيا وسياسة منظمة "الناتو" ومخططات توسع أوروبا فى إتجاه الشرق. واشتريت "بدلة" جديدة و"كرفتة" لكى أذهب بها للجامعة وفوجئت بأستاذ جامعى يأتى بـ "شورت" قصير على دراجة.. كانت معظم الطالبات غير جميلات.. وكنت لا أجرؤ على مصادقة إحداهن فقد كنت متزوجاً وكانت البنات لا تقترب من الرجل المرتبط حتى لو كانت علاقة بدون زواج.
إصطحبتنى أنطونيا بسيارتها إلى الكثير من الأماكن الجميلة ولاحظت أن الطبيعة فى جنوب ألمانيا خلاّبة. ولكننى نادراً ما كنت أستمتع بهذه اللحظات. كنت أشعر دائما بالوحدة والكآبة إذا توقفنا عند أى مكان جميل، وكأن الجمال يثير بداخلى مشاعر الحزن. بدأت أشعر تدريجياً بالكراهية تجاه هذا البلد وشعبه رغم أن أحداً هناك لم يضايقنى مباشرة. كان فقط يضايقنى أن الألمان يحللون كل شئ وينقدون كل شئ وخاصة ذاتهم. قلما رأيت منهم من يشعر بالرضى، فمعظمهم يشكو ويتذمر. ولكن أحداً منهم إذا دخل مطعما للأكل وقُدم له طعام سئ الطعم، ثم جاء "الجرسون" لأخذ الحساب وسأل الضيف "كيف كان طعامك؟" ، يرد الألمانى دائما "كان شهياً للغاية.. شكراً!" وكأنها إجابة مقدسة لا يمكن تغييرها. فوجئت بوجود الملايين من العاطلين وآلاف المتسولين فى البلد الذى كنت أظن أن جميع مواطنيه فلاسفة وموسيقيون. رأيت أن النقاش فى هذا البلد لا يدور حول "معنى الحياة" وإنما حول تكلفة الحياة. لم يتساءل أحد عن وجود الله وانما عن "الضمان الصحى" وقدر المعاش بعد التوقف عن العمل. أدهشنى أن معرفة الألمان بالعالم كانت محدودة جداً رغم أنهم أكثر شعوب الأرض سفراً وسياحة.
رأيت أن الألمان أيضا كانوا يعيشون فى "نظام" رأسمالى مغلق يتحكم فيهم ويسوقهم كالأغنام، مع الفرق أن نظامهم كان أكثر دقة حتى فى جوانبه الحيوانية! فمفهوم الحرية هناك كان مفهوماً إستهلاكياً. حتى إهتمامهم بالبيئة وحماية الحيوانات بدت لى وكأنها أحد مخلفات الشبع والتخمة. كنت أرى فى التليفزيون - فى الوقت الذى كنت لا أرى فيه أفلام "السكس" - برامجاً وثائقية كان معظمها إما عن "هتلر" والفترة النازية أو عن الفقر والمرض وعدم الحرية فى العالم الثالث.. وكأنهم كانوا يحتاجون إلى مثل هذه البرامج لغرس ثقافة الشعور بالذنب فى أنفسهم. أم انهم كانوا يتلذذون برؤية الجوع والحرمان فى مجتمعاتنا حتى يشعروا بالراحة والعرفان لما هم فيه من "نعيم"؟
أصبت بالصدمة عندما عرفت أن بألمانيا أيضا وحوشاً بشرية تختطف الأطفال البريئة وتغتصبهم، بل وتقتلهم

وتوارى جثثهم فيما بعد. كانت هذه الحوادث تقع بإستمرار رغم أن ألمانيا مجتمع إباحى لا يصعب لأحد فيه ممارسة الجنس من خلال علاقات مفتوحة أو مقابل المال مع العاهرات "الشرعيات". كانت أنباء إختطاف الأطفال تأتى أسبوعياً فى التيايفزيون الألمانى فتثير بداخلى أوجاعاً قديمة ظننت أننى قد رميتها وراء ظهرى يوم حزمت أمتعتى وقررت الرحيل من مصر.

يبدو أن النجيل يبدو دائما أكثر إخضراراً إذا نظرنا إليه من الجانب الآخر من النهر وأن الشيخ البعيد سره باتع. أصبح من الواضح أن ألمانيا التى كانت بخيالى لا توجد على الأرض. تذكرت أيام طفولتى فى المدرسة الإبتدائية عندما قال لنا مدرسنا ان فصل رابعة تانى أكثر منا ذكاءً ونشاطاً، فرحت أحلم برابعة تانى وأتمنى أن أكون مثلهم. وحانت الفرصة أن أرى رابعة تانى ذات مرة عندما غاب مدرسهم وجُمع رابعة أول ورابعة تانى فى فصل واحد، فأكتشفت أنهم على نفس الدرجة من الكسل والبلاهة مثلنا تماماً. وهكذا كان الأمر مع الألمان. إكتشفت أنهم بشر مثلنا تماماً.. لهم حدودهم ومشاكلهم.. لهم مخاوفهم وغبائهم.

مرت شهور تعمقت فيها مشاعر الغربة والوحدة بداخلى رغم أننى لم أتعرض لأى إعتداء يذكر. كانت مرة وحيدة تعرضت فيها للسب من أحد مشجعى فريق "1860 ميونخ"، وكان مسطولاً بالقطار. إقترب منى وهو يصيح ورائحة البيرة تفوح من فمه : ماذا تفعل هنا أيها الأجنبى القذر؟ لماذا لا تعود إلى بلادك؟

حاولت الإحتفاظ ببرودى ورددت عليه بعد أن تعرفت على فريقه المفضل لكرة القدم من الشال الذى كان حول عنقه:

-"جئت لألمانيا لأننى من مشجعى فريق "1860 ميونخ"

-"حقا؟ ومن أى بلد أنت؟"

-"من مصر"

-"وهل يعرف المصريون "1860ميونخ؟"

-"بالطبع! وهم يعرفون أن "1860 ميونخ" فريق عريق وأنه الممثل الحقيقى لمدينة ميونخ.. أما لاعبو "بايرن ميونخ" فهم مغرورون لا ينتمون لميونخ وقد إشتراهم الفريق فقط بالملايين!" قلت بنفاق لأنقذ نفسى، ويبدو أنى نجحت.

-"هذا صحيح!" قال المشجع المسطول وغير موقفه تجاهى تماماً.

فى الحقيقه كان معظم الألمان الذين قابلتهم محترمين. كان فقط يضايقنى حب المثقفين منهم للنقاش العقيم، فكان زملائى فى الجامعة وحتى أساتذتى ينتظرون منى أن أكون خبيراً فى الشئون الإسلامية ويوجهون إلى دائما نفس الأسئلة، لا من باب حب المعرفة ولكن من باب الفضول والتسلية: لماذا تزوج النبى من 13 إمرأة بينما لا يُسمح للرجل المسلم الزواج إلا من أربعة فقط؟ أو: لماذا يميل المسلمون للعنف؟ أو: ما سر تخلف العالم الاسلامى؟ ولماذا يأمر القرآن الرجال بضرب نسائهم؟ لم أكن أرغب فى الدفاع عن الإسلام، ولكن مثل هذه الأسئلة يستفز كل مسلم فى الغربة فلا يجد بديلاً من أن يصبح محامياً للإسلام بل وداعية أيضا. كان يضايقنى أن أسمع من الألمان كلمة "محمد" بدون أن أسمع بعدها "عليه الصلاة والسلام".

إختفت شكوكى الايمانية القديمة خلف محاولاتى للدفاع عن الاسلام. أصبحت أشعر بهجوم وعدوانية كل من حولى حتى إذا لم يقصدو ذلك.

حاولت فى بادئ الأمر أن أبتعد عن تجمعات المهاجرين وحاولت تقليد الألمان فى كل شئ، حتى أنصهر فى مجتمعهم، فرحت أتعلم التزحلق على الجليد وأنصت للموسيقى الكلاسيكية، ولكنى توقفت عن التزحلق بعدما كاد ظهرى أن يكسر بعد إرتطامة شديدة كادت تجعل منى رجلاً عاجزاً. وقد كان ذلك سبباً فى آلام الظهر المزمنة التى أصبت بها فيما بعد. وكانت عزلتى عن المجتمع الألمانى فيما بعد قد جعلتنى أكره كل شئ يحبه الألمان فكنت لا أطيق رؤية من يشرب البيرة. حتى رؤية لحم الخنزير فى "ميز" الجامعة كانت تثير كراهيتى وغضبى. وتوقفت عن سماع الموسيقى الكلاسيكية، وكنت أقول لـ "أنطونيا" عندما كانت تنصت إليها:"أى أوجه الجمال تجدين فى هذه الموسيقى؟ فهى ليست إلا مثل صراخ القطط، وما الغناء الأوبرالى إلا مثل نواح الندّابات فى جنازات قريتنا!"

وفى نهاية المطاف لم يتبقَّ لى إلا أن أبحث عن مسجد لأجد فيه من هم مثلى. وقد وجدت بقرب وسط المدينة مسجداً صغيراً كانت تديره إحدى الجماعات التركية. ولم يكن مجرد مسجد، بل كان مركزا متكاملا لخدمة المهاجرين الأتراك ، فكان يحوى دكاناً لبيع المواد الغذائية التركية ملحقاً به حلاق لقص شعر المسلمين بثمن بسيط ومطعم للشاورمة التركية التى يطلقون عليها إسم "دونر" ومقهى وشركة سياحة لتنظيم رحلات الحج ورحلات المهاجرين لتركيا فى الأجازات. إذاً فقد كان مجتمعاً مصغراً داخل المجتمع الألمانى. وكنت عندما أدخل إلى هذا المركز أشعر أنى تركت ألمانيا تماماً، فبعد بوابة المركز يختفى النظام المعهود والنظافة الزائدة عن الحد كما ينتهى الحديث باللغة الألمانية. كنت أذهب إلى هناك من وقت لآخر للصلاة أو لقص الشعر ولشراء بعض الأطعمة التركية التى كانت تقارب فى مذاقها الطعام المصرى.

رأيت أن المسلمين فى ألمانيا أتراكاً كانوا أو عرباً، هنوداً أم إيرانيين هم أشد المهاجرين تقوقعاً على أنفسهم وأقلّهم إلماماً باللغة الألمانية وأكثرهم عناداً وإصراراً على التمسك بما يسمونه "ثقافتهم". وقد تركهم الألمان لعشرات السنين منعزلين لأنهم أبداً لم ينظروا إليهم كبشر وإنما كآلات تقوم بأعمال قذرة يرفض الألمان القيام بها. وكان معظم المهاجرين المسلمين قادمين من مجتمعات ريفية أو جبلية، ولم يكونوا على قدرٍ كافٍ من التعليم، فصار الألمان يظنون أن المسلمين فى كل أنحاء العالم كذلك. وصار المسلمون يتكتلون فى أماكن معينة فى المدن فلا يختلطون بالألمان ولا يحتاجون اليهم، فلديهم بنيتهم التحتية الخاصة بهم، فتجد فى كل مدينة كبيرة فى ألمانيا جزءً يطلق عليه إسم "إسطنبول الصغيرة". وبالطبع أن ينشأ الأطفال فى هذا الجو دون إتقان اللغة الألمانية، فيواجهوا صعوبات كبيرة عند إلتحاقهم بالمدارس، وتكون النتيجة ألا يقدر على دخول الجامعات من أبناء المهاجرين أكثر من 3 % فقط، فيكون معظمهم عاطلين أو مدمنى مخدرات أو متاجرين لها، أو أعضاء فى عصابات عنيفة أو أصوليين إسلاميين. وفجأة إنتبه الألمان لخطورة عدم اللامبالاة هذه فراحوا يحثون الأجانب على الإندماج. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، فأنت لا تستطيع أن تترك قوماً فى عزلة لمدة أربعين عاماً ثم تأتى

فجأة وتطلب منهم الإنفتاح بين عشيةٍ وضحاها. فالمسألة ليست مثل مغارة على بابا التى تُفتح بالمقولة السحرية "إفتح يا سمسم!"
وقد إكتشفت بعد سنة كاملة زرت فيها هذا المسجد أنه ينتمى لجماعة "ميلى جوروش" وهى منظمة تركية تراقبها المخابرات الألمانية بإعتبارها منظمة أصولية مناهضة للدستور الألمانى. ومع ذلك فإن هذه المنظمة تدير أكثر من 500 مسجد فى كل أوروبا ولم تغلق السلطات أى مسجد منهم على الإطلاق. فالدستور فى أوروبا يحمى الجميع حتى بعض من لا يعترفون به. ولكن المسلمين الأتراك يشتكون دائما أنهم ليست لديهم كل حقوق المواطنين، فغير مسموح لهم بالذبح على الشريعة الإسلامية داخل الأراضى الألمانية وغير مسموح لهم برفع الآذان من خلال مكبرات الصوت من المساجد.
ولكننا نحن الطلاب العرب كنا نعانى أكثر من الأتراك. فمعظم المسلمين فى ألمانيا من الأتراك، والمساجد والمؤسسات مبنية حسب إحتياجات الأتراك، فكانت خطبة الجمعة بالتركية.. وكان فهمهم للإسلام فهماً خاصاً إنصهر فيه الإسلام بالقومية التركية. ولهذا فلا يجد بعض الطلاب العرب مكاناً فى المجتمع الألمانى ولا بين المهاجرين الأتراك. والشباب التركى الغير متدين يجد العديد من الأندية الشبابية والديسكوهات الخاصة بالاتراك فقط، فلا يشعرون بالضياع التام حتى لو فقدوا دينهم. أما بالنسبة لنا نحن الطلاب العرب فكنا بين خيارين إثنين: إما التدين التام وبالتالى العزلة عن الألمان، أو الإنصهار التام ونسيان الدين.
وهكذا أصبحت مشتتاً بين الجامعة والمسجد وأفلام البورنو. ومع الوقت ومع غياب الرقابة الإجتماعية، أصبحت لا أجد معناً فى زيارة المسجد وأصبح "تديُّنى" مجرد شئ مظهرى من أجل الإستهلاك المنزلى! أصبح "إيمانى" مثل إيمان المسلم الذى يأكل لحم الخنزير لكنه يصرّ أن يكون الخنزير مذبوحاً على الطريقة الإسلامية!
بدأت العمل فى محطة لغسيل السيارات لأكون مستقلاً مادياً عن "أنطونيا" وكانت تعجبنى هذه المهنة. فقد وجدت فيها شيئاً روحياً أسطورياً.. ربما رغبتى فى تطهير الذات. ولكن بعض الزبائن الألمان كانوا يضايقوننى كثيراً بغرورهم وتدليلهم الزائد عن الحد لسياراتهم.. فقد جاء أحدهم ذات مرة بسيارته المرسيدس فغسلتها له غسيلاً يدوياً محكماً كالعادة ثم تركت السيارة تمر داخل المحطة الإلكترونية. فعاد بعد قليل وإشتكى أن إطارات العجلات لم تكن على درجة كافية من النظافة، فغسلتها مرة أخرى وسمحت له بالمرور فى المحطة الإلكترونية مرة ثانية، ولكنه عاد من جديد وهو غير راض عن نظافة العجلات. شعرت بموجة عارمة من الغضب، فدخلت إلى المحطة وعدت وبيدى "شاكوش" وصرخت فى وجهه: "أنا أعرف أنك ربما تحب سيارتك أكثر من حبك لزوجتك، وأعرف أنك تغسلها أكثر مما تغسل نفسك، ولكن هذه ليست مشكلتى. أقسم لكَ أنك إن لم تغرب عن وجهى فوراً فإننى سأهشم لك الصاج والزجاج بهذا الشاكوش".. فرّ الألمانى مذعوراً، واشتكى فيما بعد لرئيسى فى العمل وكان تركياً.. فقال لى رئيسى "لقد كان عملاً جيداً منك. فلا يجوز التعامل مع هؤلاء المغرورين إلا بهذه الشجاعة!" أحسست بأنه قد تراكم بداخلى كم هائل من العنف، وبدأت قمة جبل الجليد تظهر شيئاً فشيئا...

الأدغال

أصبحت علاقتى بـ "انطونيا" مجرد صداقة باردة.. وقد كانت مشغولة بإصلاح علاقتها مع أطفالها. وكانت تبحث عن روحانيات جديدة، فقررت الذهاب إلى رحلة طويلة للهند للبحث عن ذاتها. كانت رحلتها فرصة ذهبية لى للإستمتاع بقدرأكبر من الحرية. فرُحت ذات ليلة لأحد "ديسكوهات" المدينة أبحث عن مغامرة حقيقية. دخلت إلى الملهى ومذاق الحرية اللذيذة يملأ حلقى ورائحه الهواء المشبع بالتبغ والكحول تزكم أنفى، وصوت الطبول الرتيبة يملأ أذنىّ. طلبت من "البار" كأساً كبيراً من النبيذ الأحمر، ولكننى لم أشرب منه. جلست فى ركن من أركان الملهى أراقب الشراب الداكن يرقص فى الكأس وأنا أتذكر إحدى قصائد "عمر الخيَّام" التى تبدأ بـ "إن القرآن يبدو أكثر جمالاً عندما يُنقش على كأس الخمر"!
ياله من زنديق! يالها من صورة جميلة!
تخيلت نفسى أجلس فى حديقة فارسية وأتحاور مع متصوف فأسئله "هل الخمر حرام؟" فيرد على بإجابة غامضة "إن الخمر حرام، ولكن الخمر أيضا طريق.. وكل الطرق تؤدى إلى الله!!"
فناء - بقاء - توكُّل" رحت أتذكر المتصوفين فى مصر وهم يرقصون ويذكرون الله.. كان منظر الشباب" والشابات فى "الديسكو "لا يختلف كثيراً عن رجال الطرق الصوفية، فقد كان كل منهم يطوح رأسه يميناً وشمالاً باحثاً عن النشوة والخلاص. "كلٌّ يعبد الله على طريقته!" تذكرت مقولة أبى. جالت عيناى فى صالة الرقص باحثتين عن فريسة لفراشى فى هذة الليلة.. كان من الصعب أن أفرِّق بين الفتيات، فقد كن شبيهات جداً، وقد كنّ يرتدين جميعا نفس اللباس تقريبا وكأنه زى موحد.. أى فردية وأى حرية شخصية هذه التى يتحدثون عنها؟ فلكل مكان على ما يبدو قواعده المشفرة. وأخيراً رأيت فتاة على قدر معقول من الجمال تهز جسدها فوق المتوسط يميناً وشمالاً، فاقتربت منها وسألتها: "هل من الممكن أن أدعوكِ إلى شراب؟"
"لا.. شكرا" قالت الفتاة دون أن تنظر إلىّ . لا.. شكرا" قالت كل الفتيات لى فى هذه الليلة..

ماذا؟ ما هى الحكاية بالضبط؟ كنت أظن أن الفتاة إذا جاءت وحدها للديسكو فإنها تأتى باحثة عن رجل تشاطره الفراش فى ليلتها. وكنت أظنهن يفضلن شباب الجنوب بدمائهم الساخنة، وخاصة شباب مصر الفرعونى بمسلاتهم المشهورة!! كنت أظن أنهن سئمن القضبان الألمانية الشاحبة ذات الجلدة الأمامية الغير مقطوعة.. فلماذا لم تستجب واحدة لدعوتى؟ حاولت مرات عديدة فى ليالى عديدة دون أى توفيق.

أوشكت رحلة "أنطونيا" إلى الهند على الإنتهاء وكان مدفعى لم يطلق قذيفة واحدة بعد. وكنت أجلس ذات مرة فى "ديسكو" جديد أراقب كأس الخمر الممتلئ أمامى تداعبة أنوار المكان، ولم أشعر بأى رغبة فى مغازلة أية فتاة فى هذه الليلة.. كان الخمر صديقى الوحيد حتى دون أن أرشف منه رشفة واحدة. وعندما كنت أجلس هادئاً فى إحدى زوايا المكان لاحظت أن فتاة جميلة جداً كانت تنظر إلىّ من حين لآخر، ولما أطلت النظر لها إبتسمت لى إبتسامة إغراء، فأستدرت حولى لأتأكد من أن هذه الإبتسامة كانت موجهة لى أنا.. رددت عليها البسمة بالبسمة فجاءت نحوى تتراقص وهى ترتدى "مينى جيب" يظهر ساقيها الجميلتين وفخذيها الأبيضين، وكانت ترتدى "بلوزة" عقدتها تحت ثديها فأظهرت بطنها وسُرتها وضغطت ثدييها لأعلى.

-"هل أنتَ هنا وحدك الليلة؟" سألتنى سؤال تقليدى يسأله الجميع للجميع فى مثل هذا المكان.

-"نعم.. وأنتِ؟ هل أنت هنا وحدك؟" سألت بقليل من الإبداع أيضاً.

-"نعم.. أنا وحدى دائماً!" قالت بدلال غريب.

-"لماذا؟ هل فقد الرجال بصرهم حتى يتركوا جميلة مثلك تسهر وحدها؟" سألتها وقد شعرت بفنون الغزل الشرقى تتحرك بداخلى. الآن فهمت كل شئ . إنهم بالفعل يحبون شباب الصحراء و لِحنطتهم" الجنوبية، ولكنهم ربما يفضلون الهادئ منهم الذى ينتظر فريسته بصبر وكبرياء.

-"من أى بلد انت؟" سألتنى الجميله النصف عارية.

-"..أنا من دُبىّ!" قلت لها وأنا أعرف أن الألمان يعشقون أغنى بلدان الخليج.

لابد أنها ستظن الآن أننى ابن أحد أمراء البترول الأثرياء. وبالفعل تهلل وجهها بالبشر عندما سمعت كلمة "دبى" وكأنها قد أصابت ستة أرقام صحيحة فى لعبة "اليانصيب"!

-"دُبى؟ هذا رائع.. أنا أحلم دائما بالذهاب إلى دُبى.. ولكنى سمعت أن الجو هناك بالغ السخونة" قالت بإبتسام.

-"لن يكون أكثر سخونةً منك أنت أيتها الفاتنة" قلت وقد فك الله عقدة لسانى.

-"أووه! أنت لطيف جدا.. ما اسمك؟"

-"أحمد بن راشد آل مزعوم!" قلت ببرود الأمراء مدركاً أنها لن تستطيع حفظه.

-"وانت؟"

-"إسمى نادين".

-"إسم جميل ووجه أجمل!"

إبتسمت نادين عن أسنان بيضاء نظيفة وقالت "هيا بنا نرقص!"

ذهبت معها لحلقة الرقص وكان جسدى لا يدرى كيف يتحرك على إيقاع تلك الموسيقى العقيمة. وكانت موسيقى بطيئة، ولم أكن أجيد الرقص البطئ.

"إن سيقانك جميلة جداً، وثدياكى يدعوانى أن أعصرهما عصرا!" كاد لسانى أن يفضح ما تظنه رأسى، ولكننى عدَّلت العبارة فى آخر لحظة وقلت لها:

"عيناك جميلتان جداً! أزرقاوتان هما أم خضراوتان؟" سألتها وأنا أنظر إليها.

"خليط رمادى أخضر" أجابت مبتسمة..

وضعت يدى على خصرها وبدأنا الرقص... كان كل شئ فيها يغرينى.. جسدها الطرى، عطرها الثمين.. صوتها الواثق وأنفاسها التى كنت أشعر بها عند عنقى وهى تعانقنى أثناء الرقص وصدرها الممتلئ الذى التصق تماما بصدرى. لم يكن من الصعب عليها أن تلاحظ قطعة اللحم المنتصبة فى بنطلونى وقد التصقت بفخذها أثناء الرقص.

-"أريد أن أزورك مرة فى دُبى" قالت (ربما لتخفف على حرج إنتصابى.)

-"على الرحب والسعة! ولكن عليك أن تعلمى أن امرأه فى جمالك قد تسبب قتالاً بين الأمراء أيهم يحصل عليها!"

-"أنا لمن يدفع أكثر!" قالت مازحة.

-"سأدفع فيكى ألف ناقة" قلت مداعباً.

-"إذاً فأنا لك!" قالت وكأنها دعوة للخطوة القادمة. سقتها راقصاً إلى الحائط خلف حلقة المرقص حتى إستندت بظهرها عليه وأنا لازلت ألتصق بها.. ربما كانت خطوة سريعة.. ربما كان على أن أَدَع الطعام "يستوى على مهله"، ولكننى كنت تحت ضغط جسدى رهيب. أضف إلى ذلك الضغط الزمنى، فكنت أريد إنهاء المهمة قبل عودة أنطونيا.

-"نادين.. أريد أن أقبِّلك!" قلت مدركاً لخطوره هذا السؤال.

-"أنا موافقة، ولكن ليس فى هذا المكان" جائت إجابتها التى فاجئتنى وأثارتنى.

-"أين تفضلين؟" سألتها بدون صبر.

-"ما رأيك فى أن نذهب إلى غرفتى بوسط المدينة فنجلس هناك براحتنا ونتناول بعض الشراب؟" جائت إجابتها التى لم أكن حتى أحلم بها.

خرجنا من الديسكو هاربين وركبنا تاكسى إلى مسكنها.. دخلنا إلى غرفتها الواسعة المنمقة المرتبة بطريقة جذابة: كنبة مريحة فى الركن يواجهها جهاز تليفزيون غالى وسرير واسع فى الجهة الأخرى من الغرفه عليه غطاء بنفسجى مزركش، تعلو السرير صورة للوحة عباد الشمس لـ"فان جوخ" وفى ركن آخر تمثال "بوذا" على منضضة زجاجية وحولة بعض التحف.. أخذت نادين بعض الملابس من دولابها الأبيض واختفت فى الحمام لدقائق، فى حين كنت أجلس على الأريكة وأشاهد الغرفة المريحة. عادت نادين ترتدى فستاناً أسوداً شفافاً وقصيراً جداً

أكثر إغراءً مما كانت ترتديه من قبل، وسألتنى ماذا أشرب، فقلت لها "نبيذ أحمر". فتحت "الفاترينة" الزجاجية وجاءت بزجاجة النبيذ وكأسين كبيرين نظيفين. ثم أعطتنى الزجاجة والفتَّاحة ، ولكننى اعترفت لها أننى لا أجيد فتح الخمر فاستغربت جداً، فلا يوجد رجل فى أوروبا لا يستطيع فتح زجاجه النبيذ. فتحت "نادين" الزجاجة ببراعة وصبت الشراب فى كأسينا فكدت أن أرى كل ثدييها وهى تنحنى لصب الخمر. ثم جلست بجوارى فبادرت بجذب عنقها نحوى لتقبيلها، ولكنها تمنَّعت برقة وقالت: "إشرب نبيذك أولاً!"

-"أريد أن أرشف خمر شفايفك أولاً!" قلت مغازلاً، ولكن يبدو أن الغزل الشرقى لم ينفع هذه المرة فقالت: "لابد أن نتفاوض أولاً.. أعلم أننى كان يجب على أن أخبرك بذلك قبل أن نأتى إلى هنا، ولكن أود أن أكون صريحة معك.. أنا فى الحقيقة "عاهرة" ولا أفعل هذه الأمور إلَّا مقابل المال.. وأنا أتقاضى 100 مارك مقابل الجنس و300 إذا كنت تريد قضاء الليلة هنا.. فما رأيك؟" قالت بإبتسامة طفولية.

جاء إعترافها صدمةً لى، فكنت أظنها جاءت معى لغرفتها محبةً لسواد عيونى، ولكن يبدو أنها كانت تطمع فى بعض دولارات البترول الخليجى لا أكثر.. ولكننى سرعان ما أفقت من صدمتى. فأنا ما جئت إلى "الديسكو" إلا لصيد فتاة أنام معها، فلا فرق بينى وبينها!

-"إسمعى يا نادين.. ليست لدى مشكلة مع ما قلتى، ولكننى أنا أيضا لدىَّ إعتراف لك.. أنا لست أميراً من دبى، ولكننى "ابن غجر" من مصر وإسمى الحقيقى هو "شاكر عبد المتعال".. وأنا أكسب قوتى من غسيل السيارات.. ولكن لو كان بجيبى 100 مارك لأعطيتك إياها على الفور، بل لو كان معى مليون مارك لأعطيتك، فأنت أجمل إمرأة رأيتها فى هذا البلد حتى اليوم وأنت أجمل كذَّابة فى العالم!" قلت لها مصارحاً ومغازلاً فى الوقت نفسه. ويبدو أنه كان لهذه المقولة تأثيراً فعالاً، فقد واصلت إبتسامتها المغرية وهى تهز رأسها.. فالمرأة مرأة حتى لو كانت عاهرة: يخدِّرها الكلام المعسول ويسحرها المديح. بدأنا نمزح ونتسامر، وكان حوارى معها أصدق حوار لى فى ألمانيا، وكانت غرفتها أدفأ الغرفات. قالت لى إن الدعارة ليست حرفتها الرئيسية وإنما هوايتها، فهى تعمل فى النهار "كوافيرة". وقد إكتشفت فى عمر الثامنة عشر أنها مدمنة جنس فقررت ضرب عصفورين بحجر وجعلت هوايتها حرفة ثانية. وهى تذهب للديسكو إمّا لإصطياد شاب غنى يدفع أو شاب قوى يمتعها. وقالت لى انها جاءت بعض المرات برجال عرب ومسلمين إلى هذه الغرفة، ولكنها كانت تعجب من تصرفاتهم، فهم يمارسون معها الفحش وفى نفس الوقت يحاولون إقناعها بالتوبة وبإعتناق الإسلام..

لاحظت "نادين" أننى أواصل النظر لكأس الخمر الممتلئ دون أن أشرب منه فسألتنى:

-"لماذا لا تشرب نبيذك؟"

-"أنا لا أشرب الخمور" بحت لها بآخر أسرارى.

-"لماذا طلبت الخمر إذاً؟"

-"لأن رؤية الخمر تسكرنى مثل شربه تماماً"

-"أنا لا أفهم ذلك، كيف تعرف سكر الشرب إذا كنت لم تشرب أبدا؟" لم أجد رداً لسؤالها.

"هل لو طلبت منك أن تشرب من أجلى ستفعل؟" سألتنى بإبتسامة جميلة.

-"هذا أمر يتعلق بالمقابل الذى سأحصل عليه منك!" قلت بنظرة غير بريئة.

-"لو شربت الكأس كله سألعب معك لعبة لن تنساها طوال حياتك!" قالت وهى تغمز بعينها.

وراحت تشرح لى أصول اللعبة: قالت انها ستجلس على السرير ومعها كأسها وسأجلس أنا على الأريكة ومعى كأسى وسيخلع كل منا قطعة من ملابسه ثم يلقيها للآخر فى الطرف المقابل من الغرفة.. ثم نتبادل الأماكن ونلتقى فى وسط الغرفة فلا يتلامس إلا كأسانا.. ثم يشرب كل منا رشفة من كأس الآخر، ثم يجلس كل منا فى مكان الآخر وينتزع قطعة أخرى ويلقيها لزميله، حتى نصبح عاريين تماماً وحتى يفرغ الكأسين تماما.. ثم يرتدى كل منا ملابسه.. ثم أذهب أنا لبيتى وتنام هى وحدها. وافقت على شروط اللعبة بدون تفكير . كنت فقط معترضاً فى داخلى على النهاية التى إختارتها "نادين" للعبة التى لا تنتهى فى السرير.. ولكن الليل كان لا يزال طويلا "وياما فى جرابك يا حاوى!!"

نزعت "نادين" فستانها الأسود الشفاف وألقته إلى فلم يبقَ سوى ملابسها الداخلية السوداء.. كانت طويلة رشيقة القوام ولكنها لم تكن نحيفة. فنزعت بنطلونى والقيت به إليها وإلتقينا فى منتصف الغرفة.. وشرب كل منا من كأس الآخر، وكانت رشفة "لاذعة" ومُرَّة.. أهذا هو الخمر الذى يكتبون فيه الشعر؟! حقاً تسمع بالخمر خيرٌ من أن تراه.. وتراه خير من أن تذوقه!! ثم تبادلنا الأماكن وخلعت هى "سونتيان" صدرها فظهر ثدياها الجميلان عاريين ومتأهبين لكافة الإحتمالات. وما هى إلا دورة أخرى حتى وقفنا عاريين تماما كلٌ فى طرف من الغرفة.. فاقتربنا بحذر وشهوة من منتصف الغرفة ورشفنا آخر رشفتين ففرغ الكأسين وإمتلأت رأسى وجسدى بالشهوة.. أخذت من "نادين" كأسها ووضعته على الأرض بجوار كأسى الفارغ ورحت أتلمس شفاها بأصابعى فراحت تقبلها وتمصها، فوضعت يدى على خصرها وعصرته ثم ضممتها بقوة إلىّ فالتصق صدرها العارى بصدرى.. نظرت إليها بشهوة غامرة وقلت لها: "إذا لم أنم معكى الليلة فسأموت حسرة!" فردت وقد ابتلت عيناها "أنا لا يخلصنى أن تموت" قالتها ثم قربت شفاهها من شفاهى وراحت تقبلها ببطء شديد.. ثم أمسكت بيدى وساقتنى إلى السرير، ثم فتحت "الكومودينو" وجلبت منه عازلاً ركبته بتمكن على قضيبى.. ولم يكن العازل الوحيد الذى استخدمناه فى هذه الليلة!!

عدت فى الصباح هادئاً إلى البيت وأديت غسل الجنابة وصلّيت الصبح بدون أى مؤشرات للشعور بالذنب. عادت "أنطونيا" بعد أيام من الهند. وكنت سعيداً بعودتها. راحت تحكى لى القصص والطرائف التى صادفتها فى رحلتها وكنت أصغى اليها باستمتاع. لم أكن أشعر بالذنب تجاهها بالمرة. فما فعلته فى غرفة العاهرة لم يكن موجّهاً ضدها ولكن ضد حرمان السنوات الخمسة والعشرين المنصرمة من عمرى .

كانت "أنطونيا" مدرّسة وكانت لديها عطلات كثيرة. وكانت تسافر كثيراً وحدها. وكانت كل رحلة لها تقابلها رحلة لى فى عالم النساء. كانت "نادين" تخدمنى دائماً بالمجان حتى قررت الإنتقال لمدينة "هامبورج". فرحت أبحث عن لذتى بين الطالبات الأجنبيات الغير معقدات. فجربت أجناساً كثيرة: أرمينيا.. بولندا.. ايطاليا.. كوريا.. روسيا.. البرازيل.... وكانت أسهل تلك الطالبات هى المشتركات فى برنامج "إيرازموس" للتبادل

العلمى، فكن يأتين لفترة ستة شهور أو على الأقصى سنة لألمانيا للدراسة. وكن يستغلن هذه الفترة فى الإحتفال والإستمتاع. كنت ألتقى بالواحدة منهن فى إحدى الحفلات في بيت الطلبة وأقنعها أنى خبير فى قراءة الكف الفنجان.. وكنت أذهب معهن لغرفهن لأقرأ لهن الطالع فألمس أيديهن وأحسس عليهن ثم أقترح عليهن اللعبة التى علمتنيها "نادين" فكان معظمهن ينبهرن بها وينهينها معى فى السرير.

ولكن هذا لا يعنى أن كل بنات أوروبا كنّ عاهرات أو سهلات المنال. فمعظمهن يعشن فى علاقات ثابتة مع "بوى فريند" يخلصن له إخلاص المرأة لزوجها. وحتى اذا كانت البنت بدون صديق فانها لا تذهب للسرير مع أول رجل تصادفه.. هذه فقط مجرد صور نمطية نحتفظ بها فى أذهاننا نحن الشرقيون. فقد حدث أن دعتنى إحدى الزميلات الألمانيات إلى غرفتها لشرب الشاى معى والحديث عن رحلتها التى كانت تخططها لمصر. ففهمتُ ذلك على أنه دعوة لممارسة الجنس. فما أن دخلت غرفتها بدأت بمغازلتها وحاولت الإيقاع بها فى السرير ولكنها انزعجت جداً وطردتنى من غرفتها على الفور.. فما كانت البنات التى أتفحّش معهن إلا تائهات مثلى يبحثن عن اللذة السريعة.. والطيور على أشكالها تقع!

صرت أمارس نزواتى أثناء غياب أنطونيا وأثناء حضورها، فراحت تشعر بتغيّرى. كنا نجلس معاً على مائدة الطعام فقامت وأحضرت زجاجة النبيذ الأبيض وصبت لنفسها كأساً، فثرت عليها وقلت: "ألم أقل لك إننى لا أحب من يشربون الخمر؟"

-"لماذا تحرِّم علىّ ما تحلّه لنفسك؟" سألت دون أن تنظر إلىّ.

-"من قال لك إنى أشرب الخمور؟" سألتها وأنا أصطنع البرود.

-"أنا لم أفقد حاسة الشم بعد يا شاكر! أنا لست مغفّلة"

-"ماذا تقصدين؟"

-"لا شئ! هناك أشياء من الأفضل ألا يتكلم عنها أحد لأن الكلام عنها لا يجلب إلا المرارة"

غُربة مضاعفة

ساعدنى صمت أنطونيا وغياب أية رقابة إجتماعية أو دينية على ممارسة قطف الثمار المحرّمة. ولكننى مع ذلك كنت أزور المسجد من فترة لأخرى. عدت لممارسة نفس اللعبة التى كنت أتقنها تماماً فى القاهرة، وهى لعبة الرقص بين الكراسى وتغيير المعسكرات. صرت سجيناً بين عالمين لم تعد حدودهما واضحة المعالم. وكان كل عالم يمثل لى ملجئاً من إرهاقات وخيبات أمل العالم الآخر.. ولكن أسلوب الحياة الغربية طغى فى النهاية..

سافرت الى مصر لزيارة عائلتى بعد عامين من الغياب. أستقليت تاكسى من مطارالقاهرة واتفقت مع السائق أن أدفع له مبلغ مائة جنيه فى مقابل توصيلى لقريتى، ولكنه طمع فيما بعد وطلب مائة وخمسين عندما علم أنى قادم من ألمانيا: "خمسين جنيه مش حيفرقوا معاك يا باشا بس حيفرقوا معايا انا، وبعدين البنزين غلى وكل سنة وانتا طيب."

"الغلبان". هذا هو اسم قريتنا الذى أعتبره احتيالاً على اللغة العربية. فهناك غالب وهناك مغلوب. أما مصطلح "الغلبان" فهو رفض للإعتراف بالهزيمة، تماماً مثل مقولة "هوّا بعافية شويَّة" عن شخص مريض! "خُشّ يمين يا باش مهندس!" أيضاً "باش مهندس" هذه هى احتيال على شرف مهنة الهندسة.

كل شئ بدا مكانه وكأنَّ العامين مرَّا علىّ وحدى. نُقرة.. ضحضيرة.. مطب صناعى.. مطب طبيعى. الحقول مازالت كما هى. وحمزاوى لا يزال يجلس أمام دكانه الذى لا يبيع فيه سوى الفنضام والصابون وسجائر البلامونت. ولكن عندما تعمق التاكسى بين المساكن فوجئت بتغيّرات كثيرة. "ماجيك فون"، "الجهاد للإتصالات وخدمات الموبايل"، أطباق ساتيلايت فوق البيوت. رأيت نساءً مثل الخيام يمشين متشحات بالسواد فى شوارع القرية ولا يظهر منهن شىء، وهى ظاهرة جديدة لم أرها من قبل.

وقف التاكسى أمام المنزل. سلمته مائة جنيه فقط لا غير: "الاتفاق كان كده" قلت له بطريقة ألمانية جافة.

-"ما جبتش مراتك معاك ليه يا شاكر؟ البلد كلّها مستنية تشوفها شكلها إيه يا ابنى!" سألتنى أمى وهى تقشِّر الثوم.

-"عندها شغل"

-"هى بتشتغل إيه؟"

-"مدرسة"

-"إوعا تكون وحشة يا شاكر!"

-"لا مش وحشة"

-"و عندها كام سنة بقى؟"

-"هو تحقيق يامَّه؟"

"إيه يا ابنى مالك؟ بتكلمنا بالقطّارة ومن طرف مناخيرك ليه؟ إيه اللى جرالك؟"-
دخلت أختى الكبرى صباح البيت وسلمت على ثم انهمكت فى مساعدة أمى فى تجهيز محشى الكرنب.
شاكر، احنا حنطاهروا البت رباب بعد بكره. أنا كنت مستنياك لما تيجى عشان تنقّطها نقوط حلو.. بالمارك"-
ياخويا.. آه الجنيه ما يلزمنيش!" قالت صباح.
سيبى البنت فى حالها وبلاش الجهل دا"، قلت لها بجدة"-.
جهل إيه يابنى؟ الناس كلّها ماهى بتعمل كِده!" دخلت أمى فى المناقشة"-.
"و لو الناس كلها مشيت عريانة فى الشارع حتعملوا زيُّهم؟"-
إيه القباحة دى؟ ما تحترم نفسك يا وله!" ردت أمى فى غضب"-.
انت عايزها لما تكبر تجرى ورا الشباب فى البلد وتجيب لنا فضيحة؟" رددت صباح نفس الحجة المعتادة."-
حاولت إقناعها أنه لا علاقة بين هذه العادة الافريقية الأصل لا بالاسلام ولا بعفة المرأة ولكنها لم تقتنع.
"إنتى مش فاكرة يا صباح الألم اللى الختان سببهولك وانتى صغيّرة؟"-
خيّم الصمت على صباح للحظات ثم قالت غاضبة: "هوّ كل من عاش له سنتين برّه عاوز ييجى ويغير البلد على مزاجه؟" .
لم أنجح فى إقناع أختى التى عانت بنفسها من هذه العادة ورأيتها وقد تغيّرت تماماً وفقدت حساسيتها وصارت جزءً من النظام الذى يعتمد على البتر والتخويف. حاولت أن أفهم سرّ تعنّت "صباح" وتصميمها على ختان بنتها. ربّما كانت تعتبر ختان إبنتها تبريراً لما حدث لها هى فى طفولتها. فلو اقتنعت بحججى ضد الختان لكانت بذلك تعترف أنها إحتملت كل الآلام عندما كانت طفلة بدون داعى..
يبدو أننى تعلمت اللغة الألمانية ومنطقها العقلانى ونسيت لغة أهلى وأسلوب التحاور الأفضل معهم. لاحظتُ أن الأسرة لم تكن تفتقدنى كثيراً. فقد إنغلقت الفجوة التى تركتها برحيلى سريعاً فأصبحوا يعتادون الحياة بدونى وإتخاذ القرارات العائلية المهمة دون الرجوع إلىّ. لم يدر بينى وبين أبى خلال تلك الزيارة سوى حوار بسيط واحد. وكان أبى قد توقف عن أداء خطبة الجمعة فى المسجد وبدأ يتقشّف وينعزل عن الناس ويقرأ القرآن فى خلوته بالساعات. ولما سألته لماذا توقف عن صعود المنبر قال إن البلد قد إمتلأت بالمساجد والوعّاظ وإن كل من هبّ ودبّ صار يصعد المنبر. وهو يعتقد أن المسلمين اليوم لا يحتاجون إلى وعظ أكثر..
جاء العديد من شباب القرية لزيارتى ليتوسلوا إلى أن أساعدهم للسفر إلى ألمانيا. كانوا يتعجبون أننى قضيت سنتين فى ألمانيا وعدت بدون المرسيدس. عرض على أخى "محمد" أن أشاركه فى مشروع صالة بيلياردو وفيديو جيم على أن أدخل أنا برأس المال وهو بالمجهود. قلت له أنى أغسل السيارات لأغطى مصاريف دراستى. نظر إلىّ غير مُصدِّق.
رحت أتجول فى القاهرة وأتخيل هناك مكاناً لى بعد عودتى من ألمانيا. ولكننى لاحظت أن كل الأماكن محجوزة أو مغلقة. رأيت شباباً كثيرين من خريجى الجامعات يبيعون الجوارب الصينية على المقاهى وفى الشوارع. أبواب السياسة كانت موصدة.. والإقتصاد كان ولا يزال فى أياد فولاذية لا تُفتح.. والتعليم المصرى قد تدنى الى أسوأ درجاته.. راحوا يطلقون أسماء "ابن النفيس" و"ابن رشد" على المدارس دون أن يدرى الطلبة ولا حتى مدرسيهم من كان "ابن النفيس" و"ابن رشد"... رأيت أن سوق الكتب فى القاهرة قد امتلأ بكتب صفراء ممولة بدولارات بترولية لنشر فكر وهابى متعصب. سمعت عن مصادمات كثيرة بين المسلمين والأقباط فى القرى والمدن. كما تمكنت الجماعات الإرهابية من تنفيذ العديد من العمليات التفجيرية في بعض الأماكن السياحية.. عاد بعض المحاربين القدامى من أفغانستان التى لم يتعلموا فيها إلاّ القتل وراحوا يصفّون حساباتهم القديمة مع البلد الذى طردهم بعد قتل السادات . وأصبحت مصر التى كانت دائماً مسالمة والتى قال عنها القرآن "أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين" مكاناً غير مأمون للضيوف ولأهل البلد أنفسهم .

شــاكـــر الثانى

قرية الغلبان 1972. تبدأ قصتى شهوراً قبل ميلادى. دفنت أمى إبنها للمرة الثانية على التوالى وسقطت بعدها فى إكتئاب عميق. لم ينج من الموت من أبنائها حتى ذلك الوقت سوى أختى الكبرى "صباح"، ولكنها لم تكن عزاءً كافياً لأمى ولأسرة أبى التى كانت فى إنتظار الولد. لابد أننى أحسست بالفطرة وأنا فى بطن أمى بيأسها وقلّة حيلتها وعدم ثقتها بالحياة. تزوجت أمى مثل معظم نساء جيلها فى وقت مبكر ولم تكن تتقن التعامل مع أطفالها. راحت جدتى لأبى تعنّفها بعد موت أخى الأكبر "شاكر" قائلةً: "واحدة زيِّك ماتستاهلش تخلِّف عيال!".
كانت جدتى غير سعيدة بالمرّة باختيار أبى لأمى القاهرية المدللة، خاصة وأن أبى قد أصبح إماماً للمسجد الكبير فى القرية.. وعلى الرغم من أننى ولد، فلم يكن مولدى عزاءً كبيراً لأمى.. فقد غلب عليها الخوف أنها

ستفقدنى كما فقدت أبنائها الذكور من قبلى. أضف إلى ذلك أننى لم أكن أخضر العينين مثل شاكر الأول ومثل والدها الذى كانت تقدّسه.. لم أكن شيئاً سوى عوضاً عن شاكر الذى مات، ولذلك أطلقت علىّ نفس الإسم. ولكن يجب ألا أتمرد على هذا الإسم، فهو إسم جميل مقارنةً بأسماء أخرى يعطيها الآباء لأبنائهم الذين مات إخوانهم من قبل مثل "شحات"، "جعران"، "ضفدع". وكانت أمى على درجة من الرضى لأننى كنت أبيض البشرة مثلها ولم أكن "قرداً أسوداً"، كما كانت تسمى سكان القرية.

لم تكن أمى عنصرية بالمعنى المألوف ولكنها كانت تكره قريتنا كرهاً شديداً.. ولا عجب فى ذلك.. فقد جاءت إلى قريتنا من القاهرة.. وكانت المرأة الوحيدة الحاصلة على الشهادة الإعدادية هناك. لابد أنها لاقت صعوبات كثيرة عندما انتقلت من المدينة بأنوارها ورفاهيتها إلى قرية مملة.. والذى زاد الطين بلّة هو أن أبى كان متزوجاً من امراة أخرى وكان له ولد منها. وكان على أمى أن تعيش مع أبى وزوجته وولده وجدتى واثنين من أعمامى مع عائلاتهم فى بيت العائلة الكبير حيث لا كهرباء ولامياه. وقد أقنعت أمى أبى بعد عام من زواجهما أن يطلّق زوجته الأولى وأن يبنى لأمى بيتاً جديداً من الحجر ويشترى لها سيارة. وباع أبى ثلث ميراثه ليحقق لأمى مطالبها. ولكن ذلك لم يكن كافياً، فقد كانت أمى تسير فى القرية برأسها مكشوفة وبملابس "موضة" من "البندر" مما أثار استياء الكثيرين فى القرية خاصة أعمامى وزوجاتهم.

وبعد طلاقها من أبى لم تجد زوجته الأولى ملاذاً سوى الزواج من رجل عجوز كانت ممرضة له وخادمة لأولاده.. ولكن لم يكن ممكناً لها أن تأخذ إبنها معها الى بيت زوجها الجديد، فأبى لم يسمح بذلك وكذلك زوجها.. المجتمع كله يرفض ذلك، ولكن أحداً لا يسأل: لماذا؟

كنت أتساءل: أين كان ضمير أمى عندما دمّرت مستقبل زوجة أبى الاولى؟ ولكن أمى لم تفعل سوى ما فُعل بها وبأمها.. فقد وقع جدى فى غرام امراة قاهرية فطلق جدتى وحرمها من ابنتها التى صارت فيما بعد أمى. وبعد زواج أمى من أبى حرم جدى أمى من الميراث وباع كل ثروته بعقد صورى لزوجته الجديدة وأبنائها. ولذلك فقد كانت أمى بحكم تجاربها لا تثق بمجتمع الذكور وأعرافه فاستمرت رغم معارضة الأسرة فى ارتداء ملابسها القاهرية فى القرية متحدية للجميع . وقد صارت بذلك مصدراً أساسياً للقيل والقال فى القرية.. لم يطلق عليها أهل القرية إسم "مِرات الشيخ" مثل زوجة أبى الأولى وإنما " الوليّه بتاعت مصر".

كانت أمى مثلاً أعلى لعدد قليل من نساء القرية الذين كانوا يجيئون إليها قاصدين نصيحتها حول اختيار ملابس زفافهم أو كيفية وضع المكياج. ولكن معظم النساء كانت تكره أمى وكانوا يعتبرونها مغرورة..

أصبحت أمى ظاهرة غير مفهومة فى القرية. وماذا يفعل الناس فى بلادنا عندما يلاقون ظاهرة غير مفهومة؟ بالضبط: إنهم ينسجون حولها أسطورة خيالية. ولأن معظم أفراد عائلة أمى كانوا بيض البشرة وذوى عيون خضراء فقد ذهب بعض سكان القرية إلى أن أصلهم من الصليبيين الذين غزوا شمال مصر فى القرن الثالث عشر واغتصبوا العديد من النساء الذين ولدوا فيما بعد أطفالاً ذوى عيون زرقاء وخضراء. وهكذا أصبحت أمى "بنت الصليبيين" والتصقت هذه الهوية بى أيضا منذ مولدى على الرغم من أن عيونى عسلية.

"كانت ولادة سهلة جداً.. ماحستش بأى ألم خالص" قالت لى أمى عندما سألتها عن مولدى. إنه أمر مثير للدهشة، لأننى لو عرفت مسبقاً ما تخبأه الحياة لى لما انزلقت منها بهذه الإنسيابية. كان أول فبراير عام 1972. لم يحدث فى القرية أو فى مصر أو فى العالم بأسره شىء خارق للعادة فى يوم مولدى.. وهكذا كانت الشهور الأولى من حياتى: غير خارقة للعادة.

كان عمرى يزيد على العامين وكنت لا أزال أمص ثدى أمى مثل حيوان جائع. كانوا يحكون لى أننى كنت آتى إلى أمى وفى يدى قطعة من الخبز ثم أجلس على حجرها فآكل من الخبز وأتجعّم بلبن ثديها.. حاولوا مرتين إقصائى عن ثدى أمى ولكن بلا جدوى. أولاً: دهنوا ثدى أمى بالصبّار قبل أن ترضعنى ولكننى بصقت الصبار المر وحاولت الرجوع إلى ثدى أمى من جديد. وبعدها سافرت أمى إلى القاهرة واختبئت عند والدها، ولكننى أعدت افتتاح ثديها بعد عودتها.. ولكن جدتى لأبى إنهالت علىّ ضربا وراحت تصرخ فى وجهى "عايز تفضل ترضع لحدّ ما يطلع لك شنب؟ العيال اللى بيرضعوا كتير مخّهم بيبقى تخين وعمرهم ما هيبقوا رجّالة". لَكَم كنت أكره جدتى! لحسن الحظ فقد ماتت وأنا فى الثالثة من عمرى. لقد كانت المرأة العجوز تقرر كل شىء فى بيتنا وكانت بعض قراراتها فى غاية الغرابة. فقد كانت هى المسؤولة عن أنّ أخى الأكبر "محمد" قد ترك المدرسة نهائياً وهو فى الثامنة من عمره. فقد عاد محمد ذات مرة من المدرسة وعيناه حمراوتين منتفختين فسالته جدتى: "مال عينيك يا وله؟" فاجابها محمد: "العيال بيفسّوا فى الفصل وبيعمونى" فاقسمت جدتى: "أخسر دينى على دين جِنين ابن برسوم مانتا رايح المدرسة دى تانى!" وهكذا ضاع مستقبل أخى لكى لا تخسر جدتى دينها.

يقولون فى أوروبا إن النساء فى مصر مقهورات، ولكن امراة مثل جدتى كانت بعون الله قادرة على قهر كل رجال مصر بنفسها. الحق أقول: الجميع يقهر الجميع فى مصر: الحاكم يقهر زبانيته والزبانية تقهر الشعب.. الرجال يقهرون النساء والنساء يقهرن أطفالهن والأطفال يقهرون الحيوانات.. وفى الواقع فإنه لايوجد من هو أكثر قسوة من الأطفال فى مصر.. وفى الوقت نفسه فالكل عطوف وحنون ويخدمك برموش عيونه.. الجميع لا يزالون - وبرغم كل شىء - قادرون على الإبتسام النابع من القلب وكأنهم يعيشون فى عالم آخر غير الذى نشأت فيه. معظمهم يقول: "نحن بخير والحمد لله". والطريف فى الأمر أنهم يقصدون ذلك فعلاً. لا أدرى إذا كان تفاؤلهم هذا منبعه الإيمان أم قلّة الحيلة. أم أن السخرية والبسمة هما آخر سلاحين لهم ضد القهر وقسوة الحياة اليومية؟

كنت أتمنى لو ماتت جدتى قبل فطامى. فقد كنت لا أريد ترك ثدى أمى أبداً، وكأننى كنت لا أريد أن أصبح رجلاً.. وكأننى كنت أشم رائحة المفاجآت التى كان قدرى يخفيها لى. وأظن أن أمى أيضا لم تكن ترغب فى التوقف عن إرضاعى، وكأنها كانت تشعر بغريزة أمومتها أنها لو توقفت عن إرضاعى فإنها ستحمل من جديد ثم تفقد طفلها بعد الولادة.. وقد كان ذلك بالفعل. فقد حملت أمى بعد فطامى مباشرةً وأنجبت طفلة أعطتها نفس إسمى مع إضافة تاء التأنيث، ثم ماتت أختى "شاكرة" بعد عام من ولادتها. ماتت أختى وعشت أنا.. عشت وحدى بين شاكرين مقبورين. شعرت دائماً بفجوة باردة قبلى وبعدى.. شعرت أحيانا بالذنب تجاه أختى

وأختى لأننى عشت فى حين أنهما ماتا، ولكننى فيما بعد قد رأيت أن القدر كان رؤوفاً بهما، إذ أنه لم يُقدَّر لهما أن يرا فى حياتهما مارأيت: فقد عشت حياتى سجيناً بين مقبرتين.

لم يتبقّ لأمى بعد موت أختى الصغرى سوى أختى الكبرى وأنا. كانت تريدنا أن نصبح أفضل من كل أبناء القرية.. منعتنا من اللعب مع أبناء الفلاحين حتى لا نلتقط منهم القمل والأمراض المعدية . كانت تقول لنا "عيال الفلاحين مابيحبوكوش فابعدوا عنهم أحسن". كان أمراً بديهيا لى كطفل أن المحيطين بى لا يحبوننى، رغم أنى لم أعكّر صفو أحد منهم.

كنت أحب أختى الكبرى كثيراً، ولكنها ندر ما وجدت وقتاً للعب معى، فقد كانت تذهب إلى المدرسة فى الصباح ثم كانت تتعلم الطبيخ والخبيز والخياطة بعد الظهيرة. كان لها صوتٌ عذب كالملائكة وكانت تغنى سراً ولم يسمعها أحد سواى، فصوت المرأة كما هو معروف عورة .. وخاصةً إذا كانت هذه المرأة بنت شيخ الجامع. كانت أختى تغنّى لى وحدى كلما كان أبى وأمى خارج المنزل. إسمها "صباح" وهى الوحيدة بيننا التى لايحمل إسمها معنى "الحمد" أو "الشكر".

***

وكان أخى لأبى يعيش أيضا معنا فى نفس البيت ولكننى كنت أراه نادراً. كان يدخل البيت متسللاً ويخرج كما دخل دون أن يشعر به أحد وكأنه قطة شاردة.

كنت أتساءل: كيف يقضى يومه؟ فهو لم يذهب الى المدرسة ولم يتعلّم أية حرفة. وقد تركته أمى - من باب وغز الضمير أو ربما من باب عدم المبالاة - يفعل ما يشاء. أما أبى فقد كان مشغولاً عنا جميعاً بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم وبالمعهد الدينى وشئون المسجد. رأيت أبى مرة واحدة يضرب أخى بحبل معقود بعد أن ربطه فى أعمدة السرير لأنه قضى ثلاثة أيام فى بيت زوج أمه دون إذن مسبق منه. ولكن أبى كان متسامحاً معه فى معظم الأحيان.. فقد كان هو الوحيد الذى يكسّر أشياءً فى البيت دون أن يخشى أى عقاب.

كان عمرى حينذاك أربع سنوات وكان هو يفوق الثانية عشر من عمره، مما جعل التفاهم بيننا أكثر صعوبة.. رأيته من وقت لآخر يلعب بدراجته التى اشترتها له أمى لتثبت لأعمامى أنها لاتفرق بيننا وبينه . كان محمد يحب دراجته كثيراً ويزركشها بإتقان .. وكان يبدو وسيماً وأنيقاً بقصة شعره الخنافس على دراجته الجديدة .

سألته مرة أن يسمح لى باللعب معه على الدراجة فرد على غاضباً : "غور من وشى الساعة دى يا واد يابن الغجر انتا"

-"إنت بتقول علىّ ابن الغجر ليه؟" سالته عاتباً.

-"عشان إنت ابن الغجر المشارقة "عسل" و"قطاشة". نسيوك عند جسر البلد وابويا لاقاك وجابك عندنا بس لحد ما أهلك ييجوا ياخدوك!" قال محمد بوجه لا يُظهر أى آثار للمزاح.

كان اثنان من أولاد عمى يقفان بجواره عندما قال ذلك وقد إنخرطا فى ضحك شديد عندما سمعا ماقال وراحا يطاردوننى فى الشارع وهما يغنّيان: "عسل وقطاشة.. عسل وقطاشة!" جريت إلى البيت متضجراً وأنا أتساءل: أحقاً أنا ابن الغجر؟ ألست إبن الإمام المحترم والقاهرية الجميلة؟ ياالهم من ناس كرماء إلتقطونى وربُّونى. لقد فهمت للمرة الأولى المعنى الحقيقى لإسمى "شاكر" فأهل هذا البيت الكريم يريدوننى أن أكون شكوراً لهم لأنهم أعطونى شرف الإنتساب اليهم. جريت إلى أمى باكياً وسألتها إذا كانت حكاية الغجر صحيحة.. فضحكت وقالت: مين اللى قاللك الكلام الفارغ دا؟ فقلت لها: أخويا محمد. فقالت: الازرق اللى شبه القرود دا؟ دا هو اللى اسود الوش وشبه الغجر زى أمه!

أنكرت أمى قصة الغجر كما أنكرت من قبل قصة الصليبيين. ولكن شيئا ما بداخلى أراد تصديق هاتين الأسطورتين.. شىء بداخلى أراد أن ينتمى لمجتمع آخر وبشر آخرين غير اللذين أراهم فى هذه القرية.. أحببت فكرة أن أكون غجرياً يتحرك بحرية ويغنى عندما يشاء ويرقص فى أى مكان.. صار الجسر المزعوم الذى تركنى عنده الغجر ملاذاً لى. كنت أختبىء عنده كلما أصابنى مكروه.. حتى عندما صرت رجلاً.

إذاً، أخى الأكبر لم يكن يعتبرنى أخاً، وأختى الكبرى لم يكن لديها وقت لتجالسنى، وأبناء الفلاحين كانوا على حد قول أمى مستنقعاً للأمراض المعدية.. وكانت علاقتنا مع بيت عمى غير حسنة. فقد كانت زوجته تكره أمى وتقول لها: "ياوليّه ياللى بتموتى عيالك". وكانت لنا جارة صغيرة مشلولة تجلس أمام منزلها طوال اليوم تزين وجهها الجميل بالمساحيق مرة كل ساعة. كنت أجلس معها بعض الأحيان وكانت تحكى لي قصصاً مرعبة عن "أمِّنا الغولة" و"السِتّ ام بزاز حديد".. وبعد فترة توقفت عن الجلوس إليها لأن حكاياتها كانت تسبب لى كوابيساً.

كانت حقول أبى هى الملاذ الأخير.. كنت ألعب فيها وحدى وآكل من ثمارها.. وعلى الرغم من أن أبى لم يزرع أرضه بنفسه ولم يسمح لأحد من أولاده أن يعمل فيها ، فإن الأرض كانت تؤتى أُكُلها كل حينٍ بإذن ربها.. كنت أنتظر الخيار والطماطم والبطيخ والعنب فى الصيف، وفى الشتاء كان الجميع ينتظرون الكرنب الذى كانت أمى بارعة فى حشوه وطهيه. كانت رائحة التربة فى الحقول هى أقوى ما يربطنى بالحياة، كنت أرتمى على الأرض وأشمّ رائحتها العذراء وكأننى مدمن، وكان خليط رائحة التربة والثمار أحب الىّ من أى عطر. كان يعجبنى أن حقول قريتنا بلا أسوار.. كنت أدخل الى أى حقل غريب وآكل منه ما أشاء دون أن أخشى توبيخاً من أحد. كنت أرقد فى سرير معلّق تحت إحدى تكعيبات العنب خلف بيتنا وأقطف ثمار العنب اللذيذة بدون أدنى مجهود، أى مثل وصف الجنة فى القرآن..

بمناسبة القرآن! لقد لاحظ أبى أننى أتمتع بذاكرة قوية فراح يعلمنى القراءة والكتابة والحساب منذ عمر الثالثة وعندما بلغت الرابعة كنت أحفظ الجزء الأول من القرآن دون أن أفهم منه حرفاً واحداً! "سيكون لك مستقبل رائع. يمكنك أن تحفظ القرآن كله قبل أن تصل إلى عمر الثانية عشرة.. مثلى تماماً"، قال لى أبى مادحاً بعد أن تلوت عليه جزء "عمّ" بدون أخطاء.

لم أكن حينها أفهم أبعاد هذه المهمة، ولكننى كنت أفهم أن أبى يريد ذلك.. وكنت أفهم أن القرآن حكرٌ على عائلتنا، وأن الرجل الوحيد الذى يحفظ القرآن فى البلد دون أن ينتمى لعائلتنا هو رجل أعمى تعلم القرآن كوسيلة وحيدة لكسب الرزق فى المآتم وعند المقابر. كنت فقط أتساءل فى نفسى: لماذا أجلس ساعات

طويلة لحفظ القرآن وأنا فى الرابعة بينما يتسنكح أخى الأكبر فى الشوارع محاولاً كسر ملل نهاره؟ ومع ذلك فقد قمت بأداء مهمتى على أكمل وجه، وكانت مكافئتى الوحيدة هى رؤية الرضى فى عيون أبى.. الذى كنا لا نراه راضياً إلا قليلا..

وداعاً للقضيب

عندما بلغت الرابعة كان الوقت قد أزف لإجراء الطقس إيّاه الذى يقرِّب الطفل إلى عالم الرجولة. كان بيتنا مزدحماً بالضيوف وسادت فيه روح نادرة من المرح. كنت أرتدى ملابس الأمراء محاطاً بجميع أولاد أعمامى وخالاتى، حتى أولئك الذين كانوا لا يطيقون رؤيتى. وفى الغرفة المجاورة جلست النساء ورحن يتسامرن ويضحكن.

"مبروك يا عريس!" كان كل ضيف يحيينى عند دخوله ويدس فى جيب جلبابى ورقة بنكنوت تتراوح بين جنيه وعشرين جنيهاً. "الله يبارك فيك" كنت أرد دون أن أفهم ماهى الحكاية بالضبط. دخل العم فتحى إلى المنزل وتلقته النساء بزغاريد الترحاب. كان عم فتحى يأتى لبيتنا مراراً ليعطى لأبى حقنة مهدئة ضد الهيجان العصبى الذى أصيب به بعد عودته من حرب النكسة. ولكن لماذا تستقبل النساء عم فتحى بالزغاريد؟ لم تتأخر الإجابة كثيراً. فجأة سكت الجميع وراح أبى يتلو بعض آيات القرآن وبعض الأدعية المأثورة، ثم اقترب اثنان من أبناء عمى الأكبر وكتّفا ذراعىّ فى حين نزع اثنان آخران سروالى وفتحا رجلىّ. فتح عم فتحى حقيبته السوداء وأخرج عدة الشغل: مشرط وآله تشبه قصافة الأظافر وشاش وميكروكروم. ثم ألقى المشرط والقصافة فى وعاء به ماء يغلى أحضرته أمى. بعد ثوان التقط العم فتحى المشرط ثم شد قضيبى إليه وقطع الجلدة الأمامية بدون مخدّر.. آااااه! .. يلعن ميتين أبوك يا عمّ فتحى!! تعالت صرخاتى وكذلك تعالت زغاريد النساء. بعدها غطى فتحى قضيبى بشاش مشبع بالميكروكروم. لقد أستخدم المشرط ولكن القصافة لم تُستخدم بعد.. أى عضو لى ينوى هذا الرجل بتره؟ أخذ العم فتحى الوعاء بالقصافة وذهب إلى الغرفة المجاورة. بعد دقائق سمعت صرخة استغاثة قصيرة لكننى لم أسمع زغاريد بعدها. وعلى الرغم من أننى كنت مشغولاً بألمى، فإننى تعرّفت على مصدر الصرخة. لقد كانت أختى الكبرى صباح. ولكن صباح لم يكن لها قضيب.. فماذا قطع لها ذلك الرجل؟ ربما لديها جلدة ما فى مكان ما يجب بترها، قلت لنفسى...

نمت هذه الليلة بجوار "صباح" فى نفس الغرفة. كنا نرقد على ظهورنا وبين رجولنا وعاء فخارى كى لا نضغط على الجرح. كنت أبكى وأسب الدين طول الليل بينما كانت صباح تبتلع آلامها بصبر وكبرياء.. "البتاع بيوجعنى قوى يا صباح"، قلت لها شاكياً. "معلهش! بكره حتصبح كويس"، قالت وهى تحاول جاهدة أن تتصنع الإبتسام. لم تقل شيئاً على الإطلاق ولم تشتك من آلامها، وكأنها كانت تعلم بفطرتها قدر المعاناة التى يفرضها مجتمع كهذا على المرأة. لم أكن أعلم حينها ماذا جرى لها فى هذا اليوم. عندما صرت شاباً يافعاً قرأت لأول مرة أن ماقطعه فتحى لأختى لم يكن قطعة جلد كما ظننت وإنما قطعة من البظر.. قطعة من اللحم الحى الذى تتركّز فيه أهم أعصاب المرأة.. هل كان العم فتحى يعلم ذلك؟ هل كان يعلم لماذا ولأجل من صنع ذلك؟ ولماذا كنت أنا العريس ولم تكن هى العروس؟ لماذا كانت قطعتى المفقودة أحرى بالإحتفال من قطعتها؟

يقولون فى قريتنا إن الرجل الحقيقى هو الذى يكسر شوكة زوجته ويذبح لها القطة فى ليلة العرس. كان لى جار يحكى بافتخار عن ليلة عرسه قائلاً انه دخل على زوجته لأول مرة وكان أول ما قاله لها هو: "إقلعى هدومك يا بنت الشرموطة" ثم راح يضربها بالخرزانة على جسدها العارى وهو يقول لها: "أمى ستك وتاج راسك وانتى خدامة لكل واحد فى البيت لحد الكلب اللى قاعد قدام الدار!" كان ذلك كل ما قاله لها قبل أن يفض غشاء بكارتها ويخرج بشاشة ملوثة بدماء عذريتها لعائلتها التى تلقت مبتهجة دليل شرف إبنتهم وعفتها.. وفى اليوم التالى زارت عائلة العروس إبنتهم، ولكنها لم تجرؤ أن تحكى لهم عن الوحشية التى عاملها بها زوجها فى ليلة العرس، فهى تعلم ما ينتظرها من شائعات لو أنها طُلّقت بعد ليلة واحدة من زواجها.

كنت أرى فى أيام طفولتى بعد كل زفاف جموع من البشر فوق عربات الكارو والجرارات يحملون شاشاً أبيضاً ملوثاً بالدماء وهم يهتفون "شريفة.. شريفة!" وكانت مهمة فض غشاء البكارة فى أغلب الأحيان موكولة إلى "الداية" أو "القابلة"، والتى كانت تنجز المهمة بإصبعها الأوسط ذى الظافر الطويل.. وبهذا تكون قد أثبتت "براءة" العروس ومهدت الطريق لفارس ليلة الزفاف. لم أفهم أبداً معنى كلمة "شرف" ولماذا يكون موقع هذا الشرف فقط بين فخذى النساء؟ وإذا كانت العذرية شرفاً فلماذا يحتفل بها النساء عند هتكها؟ لماذا يحتفلون إذا فقدت بنت عذريتها فى عمر السادسة عشر يوم عرسها ولا يحتفلون بـ "صبيحة بنت عبده المحروق" التى ظلت عانساً طوال حياتها وماتت بعذريتها؟؟..

بعد يوم من طهورى كنت قد نسيت أختى وآلامها وكنت مشغولاً بنفسى. رحت أشتكى لأمى أننى لا أستطيع التبول وسألتها لماذا قطعوا بتاعى، فقالت انهم فقط قطعوا قطعة جلدة "ملهاش لزمة". ليه؟ سألتها بإلحاح.. علشان تبقى راجل! وراحت أمى تحكى لى قصة مرعبة لتشرح لى أصول عادة الطهور . كانت قصة رجل عجوز وهبه الله ذكراً بعد طول إنتظار. ولكنه ذات ليلة رأى فى المنام أنه يذبح ولده.. ولأنه كان نبياً ورؤية

الأنبياء حق، فهم أن ذلك أمراً إلهياً أن يذبح ولده قرباناً لله، فأخذ ولده إلى موقع فى الصحراء وسنّ السكين ..وكان على وشك أن يذبحه.. فناداه الله: "قد صدّقت الرؤيا!" وأنزل كبشاً من السماء وفدا به الطفل لم أفهم حينها ما علاقة هذه القصة ببتاعى وصرت بعدها أخاف أن يستيقظ أبى بعد حلم سخيف ويقرر ذبحى!

وداعــاً طفولتى!

كانت أمى ترغب أن أتلقّى أنا وأختى تعليماً قاهرياً. ولكن أبى كان معارضا لهذه الفكرة، فتوصلت أمى معه إلى حل وسط: أن تظل أختى فى القرية، وأسافر أنا للقاهرة للذهاب للحضانة فى السنتين القادمتين حتى أبلغ السن القانونى لدخول المدارس، وبعدها يبدأ التفاوض من جديد حول دخولى أيّة مدرسة. ووافق أبى على مضض بعد أن وعدته ألا أنسى ما حفظت من القرآن وأن أحفظ أجزاءً أخرى بمساعدة جدى فى القاهرة.. فى الحقيقة كانت أمى تريدنى أن أعيش فى جو صحى أفضل لا يموت فيه الأطفال بسهولة.

كنت قد سافرت مع أمى مرات عديدة إلى القاهرة.. وكنت أعشق هذه المدينة وأنوارها، حاراتها ومقاهيها. كان جدى يسكن شقة كبيرة فى وسط المدينة ذات شرفة تطل على الشارع الرئيسى.. وكانت هذه الشرفة هى نافذتى إلى العالم. كنت أجلس فيها بالساعات وأراقب المدينة التى لا تنام. كانت هوايتى المفضّلة هى عد السيارات المارة فى الشارع.. ولكننى كللت بعد فترة فالسيارات أبداً لم تتوقف عن المرور ليل نهار.

كان أمراً مدهشاً أن أفتح صنبور المياه فيتدفق الماء بين يدى دون أدنى مجهود.. كان استحمامى فى الحمام يشبه الخيال، حيث كنت أقف فى وسط الغرفة ويتساقط المطر الصناعى فوق رأسى ..لا ناموس ولا ذباب ولا كلاب ضالّة تنبح فى الشوارع. وكان الوقت فى الحضانة ممتعاً. كنت أجيد الحديث باللهجة القاهرية، فلم يشك أحد أننى دخيل على المدينة. تعلمنا هناك الرسم والسلّم الموسيقى، وفتنتنى آلة الكسلفون. كانت المربية تحكى لنا حكايات لطيفة مسلية لا علاقة لها بالحماة التى تقتل زوجها وتقدمه طعاما لإبنته ولا بالمرأة القبيحة التى تخطف الأطفال..

كان أبناء وبنات خالاتى يأتون للزيارة وكنا نلعب سوياً كأبناء جنس صليبى واحد. كنا نشاهد التليفزيون ونستمتع ببرامج مسلية ومضحكة لم تكن "القرود السوداء" فى القرية تعلم بوجودها. كنا نأكل طعام زوجة جدى الشهىّ الذى كانت تتفنن فى صنعه. بالطبع كنت أسميها "جدتى" من باب الدبلوماسية. بل قد كانت دبلوماسيتى أحيانا تزيد عن الحد، فقد قلت لها ذات مرة "إنتى طبيخك أحلى من طبيخ ستى آمنه".. نعم لقد أوصلتنى أربعة أعوام فى قريتى إلى هذا الحد من النفاق. فى الواقع كانت زوجة جدى تعاملنى بكل رفق وكان يعجبها أننى لا أضيع كل وقتى فى اللعب بل أجلس ساعتين كل يوم لأراجع ما أحفظ من القرآن.. لقد كنت آخذ وعدى لأبى مأخذ الجدّ.. كنت مصمماً على ألاّ أخيّب أمل أبى.. فقد كنت أيضاً أحلم بأن يسمح لى بالبقاء فى القاهرة إلى الابد.

***

ولكن القاهرة إذا كانت مدينة الأحلام، فهى أيضا مدينة الأشباح. فهى تنمو نمواً سرطانياً فى كل الإتجاهات، والعشوائيات تفترس الحقول والجبال والمقابر.. وتحت تلال الفقر والضوضاء والقمامة هناك الملايين المنسيون - بلا أسماء ولا أحلام - مدفونون.. وعندما يستيقظون من تحت أنقاض الحياة تبتلعهم الغوغاء من جديد وتلقى بهم فى طاحونة الحياة التى تشوّههم أكثر وتغتصب ما تبقى من إنسانيتهم، وعندما يخرجون من الطاحونة لا يعرفون أنفسهم ولا يعترفون بإنسانية من دونهم. ولأن النظام يدير لهم ظهره فإنهم لا يعترفون بأعراف هذا النظام ولا بقوانينه. إستراتيجية بقاء هؤلاء هى الموت البطىء بتدمير الذات وتدمير كل من هو أضعف منهم. بعضهم يذهب للتسول وبعضهم يلجأ لإدمان المخدرات أو البنزين.. بعضهم يسرق الأموال وبعضهم يسرق طفولة طفل عمره أربع سنوات!!

طلبت منى زوجة جدى ذات مرة أن أذهب لشراء الخبز من المخبز المواجه للمنزل. وعندما كنت أقف فى الطابور الطويل جاء إلىّ صبى الميكانيكى "شكمان" وقال انه سيشترى لى الخبز وعلىّ أن أنتظره أمام باب الورشة. "يبدو أن سكان المدينة أيضا خدومين مثل سكان القرية"، قلت فى نفسى ورحت أنتظر أمام الورشة. كان "شكمان" يبلغ من العمر حوالى السادسة عشر وكنت أرى "صلاح" صاحب الورشة يضربه مراراً بكل قسوة، ولكن "شكمان" كان مجبراً على العمل، فلم يكن ملتحقاً بالمدرسة وكان عليه إطعام عائلته من دخله البسيط. جاء شكمان بعد قليل يحمل الخبز ملفوفاً في ورق صحف وأعطانى إياه وأنا أجلس فوق عجلة سيارة أمام الورشة. وعندما أخذت الخبز وهممت بالإنصراف أمسك بذراعى وقال "مش تقول شكراً يا أخى!". فقلت له شكراً ولكنه لم يترك ذراعى بعد . لا.. شكرا حاف كده مش كفاية يا عسل!" قالها الصبى وعلامات الغدر واضحة فى إبتسامته الخبيثة، ثم حملنى من تحت إبطى ودخل بى الى الورشة، ثم نزل بعض الدرجات الى البدروم.

-"سيبنى ربنا يخليك" قلت له راجياً.

-"أسكت خالص" قالها وهو يضع يده على فمى ثم استمر: "دى زىّ شكّة الدّبّوس، مابتوجعش خالص. بعدها

تروّح ولا من شاف ولا من درى!" قالها وهو ينزع سروالى. أمرنى بالسجود على الأرض ففعلت والرعب يكاد يقتلنى.. سجدت أمام الوحش الجائع وأنا أمسك بلفافة الخبز الساخن ورحت أقرأ المعوذتين كما علمتنى أمى أن أفعل فى حالة الخوف.. حاول الصبى أن يدخل عضوه الذكرى فى داخلى ولكنه لم يستطع.. كان ملمس عضوه على جسدى كفأر قذر خرج لتوّه من أنبوب المجارى وكانت رائحته التى تمزج العرق والشحم تثير اشمئزازى. ظننت أولاً أن فارق الأحجام بينى وبينه قد أنقذنى، ولكن شكمان كان مصمماً على إنهاء المهمة بأية طريقة.. راح يبصق على مؤخرتى ثم أدخل أحد أصابعه بعنف فى أحشائى.. ظننت أن ذلك هو أقصى ألم يمكن أن يتحمله جسدى حتى أدخل إصبعاً آخر وراح يعبث بداخلى.. ثم أخرج إصبعيه وبصق مرتين قبل أن يدخل بعضوه فى جوفى.. لم تكن "شكة دبوس" وإنما سكين بارد يمزق أغشيتى فى كل رجّة جسد.. وبعد رجّات مؤلمات خرج منى وترك سائله اللزج الذى لم أكن أعرف إسمه حتى ذلك اليوم ينساب على مؤخرتى.
لم أرَ فى حياتى كلها شيئا بهذه الدرجة من الألم والقذارة، مع العلم بأنها لم تكن آخر مرة أتعرّض فيها لمثل هذا الإمتهان. دفنت هذه الجريمة طفولتى وأحلام بقائى فى القاهرة.. توقفت عن تكرار قراءة المعوذتين وأخرجت من اللفافة التى لم تترك يدى رغيفاً رحت أمسح به قذارة سائل صبى الميكانيكى عنى.
"وحياة أمّك لو حكيت لحد اللى حصل دا لأقطم رقبتك. فاهم يابن الشرموطة؟" قال "شكمان" مهدداً...
لبست سروالى فى رعب وأخذت الخبز وعدت إلى منزل جدى: كل درجة سلم عذاب.. كل نَفَس نفخة عار. سلّمت الخبز لزوجة جدى ثم ذهبت إلى السرير واختبئت تحت البطانية رغم أنه كان يوماً شديد الحرارة. رقدت على بطنى من فرط آلامى الداخلية ورحت أبكى بصوت منخفض.. كنت أتذكر لوم أبى لى "متعيطش زى الحريم!" لماذا؟ لماذا أنا؟ لماذا هنا؟ آلاف الأسئلة تصارعت فى رأسى وما من مجيب!
-"شاكر، فيه رغيف عيش ناقص.. إنت اللى أكلته ولا الواد بتاع الفرن ضحك عليك؟" سألت زوجة جدى مستفسرة.
-"أنا اللى أكلته يا ستى" قلتها وأنا أحاول إبتلاع دموعى. وفى اليوم التالى تجاهلت آلامى الداخلية وتجاهلت قطرات الدماء التى نزلت منى أثناء التبرز وغسلت سروالى بنفسى فى المرحاض حتى لا ترى زوجة جدى آثار ما حدث. لم أفش بآلامى لأحد حتى لا يأخذونى للطبيب فيعرف بما كان. كنت لا أريد أن يطلقوا علىّ لقب ""الواد الخسران بتاع العيال"
فقدت منذ ذلك اليوم ثقتى بكل البشر. أصبح كل إنسان فى نظرى مجرد كائن شرير. وما الخير إلاّ نفاق محسوب خوفاً من طائلة القانون أو رقابة المجتمع. فإذا غاب القانون والرقابة عاد الإنسان إلى طبيعته الحيوانية.. ولكن حتى الحيوانات لا تفعل ذلك!
آااه، كم كنت أود أن أظل طفلاً لفترة أطول! كنت أود أن أحتفظ بخيالاتى الساذجة عن العالم لبعض السنوات. كنت أود أن أفكر قبل نومى فى لعبى ومرحى فى الغد، لا فى كيفية الإحتفاظ بسرى وعارى. لابد أن طبائع الغجر أو الصليبيين قد تسربت إلىّ. لقد جلبت العار لبيت الشيخ الكريم!!
قررت ألا أبقى يوماً واحداً فى القاهرة بعد ذلك.. إن هذه المدينة لا تعرف أسماء أبنائها. إنها تخنق أولادها تحت أحجارها وتدهسهم تحت عجلات سياراتها وتبتلعهم فى أنابيب مجاريها.. جئت إليها فاتحاً ذراعىّ وظننتها ستعانقنى ولكنها حتى لم ترد علىَّ السلام. لا أحد هنا ينصت لأحد.. والحياة استمرت فى اليوم التالى وكأن شيئاً لم يكن.
قلت لجدى بإلحاح اننى أريد العودة لأمى فوراً. فقال لى ان أبى سيأتى بعد شهرين لياخذنى بسيارته وانه لا يوجد هاتف فى القرية ليطلب منه المجىء مبكراً. فقلت له اننى لا أريد البقاء فى هذا البيت لأننى أكره زوجته. فسألنى لماذا تكرهها؟ فقلت "علشان بتبعتنى اجيب عيش. أنا مش خدّام عندها!" وفى النهاية أجبر إلحاحى وصراخى المستمرين جدى على الرضوخ لرغبتى ومصاحبتى للقرية فى اليوم التالى.
إمتطينا أبطأ قطارات مصر وكنت لا أزال غير قادر على الجلوس من فرط آلامى، فوقفت فوق المقعد، فراح جدى يعنفنى : لا ..لا.. ياشاكر، دا سلوك غير متحضر.. إحنا هنا فى مصر مش فى بلدكم!" فرددت عليه فى صرخة غاضبة: "يلعن ميتين مصر!" لاحظ جدى أنه من الصعب السيطرة على فى هذا اليوم فراح يهدئنى بالعسلية والكرملّه.
إنتهت الرحلة بعد سفر طويل ووصلنا إلى المحطة المقصودة. وكان الكمسرى لم يأت لقطع التذاكر. فذهب جدى بعدما ترك القطار إلى شباك التذاكر واشترى تذكرة بأثر رجعى وقام بتمزيقها، وقال لى وهو فخور بأمانته: الحكومة عملت اللى عليها وجابت لنا القطر. لو كل مسافر إتهرّب من دفع التذاكر يبقى كل القطارات هتتعطل ومش هنعرف نسافر!
رغم أننى كنت لا أزال فى الرابعة والنصف من عمرى إلا أننى لم أقتنع بمفهوم جدى البسيط للأمانة والعدل، خاصة بعدما حدث لى. كما أننى كنت أعلم أن أمى تعتبره شخصاً غير عادل لأنه حرمها من الميراث من أجل عيون زوجته الجديدة، ولكننى لم أخبره بذلك لأنه لم يعطنى الخمسة جنيهات بعد التى اعتاد أن يعطينى إياها عند زيارته للقرية...

***

أثارت عودتى المبكرة من القاهرة دهشة الجميع، إلا أن أبى كان سعيداً بذلك. وقد حاولت تجنّب كل الناس فى هذه الفترة قدر المستطاع، ولكن ذلك كان صعباً فى مجتمع ريفى كهذا، فكنا نجتمع ثلاث مرات يومياً على مائدة الطعام، وكان علىّ أن أجلس يوميا أمام أبى بعد صلاة العصر لأتلو عليه ما حفظت من القرآن.. كنت لا أقوى على النظر فى عينيه. أصبحت لا أستطعم طعام أمى الذى كنت أعشقه فى الماضى. كنت أتمنى أن ياتى إختراع جديد يجعلنا نحتاج إلى أكلة واحدة فى الأسبوع حتى لا أجبر على مجالسة كل العائلة ثلاث مرات يومياً. كنت أنتهز كل فرصة لأبتعد عن المنزل. إشتريت "نِبْلة" ورحت أطارد الحمام فى القرية وبعد أسبوعين أصبحت قادراً على إسقاط الحمام حتى أثناء طيرانه.. أحسست بحاجة ملحّة داخلى لممارسة العنف.. تصادقت مع إبن عم لى كنت لا أطيقه فى الماضى لأنه كان عنيفاً. كان يسرق نقود التجار فى سوق الثلاثاء فى القرية، وكاد أن يقتّل أحد الشحاذين ذات مرَّة بعد أن وضع برازاً فى فمه أثناء نومه. كانوا يطلقون عليه إسم "شيطان

العائلة" فى حين كان الكثيرون يعتبروننى ملاكاً طاهراً. ولكننى بعد عودتى من القاهرة صرت أُقاربه تدريجياً فى حبه للعنف وكرهه الفطرى للبشر. كنا نتواعد فى وقت الظهيرة والناس نيام ونذهب لصيد العصافير.. تعلّمت منه خزق عيون العصافير ثم شد رؤوسهم حتى تُكسر رقبتهم. كنا أيضاً نصنع ناراً ونلقى بالعصافير الحية فيها. أحسست أن تعذيب العصافير والحمام يسبب لى نوعاً من الإرتياح فرحت أتفنن فى إختراع طرق جديدة لتعذيبهم. وكانت طريقتى المفضلة هى نزع ريش العصفور وحبسه تحت سريرى وحرمانه من الماء والحبوب حتى يموت موتاً بطيئاً.

ولم أكن الوحيد الذى يعذِّب الحيوانات فى القرية. فأطفال كثيرون كانوا يشوِّهون الكلاب والفئران والجعارين.. حتى أمى رأيتها كثيراً وهى تحشو مؤخرة البط والأوز بالفلفل الأسود حتى يهيجوا جنسياً ويتكاثروا. ويبدو أن طريقتها هذه كانت فى غاية الفعالية، فقد كانت حظيرتنا مليئة بالطيور المنزلية طوال العام..

كنت أجلس وحدى ذات مرة فوق سطح المنزل أنظر للسماء وأفكر فى جريمة القاهرة. رحت أتخيّل أن ما حدث لم يكن إلّا كابوساً مزعجاً وسأفيق منه قريباً، أو أننى فررت من "شكمان" قبل أن يمسك بى. جاءت أختى صباح وسالتنى لماذا أجلس وحدى فى الشمس. نظرت إلى عينيها الحنونتين وشعرت بإلحاح داخلى أن أفضح لها سرى.. أردت أن أقول لها ان أهل القاهرة أفسدونى.. أردت ان أبكى أمامها وأزيح عن صدرى ثقل ذلك الهم الذى لا أقوى على حمله وحدى.. ولكن لسانى انعقد ولم يقو على النطق بكلمة واحدة.. تركتنى أختى ونزلت من جديد.. رحت أبكى وأراقب الأرانب البيضاء وهى تأكل الخضروات فى حظيرتها فوق السطح. نزلت فجأة إلى المطبخ وعدت بيداى ممتلئتان بحبات الفلفل الأسود ورحت أمسك بالأرانب واحداً تلو الآخر وأزجّ بحبات الفلفل فى مؤخرتها. إنتظرت بعض الدقائق ولكن أحداً منهم لم يبدأ فى معاشرة الآخر. "ياالله خسّروا بعض!"، رحت أصرخ فيهم ولكن بدون رد فعل. إنهم لم يُبدو حتى أيّة علامة من علامات الألم، وكأنهم قد فهموا بالسليقة قواعد نظامنا الذى نعيش فيه..

أصبحت طفلاً عدوانياً لا يطيقه أحد .. صرت أقذف الأطفال بالحجارة بدون سبب فى الشارع وأصبحت أسبّ الدين بغزارة. سمعتنى أمى مرة وقالت عاتبة "ما تسبّش الدين عشان ربنا ميسخطكش قرد!" ما قالته أمى لم يكن مخيفاً بالمرّة. وعلى العكس، فقد وجدت فى تهديدها أملاً لحلّ مشكلاتى. فإذا سخطنى الله قرداً فسأصبح قبيحاً ولن يرغب رجل بعد ذلك أن يلمسنى! وإذا أصبحت قرداً فربما سأصبح شبيها لأخى الأكبر فيقبلنى أخاً له!

صعدت إلى سطح المنزل ورحت أسب الدين فى كل الإتجاهات....

إمـــام وأراجـوز

لاحظ أبى وأمى التطورات التى طرأت على تصرفاتى منذ عودتى من القاهرة. كانوا يتساءلون لماذا أُصاب بالذعر عندما ينادى أحد إسمى، ولماذا أقوم فى منتصف الليل من النوم مذعوراً ثم لا أتوقف عن البكاء.. لم تساعدنى رقية أبى ولا بخور أمى كثيرا.. وفى النهاية توصل أبى إلى حل لقضيتى، فقد قرر إلحاقى بالمدرسة رغم أننى لم أكن قد تجاوزت الرابعة والنصف من عمرى ولم أصل للسن القانونى بعد. ولكن ذلك لم يمثل مشكلة بالمرة فقد إتفق أبى مع ناظر المدرسة الإبتدائية أن يستبدل شهادة ميلادى بشهادة ميلاد أخى المتوفى والذى كان يحمل نفس الإسم: شاكر، والذى كان يكبرنى بعامين. "شاكر" مقابل "شاكر" هكذا حلت المشكلة وأصبحت بين يوم وليلة أكبر من عمرى الحقيقى بعامين. بالطبع يعتبر القانون مثل هذه الممارسات تزويراً فى أوراق رسمية، ويعاقب مرتكبيها بالحبس لمدة ست سنوات. ولكن على أبى وناظر المدرسة ألّا يخشوا تَبِعات ما فعلوا، فقد مرّ أكثر من ثلاثين عاماً على هذه الواقعة وسقطت عنها العقوبة.. لعل آلامى التى نشأت فى تلك السنة تسقط عنى أيضا مع الزمن!

صرت منذ ذلك اليوم ألعب دور أخى الميت. ومن الطريف أن شهادة وفاة أخى كانت أيضا لا تزال فى حوزة أبى فى أحد أدراج حافظة ملابسه.. كنت فى صِبايا أفتح شهادة الوفاة هذه وأتمعّن فيها وأقول "الحق أنى ميّتٌ منذ زمن!!" ..

وعلى الرغم من أننى كنت أصغر سناً من كل أقرانى فى المدرسة فأننى كنت أتمتع بمعاملة خاصة. رجع ذلك إلى علاقة الصداقة التى كانت تربط أبى بناظر المدرسة من ناحية، وبقدرتى على الكتابة والقراءة من ناحية أخرى. لقد كنت منذ اليوم الأول أفضل تلاميذ الفصل وتم إعفائى من أداء الواجبات المنزلية لكى أستغل هذا الوقت فى مواصلة حفظ القرآن.. وقد كنت أيضاً أحد القلائل المعفيين من الضرب على الأقدام وأطراف الأصابع وبالشلاليط. ولقد رأيت ذات مرة أحد المدرسين وهو يصفع تلميذاً من البدو على وجهه ثم حمله بيديه ومسح به السبورة حتى بال الطفل فى سرواله. وقد كانت جريمته الوحيدة أنه لم يعمل الواجب!

وعلى الرغم من - أو ربما بسبب - إحترام المدرسين لى فقد كنت مكروها من أقرانى التلاميذ. ولكننى - عرفاناً بالحق - لو كنت واحداً منهم لكرهتنى. فقد كنت بالنسبة لهم غريباً يتكلم بلهجة قاهرية، يأتى إلى المدرسة فى سيارة أبيه ويرتدى ملابس جاهزة فى حين يرتدى باقى التلاميذ مرايل صفراء أشبه بالقىء.. كنت

أحمل شنطة جلد غالية فيها أقلام بكبّاس وسندوتشات طازة، فى حين كان يحمل باقى التلاميذ حقائب من نفس قماش المرايل ويأكلون الجبن والحلاوة الطحينية التى كانت توزع عليهم بالمجّان..

كان التلاميذ يقاطعوننى أنا وزميل مسيحى إسمه "شريف عبد الملاك" ولا يسمحون لنا بلعب كرة القدم معهم فى الفسحة. ولكن شريف كان أسعد منى حظاً، فقد كانوا من وقت لآخر يعفون عنه ويسمحون له باللعب بعد أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. أمّا كل حيلى للتقرب منهم فقد باءت بالفشل . حاولت أن أتوقف عن التحدّث باللهجة القاهرية وحاولت تقليد اللهجة الفلاحى، ولكنهم كانوا يضحكون علىّ.. صرت أرتدى نفس المريلة مثلهم وأوزع عليهم سندوتشاتى طوعاً، ولكنهم إستمروا فى مقاطعتى وسرقة أقلامى الغالية.. لقد حاولت حتى لعب دور الأراجوز لإستجلاب مودتهم.. كنت فى الصف الرابع وكانت المدرسة تحتفل بعيد الأم، وقد طلب منى ناظر المدرسة أن أفتتح الإحتفال بآيات من القرآن الكريم "ووصينا الانسان بوالديه إحساناً...." وقد قمت بأداء المهمة على أكمل وجه. وبعد عشرين دقيقة تم تكريمى كأفضل طالب فى الصف الرابع.. وكما افتتحت الحفل فقد اختتمته أيضاً، ولكن ليس بالقرآن هذه المرة وإنما بالرقص الشرقى.. فقد شاركت فى المسابقة التى إختتم بها الإحتفال والتى شارك فيها الأولاد فقط، ولكننى حصلت هنا فقط على المركز الثالث. وكنت أظن أن رقصى أمام التلاميذ سيقربنى منهم ولكن العكس حدث.. فقد وجد كلٌ من التلاميذ والمدرسين تصرّفى إنفصامياً يعبر عن "جليطة" وقلة احساس، فقارىء القرآن لا يرقص والراقص لا يتلو كلام الله..

ابن الصليبيين

أنجبت أمى ثلاثة أطفال فى فترات متقاربة. وقد كتب لإثنين منهم الحياة ومات الثالث عند ولادته. أمّا الأخت الصغرى فكانت بيضاء البشرة، وأخى الأصغر جاء بعيون خضراء، مما أعاد إشاعة الصليبيين إلى الحياة مرة أخرى. ولكن ذلك لم يعد يهمنى: "صليبى"، "إبن الغجر"، "إبن بتاعت مصر المدَّلعة".. لقد اعتدت التهكّم واحترفت تجاهله. صليبى صليبى.. هما الصليبيين كفروا؟!

كان التقدم قد جاء زاحفاً إلى قريتنا فدخلتها المياه والكهرباء وإشترت لنا أمى تلفازاً باع أبى حقلاً كاملاً لتسديد ثمنه. وكنت أجلس يومياً بالساعات أمام الصندوق السحرى وأشاهد المسلسلات والأفلام الأجنبية المليئة بالصليبيين مثل "دالاس" و"فالكون كريست". كنت أتقرّب من التلفاز للتعرف على عيون الممثلين الخواجات الخضراء ولكن كان ذلك هباءً منثوراً، فقد كان التلفاز أبيض وأسود!

أثارت مشاهدتى للأفلام الأجنبية إهتمامى باللغات الأجنبية. كنت أحلم أن أتعلم أكبر عدد من اللغات لأفهم ما يقوله أبناء الفرنجة. وكنت أجلس مع ابن عم لى يكبرنى وأسأله أن يعلمنى الإنجليزية.. كنا نستمع لأغنية أجنبية وسألته أن يترجم لى كلماتها فجاءت ترجمته مشابهة لكلمات أغنية لمحمد عبد الوهاب.. ففهمت أنه علىّ أن أعتمد على نفسى فى ذلك.. ومن هنا وُلدت فكرة دراسة اللغات بالجامعة عندما أكبر. ولكن كانت هناك مشكلتان: أولاً كان على أن أنتظر ثمانى سنوات حتى يأتى وقت الجامعة، وثانياً كان علىّ أن أقنع أبى بدراسة اللغات بدلاً من دراسة أصول الدين كما كان ينتظر..

أصبح التلفاز حبى الوحيد أمضى أمامه الساعات بلا ملل. كان منزلنا يمتلىء بأبناء العمومة والجيران ليشاهدوا معنا مباريات كرة القدم والأفلام العربية. فقد كان عدد التليفزيونات فى القرية لا يتجاوز الخمسة. وكانت أختى صباح ممنوعة من مشاهدة الصندوق العجيب حتى لا تتسلل الأفكار "المايعة" إلى رأسها. ولكنها كانت تنتظرنى دائماً بعد نهاية كل فيلم وتسألنى أن أحكى لها قصته. وكانت ذاكرتى القوية تساعدنى على سرد كل تفاصيل القصة بحذافيرها. حتى القبلات الساخنة كنت أصورها لأختى عن طريق تقبيل ظهر يدى، وكانت أختى تبتسم خجلاً من وصفى.

أصيب أبى بخيبة الأمل عندما سمع بتصرفى يوم عيد الأم، وقال إننى أهنت القرآن حين خلطته بالهزل والرقص. ولكنه كان فى الوقت نفسه فخوراً بى لأننى حصلت على جائزة أفضل طالب للعام الرابع على التوالى. وكان يزورنا فى ذلك اليوم بعض أعيان القرية واشتكى أحدهم أننى دائماً الأفضل فى الفصل وأن إبنه يحاول جاهداً أن يتفوق علىّ ، ولكن دون جدوى ، فرد عليه أبى: "والله دا أمر مش فى إيدينا، شاكر أصله مقرّب من الملأ الأعلى. الملايكة بتنزل عليه بالوحى ليلة الإمتحان وتقول له على الأسئلة وأجوبتها".. ضحك جميع الحضور فى غرفة الضيوف إلّا أنا.. فقد كنت بالفعل أبحث عن تفسير لتفوقى المستمر فى المدرسة رغم عدم المذاكرة وعمل الواجب.. كنت أتساءل لماذا أحفظ القرآن بهذه السرعة الفائقة؟ أعجبتنى فكرة زيارة الملائكة ونزولها علىّ بالوحى كثيراً.. ربما سيتمكنوا يوماً من تخفيف آلامى وشرح أسرار الكون والبشر لى.. ربما سيخبروننى بعد فترة إختبار عن سر العنف والظلم والإمتهان.. عن أصل الشر.

وصعدت فى هذه الليلة فى حالة من اليأس الساذج فوق سطح المنزل ورحت أتأمل السماء وأقرأ سورة "إقرأ" و"المزّمل" و"المدّثر" وأنا أنتظر نزول الأمين جبريل علىَّ بالبشرى الكبرى. ولكننى فى الوقت نفسه كنت

أخاف أن يشق صدرى بسكين ليغسل قلبى بماء زمزم.. كنت أقول لنفسى:"ظهر الفساد فى البر والبحر.. ..."لابد أن هذا هو زمن النبى الجديد: شاكر عبد المتعال
لم ينزل الأمين بالوحى ولم يتغير موقف تلامذة المدرسة منى حتى بعد الرقص. كان آباؤهم يقبّلون يد أبى فى المسجد، ولكنهم كانوا لا يبدون أدنى احترام لى فى المدرسة.. لم يكتفوا فقط بتسميتى "إبن الصليبيين" بل أطلقوا علىّ إسم "جيهان" مثل زوجة الرئيس السادات كما كانوا يسموننى "دولسى من آبو خمستاشر ..قرش".. كانت هذه التسميات تثير بداخلى إشمئزازاً شديدا ً، لأنها كانت تذكرنى بعار القاهرة

دم ولحـم

عدت إلى المنزل فى يوم عطلة دراسية بمناسبة إحتفالات نصر أكتوبر فوجدت أمى تجلس أمام التليفزيون وتبكى بحرقة. نظرت إلى شاشة التليفزيون فوجدتها سوداء. فى البداية ظننتها تبكى لأن التليفزيون خرب، ثم ..سالتها لماذا تبكى؟ فأجابت: قتلوا السادات

- مين؟ إسرائيل؟
- ..لسه مش عارفين!.. قالت أمى واستمرت فى بكائها

أثار هذا المنظر حزنى، ولكننى لم أكن حزيناً لموت السادات، وإنما لأنى كنت أعلم أنه عندما يموت أحد عزيز على أمى فإنها كانت تحرمنا من مشاهدة التليفزيون وأيضاً تحرمنا من أكل محشى الكرنب.. أى اللذتين الوحيدتين التى كنت أعرفهما فى طفولتى.. أذكر أن أمى حرمتنا من لذيذ أكلها ومن مشاهدة التليفزيون لمدة ..أربعين يوماً بعد وفاة جدتى، وكانت فترة عصيبة ومملة فمن الصعب وجود وسيلة أخرى للتسلية فى قريتنا
كنت أدهش لماذا نتصنّع الحزن ونزين الموت بطقوس غريبة، رغم أننا شعب "إبن نُكتة" ويعشق الفكاهة! دهشت وأنا أرى ندّابه مدفوعة الأجر تجلس فى العزاء وتغنى محاسن جدتى المتوفية حتى يبكى من لم يبك بعد. عجبت وأنا أرى النساء يتنافسن أيهن تصرخ أعلى وأيهن تلطم خدّها أقوى! وعندما سافرت إلى ألمانيا إكتشفت أن الشعب الألمانى يفعل مع المرح ما نفعله نحن مع الحزن: يدرسونه ويجهّزون له ويبالغون فيه.. !لأنه فى الأصل ليس من خصالهم! نحن نحتاج الندابة وهم يحتاجون المُهرِّج
لم أكن حينها أفهم لماذا قُتل السادات. وإذا كان السادات يستحق القتل فلماذا كانت أمى تبكى على وفاته؟ ولماذا كانت أمى تبكى فى حين كان أبى لا يحب السادات ويقول إنه خان دماء الشهداء؟ كان أبى يلوم على السادات أنه صالح دون أن يبايعه الشعب على ذلك، وذهب إلى القدس وحده وعانق العدوّ قبل أن يعانق الأرامل والثكلى من شعبه. كان أبى قد ذاق الذلة والمهانة على يد العدو الإسرائيلى فى حرب النكسة، فعاد يحمل كراهية هذا الشعب كأهم معالم هويته. فهذه الحرب غيرت مسار حياته تماماً. ففى حين كانت الإذاعة المصرية تذيع أنباء سقوط طيارات العدو الواحدة تلو الأخرى، كان أبى يزحف فى الرمال ليهرب من نيران العدو الذى هاجم فجأة وبدون إعلان حرب. هرب أبى من الميدان وترك أعزّ أصدقائه يتفحم فى مدرّعته بعد أن أصابته إحدى القذائف الإسرائيلية. وراح أبى يختبىء لمدة ستة شهور فى بيوت البدو. وكان الجميع فى القرية قد إعتبروه شهيداً لأنه لم يرجع بعد نهاية الحرب التى لم تستغرق إلا ستة أيام، كما لم يرد إسمه فى قائمة أسرى الحرب. وعاد أبى إلى القرية فى الظلام متسلّلاً وأغلق عليه بابه لأيام طويلة.. ولكن الغريب فى الأمر أن عمى "عبد السلام" قد ذاق أيضاً مرارة الهزيمة فى نفس الحرب، ولكنه عاد من النكسة يقدس الشعب اليهودى ويمجده. كان يقول إن الجيش الصغير الذى يقهر خمسة جيوش عربية وينتزع كرامتها لابد أن يكون جيش شعب الله المختار.. وكان إذا أنصت إلى الراديو لا يستمع إلاّ لإذاعة إسرائيل. كان يقول انه يشعر بالنشوة وينتظر الصدق عندما يقول المذيع: "هنا إذاعة إسرائيل من أورشليم القدس". وكان عمى يقول ان المنتصر ليس لديه حاجة للكذب، فالكذب هو آفة المهزومين والضعفاء ومن لا يشعرون بحرية: (إحنا يعنى!)
وهكذا كان كل من الأخوين يتعامل مع خزيه بطريقته: أبى عن طريق لعنة العدو، وعمى عن طريق تمجيده والتسبيح بحمده. كانت الطريقة التى يتحدث بها عمى عن إسرائيل تثير غضب أبى. وقد نشبت صراعات عديدة بينهما لهذا السبب. كان عمى شخصية غريبة الأطوار، وكان أبى لايقل عنه غرابة.. فى الواقع كل عائلتنا كانت "عيلة لاسعة" وغير طبيعية، فقد كانت أكثر العائلات نزاعاً فيما بينها وأشدها تضامناً ضد غيرها. كان الكثيرون من أفراد هذه العائلة يتزوجون ثم يطلّقون ثم يغيرون زوجاتهم مثل تغيير ملابسهم الداخلية. كانوا أسرع أهل القرية غضباً وأشدهم رعونة.. ومعظم الشباب المتعلم فى القرية ينتمى لعائلتنا وأكثرهم عبطاً وبلاهة أيضاً. تجد بينهم حفظة القرآن والخطباء وبينهم الزنادقة وسبابى الدين. كان أحد اعمامى، وهو يحفظ القرآن ايضاً، يطرد الأطفال من أمام بيته الكبير عند الظهيرة ويقول لهم "إمشوا إلعبوا عند عششكم يا فقرا يا ولاد الفقرا!" وكان لى عم آخر زارته جماعة التبليغ والدعوة وطلبوا منه أن يأتى معهم الى المسجد فسألهم لماذا؟ فقالوا له "لكى نصطلح مع ربنا" فرد عليهم "وهوَّا انا كنت اتخانقت مع ربنا علشان اصطلح معاه؟".. وعم ثالث جائته إمرأة تشتكى له أن زوجها يضربها بضراوة رغم أنها تركت المسيحية وإعتنقت الإسلام من أجل الزواج منه. فردّ عليها

"عمى: "ماهو إنتى اللى تستهلى، الناس كُلّها عمّاله بتكْفَر فى الزمان دا وإنتى جايه تسلمى؟
كانت معظم الشجارات داخل العائلة تبدأ من لا شيء وتنتهى بالدماء. كانت حقول أبى وحقول عمى عبد السلام تقع جنباً إلى جنب، وقد أثار غضب عمى أن باع أبى قطعة أرض له ملاصقة لحقل عمى لرجل غريب، فنشبت بينهما مشاجرة إنتهت بأن ضرب عمى أبى على رأسه عدة مرات بعرق خشب، حتى سال الدم من كل مكان فى رأسه. عاد أبى الى البيت ماشياً على قدميه ودخل علينا والدم يتدفق من رأسه كماسورة مياه مكسورة.. كان الدم يسيل على وجهه وملابسه حتى كدنا لا نتعرف عليه.. عندما رأته أمى سقطت فى إغماءة على الأرض، فذهب أبى بكل هدوء الى المطبخ وعاد ببصلة دشّها بقبضته وقرّبها إلى أنف أمى، ثم حملها إلى غرفتها.. وبعدها عاد وفتح علبة القهوة وراح يحشو جروحه بالبُنّ المطحون.. ثم اقترب منى فى هدوء وقال بصوت عطوف لم آلفه منه: روح نادى لعمك فتحى الفلاح وقول له يجيب معاه شاش وقطن كتير!
جريت إلى دار الرجل الذى قطع "بتاعى" وقلت له باكياً: تعالى بسرعة أحسن أبويا هيموت! أصيب أبى بإرتجاج فى المخ ونُقل إلى إحدى مستشفيات القاهرة الخاصة للعلاج. وتم القبض على عمى وحُبس رهن التحقيق. وعندما تحسنت حالة أبى بعد أسابيع زاره ضابط المباحث ليأخذ أقواله، فإدّعى أبى أن أحداً لم يضربه وأنه سقط على حجر فى الحقل ! فتم الإفراج عن عمى عبد السلام. إعتبرت كل العائلة تصرف أبى عملاً بطولياً.. إلّا أنا.. فما عمله أبى هو بالضبط ما فعله السادات: خيانة.. على حد تعبير أبى نفسه!
كنت أفتقد أبى كثيراً طيلة فترة غيابه. كنت أصلى وأدعو له بالشفاء، وأدعو أن يعود إلينا سالماً. رأيت من هذه الحادثة أن مجرد وجود أبى فى هذا العالم هو سند كبير لى. لقد إفتقدت أن أتلو القرآن بين يديه، وأن أذهب معه إلى المسجد وأصلى خلفه.. فقد كان مساعده فى المسجد ذا صوت رتيب وخطاب ممل.. فلا أحد يستطيع تحريك مشاعر المصلّين مثل أبى بصوته العذب وأشعاره المنمّقة وبلاغته المنقطعة النظير. كنت أفتقد عطره الغالى الذى كان لا يزال يملأ غرفته ومقولته المألوفة التى كان يكسر بها صمت الجلسة "يا أرحم الراحمين ارحمنا يا ربّ!" أضف الى ذلك أن غياب أبى قد حرمنا من الأكل اللذيذ، فقد كانت أمى تعوده فى المستشفى يومياً وأصبحت مهمة طهى الطعام منوطة بأختى صباح والتى كان طبيخها غير مستساغ (وهذا فقط لتجنب قول: يقرف الكلب الاعمى) ..
لقد إكتشفت أن أمى لا تستطيع أن تحب أحداً غير أبى حتى أبنائها .. لا تستطيع أن تطهو طعاماً إذا كان أبى لن يأكل منه.. لم أر فى حياتى كلها إمرأة تحب رجلاً مثل محبة أمى لأبى.. كانت تسامحه بلا شروط وتقف وراءه ظالماً أو مظلوماً..
من المدهش أننى لم أستغل فترة غياب أبى فى الإستمتاع بالحرية واللعب، بل رحت أتعلم القرآن فى كل دقيقة من وقت فراغى كى أُفاجىء أبى بتلاوة أجزاءً جديدة عند عودته. كنت أفتقد كل شىء فيه.. حتى خوفى منه! وكان أخى وأختى أيضاً يفتقدانه. كنا نعلم بالطبع أنه بعد أن يعود للبيت سنعاود الإختباء منه مثل الفئران المذعورة عندما يدخل المنزل، ولكننا كنا نفضل عودته على الفراغ البارد الذى خلّفه غيابه.

كل شىء ينتهى قريباً

قرر أبى بعد عودته من المستشفى أن يبيع البيت ويبنى بيتاً آخراً فى الطرف الآخر من القرية، لكى يبتعد عن أخيه ويتجنب الشّجار معه من جديد . كانت بناية البيوت وبيعها بعد فترة وجيزة إحدى هوايات أبى.. حتى كان بعض سكان القرية يظنون أنه يتكسّب من ذلك. مالم يعرفه معظمهم هو أن أبى كان يبيع البيت بنصف الثمن كى يهرب من جيرانه الذين كان يملّ منهم أو يتشاجر معهم كثيراً . كان يحب تصميم البيت ورش الأحجار بنفسه وإعطاء الأوامر للعمال ومراقبتهم.
بنى أبى فى القرية سبعة بيوت. ساهمت الإنتقالات الكثيرة فى أن أتعلم ألّا أرتبط بمكان ولا بصداقات طويلة المدى، لأننى كنت أعرف أن كل شىء ينتهى قريباً. "كل شىء ينتهى قريباً"، أصبح شعاراً جديداً لحياتى. أظن أن هذه التنقلات بجوار جوانب أخرى من تاريخى قد خلقت منى شخصاً لا يحب الإرتباطات والإلتزامات.. شخص يسهل عليه الهَجر والهجرة.
ولكن كانت لهذه التنقلات أيضاً جوانب إيجابية، فقد قطنّا كل نواحى القرية وقابلنا كل أصناف البشر. وكان بيتنا الجديد يقع بجوار منزل عمى الأكبر الذى كان لا يحب الفقراء. كان عمى هو آخر رجل فى القرية لا يزال متزوجاً من أربع نساء فى نفس الوقت. وكان يسكن فى بيته ذى الأربع طوابق مع زوجاته الأربع وأبناءه وأحفاده. كان واحد وخمسون شخصاً يسكنون البيت الكبير الذى أطلق عليه أبناء عمومتى إسم "العبّارة" لضخامته وكثرة شرفاته. والجميل فى هذا البيت أنه كان دائماً مليئاً بالحركة والحياة. كنت تستطيع أن تقف أمام البيت وتنادى بأى إسم يخطر على بالك، وأنت على يقين أن أحداً من أهل البيت سيرد عليك. ومن طرائف هذا البيت أن عمى أراد أن يشرب شاياً ذات مرة، ولكن لم يكن هناك شاى فى المنزل، فأمر أحد أحفاده أن يذهب لشراء الشاى، ولكن حفيده هذا تجاهله، حيث كان يجلس مع باقى الأحفاد أمام التليفزيون ليشاهد مسلسل الظهيرة. فقام عمى منزعجاً وأغلق التلفاز وأمر أحفاده جميعا أن يقفوا طابوراً ويذهبوا جميعاً

لدكان "أبو اسماعيل" لشراء الشاى. وبالفعل ذهب أكثر من عشرين شخصاً بين الرابعة والثامنة عشر لشراء باكو شاى واحد!

كان معظم أحفاد عمى من الرعاع ولكن بعضهم كان حسن المظهر والخلق. كانوا على الأقل لا يعرفون شيئاً عن قصة الغجر أو الصليبيين، وكان بعضهم إذا أراد أن يخاطبنى يقول لى "يا عمّى" وكان ذلك يعجبنى. كنت ألعب معهم ألعاباً بدائية وعنيفة. فكنا نقسم أنفسنا لفريقين ويروح كل فريق يرمى الآخر بأقحف التين الشوكى. كما كنا نلعب أيضاً لعبة إسمها "أوّلها خـــرا" لم أعد أذكر قواعدها ولكننى أذكر أنها لم تكن لها علاقة بـ "الخـــرا". كما لعبنا لعبة أسمها "حرب دين" وكان أحد اللاعبين يحمل زميله على ظهره وكان اللاعب المحمول يسمح له برفس منافسيه بالقدم أو ضربهم بجلبابه المعقود.. وفين يوجعك!! كانت ألعاباً عنيفة جداً ولكنها كانت تمنحنى الشعور بالإرتياح. كان يسعدنى أن يقبلنى الأطفال الآخرون ويعتبروننى ندّاً لهم. ولكننى كنت لا أستطيع أن أقضى كل الوقت مع الآخرين، فكان داء العزلة قد تمكّن منى..

كنت أذهب كل يوم إلى "العلواية" وهى هضبة صحراوية صغيرة عند أطراف القرية وكنت أصعدها ثم أتدحرج عليها حتى الأرض ثم أصعدها وأتدحرج من جديد طول الوقت حتى الإنهاك التام. كنت أستمتع بمنظر غروب الشمس كثيراً من فوق هذه الهضبة. لست أدرى من علّمنى الإستمتاع بالشمس، فالشمس فى قريتنا شىء نفرّ منه ونخشى ضربته، ولكن شيئاً ما بداخلى كان يتفاعل مع الأشياء الجميلة. وقد رأيت يوماً مشهداً أظنه أجمل مشاهد طفولتى على الإطلاق. كنت فى طريق عودتى من العلواية إلى المنزل وقد دخلت فى حقل تين شوكى لأختصر الطريق، وفوجئت بمنظر لم تصدقه عينى: وجدت مجموعة من الثعابين الملونة وقد شكلت دائرة محكمة ورأيت فى وسط الدائرة ثعباناً آخر وراح كل منهم يتمايل برأسه ذات اليمين وذات الشمال وكأنهم فى حلقة ذكر. إختلط بداخلى الخوف والجمال، الدهشة والإفتتان. لم أستطع مواصلة السير وكأن قدماى قد ضُربتا فى قاع الأرض كجذور أشجار التين.

حكيت لأمى ما رأيت فقالت لى لابد أنه كان عرساً لأحد الثعابين، وقالت لى ان الحيوانات والحشرات تعيش فى مجتمعات مثل البشر تماماً وانهم يسبحون بحمد ربهم، ولكننا لا نفقه تسبيحهم. وقالت لى ان الرسول عليه الصلاة والسلام أمرنا بالعطف على الحيوان، وقالت ان رجلا دخل الجنة لأنه أنقذ كلباً من العطش وأن امرأةً دخلت النار لأنها حبست قطة ولم تقدم لها الطعام. رحت أفكر فى هاتين القصتين طويلاً وكنت أتساءل: لماذا أن المرأة هى التى تدخل النار دائماً؟ أحقاً أن معظم أهل النار من النساء كما أخبر الرسول؟ ولماذا؟.. ولكننى كنت أيضاً أفكر فى كل ذنوبى ضد الحيوانات والطيور التى عذبتها حتى الموت. رحت أصلى وأسأل الله المغفرة واصبحت لا أستطيع أن آكل لحم الطيور لأكثر من عامين.

كانت أمى قد مرت بمراحل تحول كثيرة فى الفترة الأخيرة.. فقد أصبحت إمرأة ناضجة ومؤمنة. أيقنت أن محاربة طواحين الهواء لا تجدى، فبدأت فى إرتداء الملابس الحشمة وراحت تصلى الفروض الخمسة وتقرأ فى الكتب الدينية. ولأن أهل بلدتنا بيض القلب فقد غفروا لها ماكان وصاروا يكنّون لها الإحترام والتقدير.

لاحظت بدهشة كيف تحولت أمى من قاهرية متمردة ومبذّرة إلى امرأة مؤمنة وفاعلة خير. كانت تغدق بالعطاء على فقراء القرية، وكانت تفعل ذلك فى الخفاء حتى لا يعرف أحد بذلك فيأتى ليشكرها، لأنها كانت لا تنتظر أجراً إلّا من الله. دقّ أحد الشحاذين ذات يوم على بابنا وسأل أمى إن كان لديها ملابس قديمة من أجل الشتاء القادم. فدخلت أمى لغرفتها وعادت بعباءة "كشمير" أصلى جديدة كانت قد إشترتها لأبى منذ وقت قصير وأعطتها للسائل الذى ظن فى بادىء الأمر أنها تمزح معه أو تسخر منه. وعندما سألتها لماذا تفعل ذلك قالت: "إن الله طيّب لا يقبل إلا طيب".. كنت أتحدث مع أمى كثيراً، ولكن حاجزاً ما كان يقف بيننا دائماً، فأنا لا أتذكر أى معانقة أو ملامسة جسدية بينى وبينها منذ فطامى. وكنت بعد "جريمة القاهرة" أستحى أن أقف عارياً أمامها أو أمام أحد، وكنت أصمم على الإستحمام بنفسى. ربما كنت ألوم عليها أنها كانت صاحبة فكرة ذهابى للحضانة فى القاهرة أو أنها لم تشعر بغريزتها أننى أنتهكت حتى ولو لم تنطق شفتاى بذلك.

كنت أظن أن أبى هو مركز حياتى، ولكننى أظن أن علاقتى أو "لاعلاقتى" بأمى لا تقل أهمّية. فيبدو أننى قد ورثت منها الكثير من المشاعر والواجبات والأخطاء وعلامات الإستفهام...

فنـاء - بقـاء - توكُّل

واصلت حفظ القرآن، وكان أبى راضياً عن تقدمى. وكانت تلاوة القرآن تدخل السعادة إلى نفسى. ولكننى لاحظت أننى لا أشعر بورع عندما أصلّى. صار الأمر مجرد واجب عائلى أو طقس وثنى إجتماعى. وكان بعض المنتمين للطرق الصوفية ينظّمون حلقة ذكر بعد صلاة العصر كل يوم خميس. كان أبى يعتبر طقوس الصوفية تخالف سنة الرسول ولكنه كان يسمح لهم بالذكر فى المسجد، بل وكان يرسل لهم الطعام من حين لآخر، وكان يقول "كلٌّ يعبد الله على طريقته".. بل كان أيضاً لا يمانعنى إذا وجدنى أقف معهم فى حلقة الذكر. كانت تعجبنى حركاتهم وتوسلاتهم النابعة من القلب. كانوا عندما يقولون: "الله حىّ!" أشعر بإستجابة عاطفية

بداخلى. وكانوا عندما يرددون "فناء - بقاء - توكل "لا أفهم شيئاً، ولكننى أشعر ببصيص من الأمل، وكنت أفسّر هذه الكلمات بطريقتى الخاصّة على أن التوكل على الله هو الجسر بين العدم والحياة الأبدية. كان يعجبنى أنهم يقفون فى دائرة مغلقة مثل الثعابين فى العرس ولا يصطّفون مثلما نفعل فى الصلاة أو فى طابور المدرسة أو الطابور العسكرى!

كان يعجبنى تفسيرهم لكلمة "ذكر". كانوا يقولون إن كل العلوم مخزونة بصدر الإنسان، ونحن لا نتعلم أى شىء جديد وإنما فقط نتذكر عندما نذكر الله. كانوا يقولون إن الحقيقة تكمن فى قلب البشر وليست فى العالم الخارجى. أعجبتنى أيضاً رؤيتهم للقضاء والقدر. قالوا إن الله قد عقد مع بنى آدم عهداً، وبموجب هذا العهد تكون للإنسان حرية الإختيار التى سماها الله "أمانة"، وحرية الإختيار هذه تجعل الإنسان مكلّفا ومسؤولاً عن مصيره. وفى الوقت نفسه لا يحدث شىء بدون إرادة الله. فالله يقرر مصير العبد والعبد يقرر كيف يتعامل مع ما أصابه من خير أو شرّ.

كنت أبحث فى هذه الفلسفة عن تفسير لما حدث لى فى طفولتى وعن طريقة للتعامل مع قدرى. فتح عالم الصوفية عيناى على دنيا أخرى وأفكار جديدة تماماً. لم أفهم بالطبع كل ما كانوا يقولون فى تلك الآونة، ولكن كلامهم كان دائماً يدخل إلى قلبى بتلقائية. أعجبنى أنهم لا ينكرون الشعائر ولكنهم فى الوقت نفسه لا يمارسونها بطرق وثنية تكرارية. أعجبنى أنهم كانوا لا يسهبون الحديث عن جهنم ولا يتلذذون بذكر أحاديث العذاب، وإنما كانوا يتكلمون عن "نار المحبة الإلهية". لم يدرس أحد منهم علوم الدين ولا أصول الفقه، ولكنهم كانوا يتحدثون ببساطة المؤمن وبيقين المتوكل على الله.

و بعد فترة ضايق أبى أننى كنت أقضى وقتاً طويلاً مع "الدراويش" وبدأت فى إهمال مواصلة حفظ القرآن. عاد يوماً الى البيت وطلب من أن أجلس إليه وأتلو عليه سورة "الطلاق" وهى سورة كنت قد حفظتها منذ أكثر من خمس سنوات. لقد كانت فى الواقع سورة سهلة جداً، ولكننى كنت فى ذلك الوقت أركّز على السور الطويلة. ولذلك فقد إرتكبت أخطاءً أربعة أثناء التلاوة عاقبها أبى بأربع صفعات على وجهى. كان أحد أبناء الفلاحين قد تلى عليه نفس السورة فى هذا اليوم فى المسجد دون خطأ واحد. صرت أكره هذه السورة وأتجنبها كلما كنت أختم قراءة القرآن فى شهر رمضان.

كانت هذه هى أول مرة يصفعنى فيها أبى على وجهى منذ فترة طويلة، فقد توقّف منذ سنوات أن يستخدم يده فى معاقبتى بعدما ضربنى على رأسى وأنا طفل صغير فصرت أعانى من صداع حاد وكنت لا أسمع بأذنى اليسرى لفترة طويلة. إشترى أبى بعدها خرزانة طويلة ليؤدبنى بها دون أن يكسر عظمى أو يهشّم رأسى. وكانت الخرزانة أداة عقاب مفضلة لدى الآباء والمدرسين، فليس لها آثار جسدية وضرباتها مؤلمة فى نفس الوقت.

وكانت الخرزانة الجديدة مخصصة لضربى أنا وأمى فقط ، فقد كان يعتبر أخى الأكبر "محمد" يتيماً لغياب أمه، وكان يعتبر أخواتى البنات "مكسورات الجناح" فلا يجوز ضربهم، أما أخى الأصغر فلم يكن قد وصل سن العقاب بعد. عندما رأيت أبى يضرب أمى لأول مرة أصبت بصدمة شديدة ورحت أتساءل لماذا يفعل ذلك؟ ولماذا تسمح هى له بفعل ذلك؟ لقد ضحّت بالغالى والنفيس من أجله وكانت تقف بجواره فى السرّاء والضرّاء، كانت تكرس حياتها لراحته حتى درجة إنكار الذات. حتى عندما كان يضربنى بسبب أو بدون سبب كانت تأتى إلىّ وأنا أبكى وتطلب منى أن أذهب لأبى وأستسمحه حتى يرضى عنى، وكنت أقول لها من يجب عليه أن يعتذر لمن؟ وأيضاً عندما كان يضربها لأتفه الأسباب كانت هى التى تتوسل اليه وتستعطف رضاه. كنت أتساءل: أى ذنب إرتكبت أمى لكى يضربها أبى بكل هذه الوحشية؟ لماذا كان هذا الرجل مليئاً بكل هذا العنف؟ كنت اصلى وأدعو الله بعد كل مرة يضربنى فيها أبى أن تكون هذه هى المرة الأخيرة. ولكن عقاب أبى كان يأتى دائماً بإنتظام، إمّا لأنه كان يمسك بى وأنا ألعب الكرة فى الشارع، أو عندما كنت أضرب إحدى أخواتى.

وكنت قد ضربت أختى الصغرى مرة لأنها قصّصت كتابى المدرسى وراحت تلعب بورقه فصرَخَت بصوت عال أيقظ أبى من نومه بعد الظهيرة . كانت جريمتى مركّبة. فقد ضربت أختى من ناحية وأيقظته من منامه من ناحية أخرى. ويا ويله وسواد ليله اللى كان يصحّى الشيخ عبد المتعال من منامه . فقد كان أبى قد فرّ من المعركة أثناء حرب النكسة وإختبأ فى العريش فى أحد بيوت البدو، وكان كلما دق باب العائلة البدوية إنتفض أبى مذعوراً، فلو وقع أبى فى يد الجيش المصرى لعوقب بتهمة الفرار من الميدان، ولو عثر عليه الإسرائيليون لوقع فى الأسر. وقد لازمت هذه العقدة حياته كلها.

قام أبى مفزوعاً من نومه وجاء إلىّ يغوص فى عرقه وإنهال على ضرباً حتى صرت لا أعرف بأى أعضائه يضرب وأى أعضائى يصيب. سقطت على الأرض فراح يركلنى برجله حتى كلّ. وبعد فترة من الراحة عاد إلىّ وأنا لا أزال طريح الأرض وواصل ضربى من جديد. ثم أخذنى إلى المرحاض وراح يصب علىّ الماء البارد. كان غضبه شديداً فى هذا اليوم ، ويبدو أن كل ما فعله لم يهدىء ثورته، فأخذنى بملابسى المبتلة إلى دكّان "مسعود" الحلاّق وسأله أن يحلق لى رأسى "زيرو". كان هذا الحلاق هو الذى يزورنا فى البيت ويحلق لنا، ولكن أبى أراد إهانتى أمام زوار الدكان، وقد كان له ما أراد. ولم يلمه أحد على عنفه معى، فالكل كان يفهم أننى لست ككل أبناء القرية، فأنا بحاجة لتربية خاصة لأتمكّن من تحمل مسؤولية الإمامة فى المستقبل.

كانت عقوبات أبى تأتى دائماً، ولكن أسوأ مافيها لم يكن العنف ذاته وإنما أنها كانت تأتى غير متوقعة، ولم يكن يتبع فى عقابه منهجاً أو منطقاً يجعلنى أتعلم كيف أتفادى هذا العقاب. فقد أمسك بى على سبيل المثال مرات عديدة عندما كنت ألعب الكرة فى الشارع ، فضربنى مرة بعنف ، ومرة أخرى وقف يراقبنى ويشجعنى من بعيد "شووووط يا غشيم!" ومرات أخرى عديدة مرّ مرور الكرام دون أن يلتفت. وكان أقسى العقاب على نفسى عندما كان يحبسنى فى غرفتى ولا يتكلّم معى ، فكنت لا أدرى أهذه هى العقوبة أم أنه يجلس فى الغرفة الأخرى ويفكر فى عقوبة مناسبة؟!

وعلى الرغم من كل هذا فقد كان أبى دوماً هو مثلى الأعلى وكنت - ولا أزال - أكنّ له كل الإحترام والتقدير.. ولو كنت بطبيعتى قادراً على الحب لأحببته! كنت أتناسى كل جوانبه السلبية وأنفض الغبار عن صنمه المتعالى فوق رؤوسنا.. كنت أطرد كل إرهاصاته وإخفاقاته من رأسى لأحتفظ بصورة الإمام العادل الحنون فى

مخيّلتي! ولأننى كنت قد مللت صمت إله السماء فقد جعلت من أبى إلهاً فى الأرض.. ولأننى كنت أخشى أن يكون أبانا الذى فى السماء مثل أبينا الذى على الأرض، فقد أضفيت على أبى صفات رب الخلائق.. وفى نهاية المطاف فإن كلاهما كان غاضباً منتقماً ولا تُؤمن جوانبه!
كان يشرّفني ويرهقني فى الوقت ذاته أن أبى كان يعلّق علىّ آمالاً كبيرة ويؤمن بقدراتى أن أصبح شيئاً عظيماً.
كان دائماً يخشى أن يصيبنى مكروه. فقد كان الوحيد الذى يرفض فكرة ذهابى للقاهرة لدخول الحضانة، وكأنّه كان يشعر بالفطرة أن شيئاً ما بداخلى يستفزّ الشرّ فى نفوس البشر. وقد كنت الوحيد بين أبنائه الذكور الذى لم يسمح له بتعلّم السباحة. سألته ذات مرة أن يأذن لى بالذهاب إلى النيل يوم عيد شمّ النسيم، وكان النيل لا يبعد عن بيتنا الا مسافة 700متر فقط، فقال لى: "روح.. بس لو لمست الميّه لمس حاضربك لحد ما تموت. ولو غُمت فى الميّه من ورايه وغرقت حطلّعك من الميّه واضربك بالجزمة وانت ميت!!" وذهبت للجلوس على النيل بعد أن أقسمت بالله ثلاثاً ألاّ أمس الماء ببدنى . وجلست على ضفة النيل أراقب الأطفال والكبار يبلبصون فى مياه نهر الحياة وأنا أفكر فى كلمات أبى "متفكّرش إنى مش شايفك. أنا عيونى فى كل مكان!" تماماً مثل إله السماء.. كان أبى هو الغائب الحاضر دائماً...
رأيت مرة فى منامى أن أبى سقط ميّتاً فى ساحة المسجد، ففرت من المسجد وجريت فى إتجاه النيل ورحت أنزع كل ملابسى وأسبح فى مياهه. وبعد إستيقاظى أصابنى عذاب الضمير فرحت أصلى وأدعو لأبى بطول العمر. لم أمسّ مياه النيل طول بقائى فى مصر، وقد تعلّمت السباحة لأول مرة فى بحيرات ألمانيا الباردة..
***
خيّبت آمال أبى مرة ثانية فى ذلك العام. جاء بعض أعمامى لزيارتنا فى ذلك اليوم وسأل أحدهم عن نتيجة إمتحانات آخر العام الخاصّة بى فأجاب أبى "والله شاكر السنه دى سقط". فتعجّب الجميع لذلك وراحوا يهزون رؤوسهم، إذ كيف أكون أول المدرسة فى كل عام وأرسب فى هذا العام بالذات؟ فأجاب أبى: "يعنى هو طلع التانى السنه دى، وده معناه عندى إنه سقط". تفوق علىّ مرة أخرى أحد أبناء الفلاحين. أفاقنى هذا العام من سذاجتى وأوهام الملائكة التى تهمس لى بأجوبة الإمتحانات.. حرّم أبى علىّ بعدها اللعب فى الشارع أو الذهاب لحلقات ذكر الصوفية، وجلست كل مساء أرتّل القرآن بين يديه.
ولكننى، والحق أقول، كنت أجد شعوراً خاصاً عند ترتيل القرآن، فهو كان ولا يزال أجمل الكتب التى أعرفها، تتحدى كلماته عقلى ومنطقى وتفوق موسيقاه كلّ الألحان.
كان يعجبنى ويثير تفكيرى موضع "مصر" الخاص فى القرآن. فهى بلد "هاجر" الغريبة المطرودة.. وهى البلد التى عذبت قوم موسى وطردتهم، وهى نفس البلد التى آوت يوسف وإخوته وإستقبلت المسيح وأمه.. ولكنّ قصصاً أخرى فى القرآن كانت تتنافى مع فهمى لرحمة الله وعدله. مثل قصة سيدنا يونس وأيوب وقصة الخِضر الذى قتل غلاماً خشية أن يرهق أبويه طغياناً وكفرا. وقصة إبراهيم الذى رأى فى المنام أنه يذبح ولده فقام وحاول تنفيذ ما رأى دون أدنى اعتبار لمنطق أو مراعاة لحقوق طفل لا يعرف ما هى الرؤيا ومن هو الله!
كنت أجلس مرة أتلو القرآن على أبى وسمعت بعض أطفال القرية يجوبون الشوارع ويطبّلون على علب صفيح وهم يغنّون :

" فاطمة بنت النبى
عملت رز بلبن
حلفت ما هى دايقاه
غير لما القمر ينساب
يا بنات الجنة الجنة
سيّبوا القمر يتهنّى
يا بنات الحور الحور
سيّبوا القمر يدور"

كان الأطفال يغنون للقمر المكسوف وكنت أودّ أن أغنى معهم، ولكننى كنت أجلس لأرتل القرآن أمام أبى. ومن عجيب الصدفة أن ذكر القمر قد ورد فى الآيات التى كنت أقرأها تلك الليلة.
وفى الصباح التالى كنت أجلس أمام المنزل بعد عودتى مع أبى من صلاة الفجر أنتظر شروق الشمس. فلما رأيت قرصها الأحمر المستدير خلف النخيل أشرت بإصبعى إليها وقلت "هذا ربى هذا أكبر!" كنت أعرف القصة من أولها لآخرها فبدأت بالشمس مباشرةً من باب الإختصار، لأننى قد عرفت أنه لا فائدة من مناجاة النجوم والقمر كما تعلمت من سورة الأنعام.
وكان أبى على مقربة منى وسمع ما قلت فجاء إلىّ وسألنى مبتسماً ماذا أفعل؟ فقلت له:
-"أنا بدوّر على ربّنا"
-"ربّنا مش ضايع يابنى عشان تدوّر عليه" قال وإبتسامته غير المألوفة لا تزال على شفتيه.
-"طب وهوّا كان ضايع لمّا سيدنا إبراهيم كان بيدوّر عليه؟" سألته بمكر.
-"لأ.. إن الله موجود قبل الموجودات. هو الأول والآخر وهو الظاهر والباطن" قال أبى بصبر وإستمر فى خطبته المصغرة "وبعدين سيدنا إبراهيم وجد ربنا بفطرة الأنبياء وحكمة الحكماء".
-"بسّ سيدنا إبراهيم رفض دين قومه. ممكن أنا كمان أرفض دين قومى؟" سألته بتحدّ لم يعهده منى.
-"سيدنا إبراهيم رفض دين قومه لأنه كان دين الضلال. أما دينّا فهو دين الحق" رد أبى ببلاغته التى لم تجدينى.
-"بس قوم ابراهيم كانوا برضه مفكّرين إن دينهم هو دين الحق. وسيدنا إبراهيم كسّر أصنامهم. مش ممكن يكون ديننا النهارده بقى دين الضلال وان احنا محتاجين دين جديد؟" سألت أبى وأنا أشعر أنى تخطيت حدودى.
فجأة تحولت إبتسامة المعرفة المرتسمة على وجه أبى إلى إبتسامة حرج ثم إلى تجهّم صامت ثم قال بعدها:
-"وإنت بقى عايز تدوّر على ربنا ليه؟"
-"عايز اعرف هُوّا مين. وعايز مننا إيه؟"

-"إسمع يابنى.. مفيش حاجة اسمها تدوّر على ربنا. الموضوع مش سبهللة! البحث عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك! يدرك الأشياء ولا تدركه الأشياء."

-"ربنا كان فين قبل ما يخلقنا، وكان بيعمل إيه؟ وخلقنا ليه؟" سالته من جديد.

-"كان عرشه على الماء وكان كنزاً مخفياً وكان يريد أن يُعرف فخلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه" جاءت إجابة أبى المحترفة بدون أدنى تأخير..

-"يعنى ربنا كان وحيد عشان كده خلقنا؟" إنفلت منى السؤال دون أن أفكر فى تبعاته.

-"إخرس يا سافل يا إبن الكلب!" قال أبى متضجراً وعيناه محمرتين من الغضب "أنا مش عارف مين اللى بيحشى دماغك بالكلام الفارغ دا. الظاهر إن قعادك مع المجاذيب الدراويش بوّظ نفوخك.. ما تصدقش المخابيل دول اللى عايشين عاله على حساب خلق الله.. ربنا ما خلقناش عشان نرقص ونذكر. ربنا خلقنا عشان نعمَّر الأرض ونسبّح بحمده. إنسى الكلام الفارغ ده نهائى، ولو سمعتك بتقول العكّ ده تانى حأقطم رقبتك!"...

ذهب أبى غاضباً وترك عشرات الأسئلة تتراقص فى رأسى. ما الفرق بين أبى وأب إبراهيم؟ "إنى أراك وقومك فى ضلال مبين"! يا الهى! إلى من أذهب؟ من أسأل إذا أردت السؤال عنك؟ أنت لا تجيبنى كما وعدت فى قرآنك. وأبى - ظلك على الأرض- يغضب إذا أطلت الحديث عنك! لم يفهم أبى أسئلتى ولكنى حاولت أن أفهم غضبه. ربما أحس أبى أن إبنه الذى كان يريد أن يورثه القرآن غير جدير بهذه المهمة. ربما فهم للمرة الأولى أن حفظ القرآن يحتاج لأكثر من ذاكرة فولاذية. ربما أحس أن كل مجهوده طوال السنين السابقة ضاعت هباءً منثوراً..

عند المقابر

(يلبّ.. يدبّ.. يلطش.. يطُسّ.. يهبد.. يخبط.. يشمط..)

كان لى زميل بالمدرسة إسمه أحمد عبد المعبود. كانت تربطنى به علاقة تشبه الصداقة. فقد كنا من أوائل الفصل وكنا نشارك سوياً فى مسابقات المدارس على مستوى المحافظات. وكانت لنا هواية مشتركة وهى جمع مرادفات لأفعال اللغة العربية الفصحى من اللهجة المصرية. وفى هذا الأسبوع كنا نجمع مترادفات لفعل "يضرب". واكتشفنا أن لفعل "يضرب" مرادفات أكثر من أى فعل آخر.

(ينتع.. يلكع.. يسكع.. يفقع.. يرقع.. يلطع.. يرزع..)

تجاوزت الحادية عشرة من عمرى وكنت تحت ضغط رهيب، فكان علىّ أن أكمل حفظ القرآن فى خلال شهور قبل أن أتم الثانية عشرة مثل أبى فى صباه. ولكننى كنت مصمماً على إتمام المهمة فى الوقت المحدد لأدخل أخيراً إلى عالم الكبار وأترك خلفى سنوات الذل والمهانة. كنت أتخيّل أبناء القرية وهم يصطفون ليستفتونى فى قضايا حياتهم ويقبلون يدىّ ويعاملوننى بإحترام. ولكننى كنت لا أريد أن أدخل إلى عالم الكبار وحدى ، فكنت أواصل الإلتقاء بأقرانى فى المدرسة وأحاول الإختلاط بهم قدر الإمكان، حتى لو أن معظمهم كان يكبرنى سناً ويتلذذ بالإستهزاء منى ومضايقتى. كانوا يتراوحون بين الثالثة عشر والسادسة عشر وكانوا جميعا بالغين ويعرفون أسراراً تغيب عنى حول عالم البلوغ واليفاعة ، وكنت أريد ان أتعلم منهم . جلسنا ذات مرة جميعاً فى المقابر الجنوبية بعد الظهيرة وهو الوقت الذى ينام فيه حتى الجن الأزرق فى القرية . كنا فى بادىء الأمر نتحدث عن أمور عادية فى الحياة اليومية فى المدرسة . كنت أتبادل مع أحمد عبد المعبود المترادفات.

- يسفَخ
- ينفُض
- يهفّ
- يزغُد
- ينتش
- لا يا فالح "ينتش" معناها يسحب مش يضرب!
- "و رحت ناتشُه حِتّة كفّ" صح؟
- آه صح!

وفجأة وبدون مقدمات إقترح أحدهم أن نقوم بقياس أعضائنا الذكرية لنعرف أيّنا الأكبر وأيّنا الأصغر، وبدأ هو بتهبيط سرواله فوضع الجميع أمام الأمر الواقع، فراح كل منهم يرفع جلبابه ثم ينتزع لباسه الداخلى. كان منظراً مقززاً ومثيراً للغثيان، وكان شئ ما بداخلى يقول لى: إهرب الآن! ولكن شيئاً آخر كان يحجّر قدمىَّ فى موضعهما فلا أقوى على الحركة. كان هذا المنظر مثل حادثة على الطريق، لا تستطيع أن تمعن النظر اليها من بشاعة الجروح ولكنك أيضاً لا تستطيع أن تدير عنها وجهك..

كنت أنا وزميلى أحمد عبد المعبود الوحيدين الذين لم ينزعا سراويلهما بعد. كان أحمد فى الثالثة عشر وكنت لم أبلغ الثانية عشر بعد.. كان بتاعانا غير قادرين على منافسة هؤلاء الغيلان.. ولكن أحمد فى النهاية إنساق لرغبتهم وشلّح عورته. فراح الكبار يضحكون عليه ويعايرونه أن بتاعه صغير مثل الدودة. وكنت لا أزال أقف

أمامهم لا أشاركهم ولا أتجنبهم، وقد تناسوا وجودى لفترة وراحو يستبقون أيهم يقذف حيواناته المنوية إلى أبعد مكان. كنت أتساءل: لو أن كائناً غريبا جاء من الفضاء البعيد وهبط على الأرض فى هذه البقعة من قريتنا ورأى الشباب وهم يمارسون ما كانوا يمارسون، فماذا سيظن عن الجنس البشرى؟ لابد أنه سيعتبر البشر هم أحطّ أنواع المخلوقات وأكثرهم بدائية.

-إيه ما تعرفش تضرب عشرة؟" سألنى أحدهم وواصل السباق دون الإنصات لإجابتى. لم أكن أعرف حينها سوى عشرة الكوتشينة والعشرة المبشرين بالجنة.

كان أحمد عبد المعبود يحاول أن يعوض صغر حجم بتاعه بمحاولة قذف سريع لسائله المنوى.. وكان يحاول ويحاول حتى إمتلأ جبينه بالعرق وفى النهاية لم يخرج منه شىء غير الهواء، فراح الجميع يسخرون منه ويضحكون عليه بلا رحمة. وفجأة إلتفتوا إلىّ وتذكروا وجودى حولهم. إقترب منى ثلاثة منهم وقال أحدهم: "وانتا؟ مش عايز تقلع وتوّرينا الهانْش بتاعك؟" لم أعرف حينها أيضاً معنى كلمة "هانش" ولكنى عرفت المعنى فيما بعد.. رأيت الشر فى عيونه وأحسست أن هذا اليوم لن يمرّ على خير. "هجوم!" نادى نفس الولد على الباقين فلبّوا مجيبين إلا أحمد. وعندما هجم علىّ الشباب وأمسكوا بى تعطّل بداخلى شىء ما بتلقائية غريبة، وكأنّه جهاز ذاكرة آلامى الذى يعرف ما تسببه مثل هذه المواقف لى من عذاب. رفع الغوغاء ثيابى ونزعوا عنى ملابسى الداخلية. كتّف إثنين منهم ذراعىّ وراء ظهرى وثبّت أحدهم رأسى على الأرض وهو يضع يده على فمى وراح كل واحد منهم بعد الآخر يدنس أحشائى بلذته الحيوانية. كان كل شىء يبدو لى سريالياً وكأنه حلم أو خيال. لم تُبد عضلات جسدى أدنى مقاومة، حتى ظن بعضهم أنى أتلذذ بما يفعلون. كانت فقط بعض الخواطر تدور فى ذهنى وكأننى أحلم. كنت أرانى أتحدث إلى الله: " لماذا يارب؟ لقد كنت أبحث عنك بشغف ولهفة طفل يتيم. أهذه هى إجابتك؟ هل يعجبك ذلك؟ أهؤلاء شباب خير أمة أُخرجت للناس؟ ها أنت قد أكملت مذلتى، فماذا بعد فى جعبتك أيها الرحيم؟"

كان أمراً لا يصدقه عقل. لقد حدث لى نفس الشىء للمرة الثانية. أىّ جينات عاهرة تدخل فى تكوينى يشمها الرجال فيهجمون علىّ كالحيوانات المفترسة؟ أم أن القدر يجد لذة خاصة فى الإزدراء بأمثالى ومواصلة إهانتهم؟.. هل خُلقت فقط لفك ضيقة الشباب المحروم المكبوت؟ وهل أنا الآن "خول رسمى"؟ رحت أتصور أهل القرية وهم يحملوننى مكبلاً لمئذنة المسجد الكبير ثم يلقون بى من أعلى ، فهذه هى العقوبة التى طلبها الرسول لكل لوطى شاذ، على حد قول مدرس الدين فى المدرسة الإعدادية.. ولا أظن أحداً سيطلب لى الرحمة فقد فعلت فعلتى هذه للمرة الثانية..

بعد فترة طويلة - لم أكن أعرف بعدها كم من الأعضاء الذكرية قد تفحّش بداخلى - بدأ أحمد عبد المعبود وهو الوحيد الذى لم يهم بالهجوم علىّ، بدأ يصرخ ويطلب من الشباب أن يكفّوا "لو ابوه عرف باللى حصل انتو وأهاليكو هتباتو فى السجن النهارده!" يبدو أن كلمات أحمد قد أفاقت الشباب من نشوة حيوانيتهم فخلّوا سبيلى وجروا بعيداً. ووقف أحمد بجوارى وهو يشعر بالذنب وراح يؤنبنى:"إنت بس مالك ومال ولاد الكلب دول؟ بتلعب معاهم ليه؟ دول مش من مستواك" قالها أحمد ولا زلت طريحاً على الأرض وآثار العنف واضحة على جسدى."ماتخفش يا شاكر! أنا مش حقول لحدّ اللى حصل.. ماتخفش!" قالها وذهب يملأه الخجل..

لم أكن أقوى على الكلام ولا حتى على القيام من الأرض. نظرت لأعلى فقرأت على أحد المقابر "هذا قبر المرحومة مجيدة عثمان أبو عاشور" فتساءلت لماذا لا يوجد قبر هنا أختبىء به يكتبون عليه بعد أن يوارونى فيه "هذا قبر المنسى من الله شاكر عبد المتعال"..

منطقة خالية

ظل جهاز شعورى بالألم معطلاً.. ذهبت إلى البيت وكنت أحاول أن أكون طبيعياً قدر المستطاع. لم أختبىء فى غرفتى بل ذهبت للإستحمام ثم جلست أمام أبى أتلو عليه القرآن وكأن شيئاً لم يكن. أحسست أن شيئاً بعد اليوم لن يؤلمنى أكثر مما كان. عندما فرغت من ترتيل القرآن هزّ أبى رأسه مستحسناً وقال "فات الكتير ما باقى الا القليل!" نظرت إلى عيون أبى طويلاً وهو ما لم أقوَ على فعله فى الماضى . وكأنى كنت أستدرّ منه بعض العطف. أحسست برغبة عجيبة أن أرتمى فى أحضان أبى. كان ذلك إحساساً غريباً للغاية، فقد كنت أظننى سأتجنب كل البشر فى ذلك اليوم. لم أكن أدرى لماذا إنتابتنى هذه الرغبة فى عناق أبى، ولكن على كل حال فإن العناق لم يكن إحدى خصال أبى، فقد إعتاد أن تكون هناك مساحة كبيرة بينه وبين أبنائه دائماً.. ذهبت إلى فراشى وحالة من الهدوء النادر ما زالت تهيمن علىّ. سقطت فى نوم عميق لم يعكّر صفوه شىء، ...وكأن ما مررت به فى ذلك اليوم لم يكن إلا فيلماً سينيمائياً شاهدته عن بعد ولم ألعب فيه الدور الرئيسى وفى اليوم التالى ذهبت الى المدرسة كالمعتاد وحاولت إعطاء الجميع إنطباعاً عادياً عنى. ولكننى من باب الإحتياط أخذت معى سكّينة سرقتها من المطبخ. وجاء الىّ أثناء الفسحة طالب لم يكن من مجموعة المقابر وقال لى إنه سمع بما كان بالأمس ووعدنى ألا ينشر القصة فى المدرسة إذا سمحت له بـ "ساعة أنس" مثل

الآخرين. نظرت إلى سور فناء المدرسة وقد كُتب عليه: "كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعا.. يُرمى بصخر فيرمى أطيب الثمر". وضعت يدى فى حقيبتى بكل هدوء وأخرجت السكّينة وأمسكت بياقة قميصه وقلت له مهدداً: "وقسماً برب العزّة اللى حيجى جنبى حضربه بالسكينة فى صدره من غير ما إفكر يا ولاد ميتين الكلب!" ورغم هدوئى التام فقد حاولت اصطناع الغضب الرهيب.. لم يكن أحد قد رآنى ثائراً كهذا من قبل.. وبالطبع فإننى كنت لا أزال جباناً وغير قادر على تنفيذ تهديداتى ولكن الخدعة نجحت ولم يضايقنى بعد ذلك أحد بقصة المقابر على الاطلاق..

قررت ألّا أفكر فى حياتى ومعناها بعد ذلك. قررت ألا أكون إلا مراقباً للحياة وغير مشارك فيها. وفجأة إكتشفت إهتمامى بحياة أخى الأكبر "محمد". ماذا يفعل الآن؟ كيف يبدو يومه؟ وكيف تبدو غرفته؟ كان محمد قد بلغ العشرين وتزوج من أسابيع للمرة الثالثة. وكانوا يسمونه فى القرية "قاتل العذراوات" فكان يتزوج بنت السادسة عشر وينتزع عذريتها ثم يطلّقها بعد شهور ويبحث عن عذراء جديدة. وكانت مطلّقاته لا يجدن بعد طلاقهن إلا رجلاً عجوزاً يعملن عنده بمثابة خادمات.. فعذرية المرأة هى شرفها، وشرف المرأة - كما قال عمّنا يوسف بك وهبى - زىّ عود الكبريت: ما يولّعش غير مرة واحدة!

هل تُذكّرنا هذه القصة بقصة أخرى سلف ذكرها فى هذا الكتاب؟ إنها قصة أم أخى التى لاقت نفس المصير من قبل. فها هو القدر يعيد نفسه، فهذا النظام القهرى الذى نعيش فيه يدور بسرعة ويبدّل الأدوار، فلا تظل الضحية ضحية ولا يستمر الجانى مجرد جانى. وبهذا لا يفكر أحد فى تغيير النظام لأننا صرنا أنفسنا النظام، فلا حاجة لثورة أو تعديل أو كلام فارغ...

وكان أبى يدفع كل مصاريف زيجات أخى وتطليقاته كما كان يعوض خسارة أى مشروع تجارى يتورط فيه. كانت قطعة من حقول أبى تُباع بعد الأخرى لسداد ذلك. وكان محمد فى هذا العام قد إستقر على عمل بدا وكأنه سيستمر فيه، فقد أصبح بنّاءً وصار معلماً فى فترة بسيطة. وقد سألته ذات مرة بعد حادثة المقابر أن يأخذنى معه لأساعده فى البناء. كنت بحاجة لعمل يدوى ينهك بدنى كى أنام الليل بسهولة دون تفكير فيما قد كان. ولكن محمد كان لايزال يحتفظ بعدوانيته القديمة تجاهى، فرد على طلبى قائلاً: "إيديك الناعمين دول ما ينفعوش فى شغل المونة والطوب.. الشقا والكفر مكتوب على اللى زيّى أنا بس!" قالها وكأنه يجعلنى مسئولاً عن عنائه. ولكنه فى نهاية المطاف قد وافق أن يأخذنى معه شريطة ألّا أسبب أى مشاكل أو أطلب أى أجر. ولكن محمد راهننى على أننى لن أحتمل العمل أكثر من ساعة واحدة. كان يوم الجمعة ولم يكن مألوفاً أن يعمل البناءون فى هذا اليوم، ولكن كان على أخى أن يسلّم البيت الذى كان يبنيه قريباً. لم يكن أمراً غريباً أن يعمل طفل دون الإثنى عشر سنة فى المعمار، وقد عانيت كثيراً من حمل الأحجار فى ذلك اليوم، ولكننى لم أشتك طول النهار، وقد فوجىء محمد بصبرى وجلدتى فى العمل وكان فخوراً بى فى نهاية اليوم، بل وأعطانى ثلاثة جنيهات هى نصف أجر العامل الكبير. أرهقنى العمل كثيراً ولكنه منحنى إحساساً بسيطاً بالرضى رغم الآلام المتبقية التى خلّفتها الأحجار على يدى وكتفى. كنت فى غاية السعادة بأول نقود أكسبها من عرق جبينى وكنت لا أريد ان أنفقها على أى شىء..

ذهب أخى بعد العمل لزيارة عائلة زوجته معها وسنحت لى الفرصة لأول مرة أن أدخل غرفته. كانت رأسى مليئة بالأسئلة: هل يقرأ أخى الكتب؟ هل يستمع إلى الموسيقى؟ وأى موسيقى يفضّل؟ عندما دخلت غرفته رأيت صورة كبيرة للفنانة "وردة" معلّقة فوق السرير. وكانت معظم شرائط الكاسيت الموضوعة على "الكومودينو" الخاص بأخى هى لوردة ولميادة الحناوى. مذاق غريب لم أكن أتوقّعه لأخى. كنت أظنه يستمع لأغانى سريعة لـ "حميد الشاعرى" مثلاً مثل باقى الحرفيين فى القرية. لم أكن أتوقع أن يكون أخى على هذه الدرجة من الرومانسية. ووجدت أيضا كتاباً لتعليم قواعد اللغة الإنجليزية بجوار السرير . هل يتعلم محمد الإنجليزية؟ لماذا؟ كنت سعيداً لأنه كان يشاركنى هذه الهواية. ثم فتحت درج "الكومودينو" فوجدت بعض النقود وقلّامة أظافر وقطعة شيكولاته ملفوفة فى ورق "سوليفان". ففتحت الشيكولاته بحذر وأكلت قطعة منها. وإكتشفت أنها لم تكن شيكولاته بالمرة!! ولكننى إكتشفت ذلك متأخراً فقد كنت قد بلعت ما مضغت. أعدت الشىء الغريب إلى ورقة "السوليفان" ووضعته فى مكانه، ورحت أتساءل ماهذا الطعم الغريب؟ لم يمض الكثير من الوقت حتى بدأت أشعر بتغيّرات واضحة فى جسدى. بدايةً شعرت بدوران كل الأشياء من حولى وأصبحت أرى كل شىء مموّه وعائم. أحسست بغثيان شديد وانساب منى العرق بغزارة. أردت الصعود لغرفتى ولم أكن أدرى أيحملنى درج السلم لأعلى أم لأسفل! وبالرغم من كل هذه المشاعر الغريبة فإن هذه الدقائق كانت الأكثر سلاماً فى حياتى منذ سنوات. رأيت العالم لدقائق معدودة من زاوية نظر مختلفة تماماً. أحسست وكأن قلبى يستحم فى نافورة من نور تطهّره من كل مخاوفه وأحزانه. علمت عند ذلك فقط متى كان أخى يستمع إلى "وردة" و"ميّادة"! أحسست بوجود الله قريباً منى بدون شكّ أو ريبة.. رأيت نفسى والعالم لأول مرة كما أرادنا الله أن نكون: فى ودّ وتفاهم وحكمة. أحسست أنى أتلقّى أجوبة لم أطرح لها أسئلة. أدركت لأول مرة الإمكانيات التى تكمن فى حنايا مخّى، كل ذلك بفضل "حشيش" أخى.. لم أكن أعلم أن الحشيش يوصلنا إلى الله بهذه السهولة.. كان الله قريباً منى جداً، ثم بدأت فى التقىء.. وهنا انتهت القدسية والرومانسية..

مخدّرات فى بيت الشيخ "عبد المتعال"؟ الشيطان فى دار الإمام؟ كان كومودينو أخى هو المنطقة الوحيدة الخالية من الدين فى هذا البيت، أو هكذا كنت أتصور أيام سذاجتى!! وكان درج أخى دائماً مليئاً بالكنوز. كنت أسمح لنفسى أن أتسلل إليه من وقت لآخر لأسرق قطمة سحرية صغيرة تخطفنى إلى مملكة الألوان الجميلة.

ومرة بعد مرة بدأ جسدى يعتاد على النبات العجيب، ولكن ذات مرة كانت القطمة أكبر من اللازم وكنت قد إبتلعتها على معدة خاوية فكان من الصعب إخفاء الأعراض الجانبية. بعدها مشيت مخبولاً فى البيت ولم أدر إلى أين أريد.. ثم رحت أبكى بصوت عال.. بكاء وقىء وبكاء . ثم بكاء وضحك وبكاء. فقدت السيطرة على نفسى تماماً، بدا كل شىء من حولى بطيئاً وحياً. فهمت أمى ببديهتها أن الحكاية فيها "إنّه" وسالت أخى محمد "إيه الحكاية؟" لأنها كانت تعلم أنه جالب الخيرات، فجاء أخى وحملنى إلى السرير وغلى لى نباتاً لا أعرف إسمه يشربه الحشّاشون لتخفيف الآثار الجانبية، ثم رش بعض العطر على وجهى لأفيق من حالة الغثيان.

كنت أشعر بالسعادة عندما رأيت أخى يعتنى بى لأول مرة فى حياته . طلب منى ألاّ أخرج من الغرفة حتى

أشفى تماماً لكى لا يعرف أبى بما كان. أما أمى فكانت مأمونة الجانب، فقد كانت دائماً بئراً لأسرار كل أفراد الأسرة..

كانت هذه الرحلة القصيرة داخل سراديب مخى السرية تلهية جميلة وترفيهاً عمّا حدث لى فى هذا العام ، ولكنها على المدى البعيد لم تخلق منى إنساناً جديداً....

***

كنت أنتظر بلوغى الجنسى على أحرّ من الجمر، لأتأكد إذا ما كنت شاذاً جنسياً أم لا. كادت السنة الثالثة عشر من عمرى توشك على الإنصرام ولم أتمكن بعد من ختم حفظ القرآن. كان ما حدث لى فى المقابر قد بعثر حساباتى وأضعف قدرتى على التركيز وتكريس حياتى من أجل حلم أبى. أضف الى ذلك أنى إنتقلت إلى المدرسة الثانوية بقرية "زهران" التى تبعد عشرة كيلومترات عن قريتنا. وكنت أعود متأخراً من المدرسة وأستغل الوقت المتبقى فى مذاكرة دروسى. وفى العطلات كنت أعمل مع أخى فى المعمار لشراء الكتب الخارجية والملابس. أحسست بخيبة أمل أبى، لكنه لم يفصح لى عنها. ولم تكن لدىّ أية رغبة أن ألعب دور الطالب المثالى فى المدرسة الجديدة، بل إننى كنت أفضل دور الطالب المشاغب الثورجى. وقد حاولت مرة تنظيم عصيان عام فى المدرسة ضد الرسوم الجديدة التى فرضتها إدارة المدرسة لترميم وتزيين الفصول بدون قانون. أثار شفقتى بكاء أحد الطلاب وهو يطلب من المدير إعفاءه من من المبلغ المقرر لأن أسرته فقيرة. ولكن مدير المدرسة رفض خاشياً أن يطلب كل الطلاب إعفاءهم، وقال إنه سيغلق باب المدرسة فى الصباح التالى ويسمح بالدخول فقط لمن يدفع مبلغ عشرين جنيهاً. وكنت قد أقنعت نصف طلاب فصلى أن يأتوا بدون الرسوم فى اليوم التالى. وبالفعل أغلقت البوابات أمامنا، ولم يسمح لنا بالدخول، فرحنا نصيح ونردد الهتافات ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا. فذهبت مع زملائى إلى مركز الشرطة وقلت للضابط إننا إذا لم ندخل لفصولنا اليوم فسنبعث برسالة إلى رئيس الجمهورية. فانتفض الضابط وقادنا بسيارة الشرطة إلى المدرسة ودخلت أنا كمتفاوض لأتحدث مع مدير المدرسة. قال لى" لماذا تتمرد على الرسوم؟ أنا أعرف ان والدك راجل مرتاح". بالطبع لم يعرف المدير أن أبى قد صار شبه مفلس.. رددت عليه: أولاً الامر ليس مقدرة مالية أم لا وإنما مسألة مبدأ. ثانياً هذه ليست رسوماً لأن ليس لها أى صفة رسمية. وإنما هى تبرعات، والتبرعات تكون طواعيةً ولا يُجبر عليها أحد. وأنا مستعد أن أدفع مبلغ عشرين جنيهاً الآن ولكن بشرط أن تعطينى إيصالاً رسمياً مكتوب عليه أن هذه الرسوم إجبارية "..دُهش المدير من حججى وسقطت "الرسوم" عن الجميع بفضل العبد لله . فُتحت أبواب المدرسة وأصبح الطلاب ينظرون الىّ بعين الإحترام منذ ذلك اليوم...

أُحيل جدّى لأمى إلى المعاش وبنى له ولزوجته بيتاً فى إحدى القرى المجاورة لقريتنا. وقد باع جدى شقة القاهرة الكبيرة بثمن باهظ، وكانت أمى تحلم بأن تستفيد من الثراء الجديد، خاصة وأن الجميع كان قد علم بأن أبى لم يعد يصبح من الأعيان. ولكن جدى وزّع المال بوازع من زوجته على أبنائها وحرم أمى للمرة الثانية من خيراته. أصيبت أمى بخيبة أمل شديدة وقطعت علاقتها نهائياً بأبيها ومنعتنا جميعاً من زيارته، رغم أنه كان لايبعد عنا إلا بعض الكيلومترات. وكتبت أمى لأبيها خطاباً قاسياً جاء فيه "أنا كان ليّا أب زمان بس مات ودفنته!" أما أنا فقد وجدت تصرف جدى طبيعياً. فقد سقطت فى يد أمى فى الماضى أموال طائلة بعثرتها على ما تحتاج ومالا تحتاج.

وبعد مقاطعة دامت عامين سمعت من أحد زملائى في المدرسة أن جدى مريض جداً ولا يترك الفراش منذ شهور. قررت كسر المقاطعة والذهاب لزيارته دون علم أمى. ولكن كانت لدىّ مشكلة: فقد إنكمش مصروفى اليومى فى السنوات الأخيرة إلى العُشر ولم يكن لدىّ ما يكفى للمواصلات. فقررت الذهاب ماشياً. كان يوماً شديد الحرارة وكنت أستريح من وقت لآخر فى "الحلفا" و"الغاب" النابتين على إحدى القنوات المشتقة من النيل، دخلت بين الحلفا فوجدت شاباً فى العشرين من عمره تقريباً يجلس تحت شجرة كافور ويدخن سيجارة، فهممت بالذهاب فاستوقفنى قائلاً:

-"مش عايز فلوس؟"

-"لا شكراً" قلت فى تردد

-" خذ 15 جنيه أهم"، قالها وهم واقفاً ودس النقود فى جيبى.. شىء ما بداخلى جعلنى لا أخاف من هذا الصبىّ.

-"وعايزنى أعمل ايه مقابل الفلوس دى؟" سألته وأنا أحاول اصطناع الثقة بالنفس.

-"تظبطنى"

-"نعم ؟"

-".. ترزعنى يعنى" ، قالها وكأنه أمر بديهى

بدأت الشعور بعدم الإرتياح وحاولت إعادة النقود إليه ولكنه رفض. غصبنى فضولى على البقاء فى هذا المكان وكنت أود سماع قصة هذا الشاب فسألته:

-"إنت ليه بتدى الناس فلوس عشان يـ ....؟"

-"عشان انا مش ابيض وحليوة زيّك ومحدّش حيعمل معايا حاجة من غير تمن"

وبرغم عدم الإرتياح الذى أصابنى من تلميحاته فقد واصلت سؤاله:

-"انت مولود كده؟"

-"لأ.. أنا اتشرمت وانا صغير ومن ساعتها وانا كده".. قال ببرود.

بدأت أتذكر ما حدث لى فى طفولتى. كيف يمكن لرجل ان يحب الرجال بعد ان ينتهك منهم؟

-"..طيب هو الموضوع ده مبيوجعكش؟"، سألته بحذر

-"لأ.. دا موضوع لذيذ جداً.. يمكن ألذ من رزع الحريم كمان"

-"..بس دا حرام!" ، قلت وأنا لا أدرى لماذا أقول ذلك

-"طيب وانا اعمل ايه؟.. ماهو مش بإيدى"

-"انا عندى سؤال صغيّر: هو كل طفل يحصلله كده يبقى زيَّك يعنى؟" سألته بفضول.

-"والله مش عارف.. انا اعرف شباب كتير مولودين كِده، وشباب تانيين اتشرموا وهما صغيرين فبقوا كده، وشباب برضه تانيين من غير سبب بقوا كده.. من باب التجربة يعنى!"

"طيب وهو الواحد إزّاى يعرف اذا كان "كده" ولا مش "كده"؟ سألته لأصل إلى حل لهويّتى الجنسية؟"

"هو انا جاى هنا عشان ادّيك درس خصوصى فى شئون الخولات؟ إنت ناوى ترزعنى ولاّ لأ؟" ردّ وقد نفذ صبره..

"انا آسف مش هقدر. انا لازم امشى حالاً. جدى عيّان وبيموت ولازم اروح له".

كنت أظن أنه سيقوم وينهال علىّ ضرباً، ولكنه رد بعطف "ألف سلامة لجدك. خلاص روح ما فيش حاجة!" تركنى الصبى أمضى لحالى وصمم أن أحتفظ بالنقود. لم أرزع أحداً ولم يرزعنى أحد وذهبت إلى جدى يدفىء جيبى خمسة عشر جنيهاً. واصلت السير دون التوصل لإجابة إذا ما كنت شاذاً أم لا.

وصلت إلى دار جدى الذى فرح كثيراً لرؤيتى. ظن جدى فى بادىء الأمر أن أمى هى التى أرسلتنى لتوبيخه أو تأنيبه ، ولكنه سُرّ عندما علم أننى جئت إليه بدون علمها. كانت المرة الأولى التى أرى فيها جدى منذ سنوات، فبعد ما حدث فى طفولتى لم أدخل بيته فى القاهرة مرة واحدة، وكانت زياراته لنا فى القرية قليلة بسبب مرضه أو مشاغله ثم جاءت القطيعة.

كان يبدو هزيلاً فى فراشه وقال لى "خلاص الأجل قرّب. أنا نفسى أرجّع كل حاجة زىّ زمان وادّى أمك حقها. بسّ خلاص ماعادش ييجى منّه. أنا ظلمت امك كتير. حرمتها من امها وهى صغيّرة.. وبعدين حرمتها من الورث اللى شرعه ربنا" إنخرط فى البكاء وسألنى: تفتكر ربنا هيغفر لى ذنوبى يا شاكر؟

-"يا جدى انا لسّه عمرى 13 سنه ومعرفش ربنا بيفكر ازّاى! بس هو ربنا لو ماكانش يسامح البشر تبقى وظيفته ايه؟ أنا لوكنت ربنا كنت سامحتك. تفتكر انا ارحم منه؟"

ظهرت إبتسامة بشر على وجه جدى فقال: "قول لأمك أنا نفسى أشوفها.. ولو كنت اقدر كنت اروح لها ماشى على رجلىّ.. بس المرض!"

عدت إلى قريتنا تدفىء جيبى الآخر عشرون جنيهاً أخرى. أخبرت أمى بما كان وقلت لها اننى لم أقابل فى حياتى إنسانا بلا أخطاء.. وذكّرتها أنها هى أيضاً قد إنتزعت زوجاً من زوجته وولده ودمرت حياة امرأة أخرى. فإذا كانت ترجو عفو الله فعليها أن تعفو عن أبيها قبل فوات الآوان..

"والله وبقيت راجل يا شاكر!"، قالت أمى وقد تأثرت بما قلت. ذهبت أمى لزيارة أبيها عدة مرات، ومات جدى بعد شهور قليلة. كانت أمى بعدها تدين لى بالعرفان لأننى صالحتها بأبيها فى الوقت المناسب..

***

بلغت الرابعة عشر. شهدت قريتنا فى هذا العام على غير العادة العديد من الأحداث. ذبح منصور ابن عويس والده وهو نائم فى الحقل أثناء الظهيرة وفرّ إلى ليبيا. إغتصب شاب مختل عقلياً عمره 25 سنة طفلة عمرها 9 سنوات فى أحد الحقول. إتفقت عائلة الجانى وعائلة المجنى عليها أن يلتزم المغتصب بالزواج من فريسته عندما تصل لسن "الرشد" وحُلّت المشكلة بحمد الله. وسافر عمى الذى لا يحب الفقراء لأداء فريضة الحج للمرة الحادية عشر، وحطّم بذلك الرقم القياسى الذى كان يحتفظ به الحاج عبد الرحمن المنوفى. ولكن أهم ما حدث فى تلك السنة كان أنى دخلت أخيراً إلى عالم الرجال. جاءت البشرى اللزجة وقطع حلم مبلل فيه نساء حسناوات الشك باليقين. لقد كان هذا الحلم مثل الوحى.. كان إنفجاراً منوياً منقطع النظير. الله أكبر.. والله زمان يا سلاحى! أمجاد يا عرب أمجاد! إنفجرت شهوتى الجنسية وتضاعفت يوماً بعد يوم.. وكأننى كنت أحتاج للشعور بالرجولة أكثر من أبناء جيلى. فقدتُ السيطرة على هرموناتى تماماً وفقد النهار سيطرته علىّ. أصبح كل شىء فى حياتى يتمحور حول منتصف جسدى. نما جسمى فى هذا العام وحده أكثر من عشرة سنتيمترات. وكان "أبو العرب" أيضاً قد تمدد وانتفخ. صارت الأحلام الحلوة لا تكفى وحدها لتفريغ الطاقة الجديدة، وكان لا بد من استخدام العوامل المساعدة. كنت أدخل المرحاض وأجرّب كل أساليب "تلميع المسلّة". كنت أشعر أننى على قيد الحياة فقط عندما ألمس نفسى.. لم يكن قذف السائل العجيب يمثل فقط لذة بالنسبة لى وإنما كان أمراً وجودياً. شعرت أننى ولدت من جديد، وأننى الآن قادر على مجالسة الرجال ومنافستهم. كنت أذهب فى الخفاء الى أعراس القرية لأشاهد الراقصات وكنت أشاهد الأفلام العربية والأجنبية كى أجمع بعض الخيالات لتساعدنى فى الحمّام على إنجاز المهمة. كانت أمى تلاحظ أنى أحتكر الحمام كثيراً فقالت لى بصنعة لطافة، وأظنها فهمت القصة: "إرحم نفسك شويّة.. الحمّام دا مش ليك لوحدك!"

***

فهمت تلميحات أمى وصرت لا أحبس نفسى فى الحمّام طويلاً. ولكن لم تكن هذه مشكلة بالمرة. فما أكثر الأماكن الخلوية فى القرية التى يحجّ إليها الشباب ليفكّوا عن ظهورهم: حقول التين الشوكى والذرة الشامية والموز كانت من أحب الأماكن. كنت أذهب مراراً إلى أحد حقول الموز القريبة من النيل والعب هناك بـ "بضاعتى". وكنت ذات مرة أجلس تحت شجرة موز لأستريح بعدما أفرغت ثلاث شحنات متتالية، وسمعت أصوات بعض الشباب يدخلون إلى الحقل فاختبأت وراء الشجرة. وكان بصحبة الشباب فتاة كان يقال عنها ان "مشيها بطّال" ، وكانت هذه التسمية محاولة فقط لتجنب قول "عاهرة" فهم يقولون ان قريتنا ليس فيها عاهرات.. فكل الشراميط التى كانت تحاول ممارسة الرذيلة فى القرية كانوا من "البندر"، ولكن شباب البلد ورجالها حسب الرواية الرسمية لم يكونوا بحاجة لذلك لأنهم مؤمنون وعفيفون، فعادت الشراميط من حيث جئن. ويقولون أيضاً ان قريتنا خالية من الحراميّة والخولات. فإذا اختفى شئ من القرية كان السارق دائماً دخيلاً مجهولا. أما بعض الرجال الذين يلعبون ببعض ماهم إلاّ فضوليون جنسيون، وسوف يتوب الله عليهم قريباً!

وكان الشباب الثلاثة الذين جاءوا برفقة "العاهرة" هم أيضاً من روّاد المسجد. وكانت الصبية العاهرة هى بنت لعاهرة أخر كانت خادمة لأحد أعيان القرية فغرّر بها، وأصبحت عشيقته السرية، ولكنه سرعان ما طردها بعدما ساءت سمعته وبعد رغبة زعيم عائلته فى ترشيح نفسه لإنتخابات المجلس الموقّر، فلم تجد بعد سوء سمعتها مهنة تربى منها أولادها غير إحتراف الدعارة. وكانت بنتها فى غاية الجمال ولكن أحداً لم يتقدم لزواجها فالكل يعلم أن العرق دساس.

جلست مختبئاً خلف شجرة الموز لمراقبة المشهد. ألقت العاهرة الصغيرة بنفسها على ظهرها وكشفت عن ساقيها وفخذيها ثم خلعت لباسها الداخلى بإحتراف، وراح الرجال الثلاثة يتناوبون إدخال أعضائهم الذكرية فيها.. وكان كل منهم إذا أحسّ برعشة اللذة أخرج قضيبه منها وترك سائله يفيض على بطنها العارية. تكرر المنظر أكثر من مرة حتى بدأت أشعر بالخوف والإشمئزاز. حاولت أن أتجاهل الشبه بين هذا المشهد ومشهد المقابر.

رحت أتساءل لماذا يضعنى القدر دائماً فى مثل هذه المواقف التى تجعلنى أرى إزدواجية أخلاق بنى بلدى بهذه الصورة؟ هل أرى الفساد دائماً لأننى فاسد ولدىّ جاذبية خاصة للفساد؟ أم أن الفساد فى كل مكان لذا فإنى أراه أينما أذهب؟

كنت أظن أن شعورى بالرجولة سيغسل عنى هموم الماضى وعاره. ولكن هذه الرجولة جعلت من الصعب علىّ قبول ما حدث لى فى طفولتى وفى المقابر. فلو كنت قد صرت شاذاً لكنت ربما صرت فخوراً أن أول تجاربى الجنسية كانت فى سن الرابعة. أما الآن فأشعر بصراع فى داخلى بين الرجل الفتىّ الذى يريد أن يلعب دور الفارس وبين الطفل الذى يكره الرجال وفتوتهم. على كل حال فإننى حاولت أن أصنع بخيالى أفضل ما يمكن صنعه من مشهد حقل الموز. تخيلت فيما بعد أننى قابلت العاهرة صدفة فى الحقل فهممت بها ونزعت عنها ثيابها وطرحتها أرضاً رغم ممانعتها فاخذتها عنوةً وإغتصبتها حتى استحلّت عنفى وانخرطت معى فى حريق اللذة المؤلمة.

رحت أضرب العشرات آناء الليل وأطراف النهار.. قياماً وجلوساً وفى مرقدى.. فى البيت وفى المدرسة وفى الحقل وفى الطريق.. كنت أتساءل إذا ما كان كل شباب جيلى لديهم مثل ما لدى من طاقة جنسية. وإذا كان الأمر كذلك فهناك كارثة! والذى زاد الامور تعقيداً أن مدرس الدين فى المدرسة الجديدة قال لنا ان ضرب العشرات يؤدى إلى العقم وسرطان القضيب والإيدز. وكأن ذلك لم يكن رُعباً كافياً فقد روى لنا أحاديث النبى: "من نكح يده فسيأتى يوم القيامة بيده حبلى" وفى حديث آخر "من نكح يده مرتين فكأنما نكح أمه، ومن نكح أمه حُرِّمت عليه الجنة".

"يا نهار اسود!! أمى؟ لأ.. كُلُّه الاّ امى!" قلت فى نفسى.

ومع أننى كنت بالفطرة أرفض أساليب الترهيب البدائية فإن جزءً بداخلى كان لا يزال يتفاعل معها ويصدّقها. كنت كثرما أرى كوابيساً وأرانى فيها أمشى بيدى حبلى أخفيها خلف ظهرى خجلاً.. أو أجرى هارباً من أمى.

كنت أقف كل يوم فى طابور الصباح فى المدرسة وقضيبى منتصب مثل "سيخ حديد 8 لينيه". "تحيا جمهورية مصر العربية!" كان الطلاب يهتفون بينما كنت أتساءل: من يعطينى كيساً من الثلج لأضعه على "بتاعى"؟ كان العلم المصرى يتموّج ويتأرجح فى السماء وأنا لا أرى إلا صدوراً ومؤخرات وأفخاذا. كان ذلك أمراً فى غاية الإحراج، فقد كنا فى مدرسة مختلطة وكنت أخشى أن ترانى إحدى الزميلات.

سمعت عن رجل فى القرية إسمه "حسب الله" كان غريب الأطوار، يقال انه يمارس السحر وانه كان يربط العرسان يوم زفافهم. وبالفعل فقد رأيت كثيراً من الشباب يأتون إلى أبى ليلة عرسهم وهم يبكون ويقولون ان "الموضوع مش ماشى". وكان أبى يعطى لهم بعض التميمات والتعويذات ويسألهم أن يلبسوا ملابسهم بالمقلوب ويسمّوا الله ثم يحاولوا من جديد. وكنت أتساءل لماذا يمارس الشيخ "حسب الله" السحر؟ ما سبب كرهه للناس الذى يجعله يفكر فى حرمان الرجال من أول لذة حقيقية فى حياتهم؟ وقد فكرت فى الذهاب إلى "حسب الله" وأن أطلب منه أن يُبطل فاعلية "البتاع" على الأقل حتى أنتهى من إمتحانات الثانوية العامة، فقد كان هذا العضو يأخذ كل تركيزى ويبدد كل طاقاتى.

وذهبت دون أن أفكر كثيراً إليه وأعطيته مبلغاً من المال وطلبت منه أن يربطنى:

مين يا ابنى اللى قال لك انى بعمل كده؟" قالها وهو يعيد نقودى إلىّ "يا ابنى العملية كلّها نفسية. الشباب" يوم فرحهم بيكونوا واقعين تحت ضغط جامد وعرايسهم صغيرين وبيبقوا خايفين. علشان كده الأمور بتبقى صعبة والشاب من دول ما بيقدرش يعمل حاجة". رحت أتذكّر المناظر المرعبة لأعراس قريتنا حيث ينتظر العشرات من أهل العروس أمام غرفة نوم العروسين حتى يخرج البطل بدماء براءة عروسه. حتى "راسبوتين" نفسه سيصاب بالإرتخاء إذا رأى هذا المنظر. فسألت الشيخ "حسب الله" لماذا يعطى أبى التمائم للشباب "المهزومين" عندما يأتون إليه فقال: "انت ابوك راجل ذكى. وهو عارف ان الناس فى حاجة لشيء ملموس يساعدهم. الكلام لوحدُه أحياناً مش كفاية!".. فسألت الشيخ إن كان يضايقه أن يسميه الناس ساحراً، فقال إن هذا لا يعنى له أى شىء. فالناس فى قريتنا تشعر بالملل وتخترع القصص من لاشىء لأنه ليس هناك قصص كفاية فى البلد..

"أبويا قاللى مرة: البحث عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك . إنتا إيه رأيك؟"-

صَدَق الشيخ عبد المتعال.. بسّ صدق أبوك ممكن يكون كذب ليك، عشان الحقيقة مش حكر على حدّ.."- كلّ واحد بيلاقى حقيقته بمعرفته" ذكرتنى إجابة الشيخ "حسب الله" بكلام المتصوّفين.

أنا بأصلّى كثير وبادعى لربنا، بسّ من غير إجابة. ساعات بحسّ بوجود ربّنا وساعات باحس إنّه مش"- موجود".. كانت هذه هى أول مرة أبوح فيها بشكوكى بهذا الوضوح لأحد.

يا ابنى، انت لسّه صغيّر .لا تيأس من روح الله بهذه السرعة! لقد قال أحد شعراء الصوفية: طرقت على"- باب حديقة الله سبعين سنة فلم يفتح لى.. وطرقت ثم طرقت حتى كلّت يداى، وعندما استدرت لأستريح رأيتنى أقف فى وسط الحديقة. كنت أطرق سبعين سنة على الباب من الداخل. ربنا كبير قوى يا ابنى ورحمته واسعة" قال الشيخ مبتسماً ومودعاً.

كان حديثى مع الشيخ "حسب الله" مشوّقاً للغاية ولكننى رجعت من عنده دون أن أجد حلاً لمشكلة "أبو العرب".

يحكى "مصطفى لطفى المنفلوطى" أنه وقع ذات مرة فى غرام امرأة لم يرها أبداً، لأنها كانت تختبىء دائماً خلف خمارها. وكان يمر بدارها يوماً بعد يوم ويراقبها وهى تجلس فى نافذتها ولكنها حتى فى منزلها لم تكن تزيح خمارها عنها. وراح المنفلوطى يرسم لها صوراً مختلفة فى مخيّلته. راح يتصور جمال عينيها وحسن ابتسامتها. وكان يجلس تحت نافذتها ذات مرة ويراقبها لفترة طويلة وهو يتمنى أن تحنّ عليه بنظرة أو حتى تلاحظ وجوده، وفجأة جاءت إلى النافذة امرأة غير محتجبة وغير جميلة بالمرة ونزعت الخمار عن حبيبته فكانت المفاجأة: لم تكن معبودته امرأة، بل إنها لم تكن حتى كائناً حياً، إنما كانت "قُلّة" أو "زلعة" كبيرة للمياه...
وكانت تسود فى قريتنا أجواء مشابهة. فلم تكن هناك أية فرصة للغرام. فكان الكلام مع الحريم فى الشارع ممنوعاً، وكان الناس إذا قالوا كلمة "شرف" كانوا فى أغلب الأحيان يعنون "عفّة البنات". ولكن الإحتجاب يحمل فى طيّاته أيضاً نوعاً من الإثارة والفضول، فعندما بلغت كان يثيرنى كل ما أراه من جسد المرأة ، لأننى لم أكن أرى الكثير. ولكننا أبناء الصحراء قد حبتنا الطبيعة بخيال واسع يجعل من "الفسيخ" شرباتاً ومن "صبيحة بنت عبده المحروق" "صوفيا لورين"! فعندما كنت أرى أى امرأة فى الشارع كنت أعود إلى المنزل وأنسج من هذا اللقاء السريع أجمل قصة غرام وأسخن ليلة عشق عرفتها البشرية. كنت أصغّرهن وأجمّلهن، ولم تنج من خيالاتى وأحلامى امرأة واحدة وقعت عليها عيناى إلّا من كانت من المحارم أو من فاقت الخمسين.
وكان من غير المألوف فى المدرسة أيضاً أن يتكلم طالب مع طالبة، فقد كان الإختلاط فى الفصل منذ دخول المدرسة الإعدادية ممنوعاً. وكنا نحن معشر الأولاد نواجه مشكلتين: أولهما أن البنات تنمو أسرع منا، وفى حالتى كان الأمر أشد تعقيداً، فقد كنت أصغر من أقرانى بعامين. والمشكلة الثانية: المدرسون الذين كان الواحد منهم ينتظر حتى تقارب إحدى البنات الجميلات سن البلوغ فيتقدم لخطبتها. كانت أى طالبة حسنة المنظر يتم حجزها من مدرّسها أو أحد أبناء عمومتها بمجرد أول إنتفاخ فى موضع ثدييها حتى ولو لم يكن أكبر من مكان قرصة البعوضة. بعدها كانت البنت تختفى من المدرسة بصورة نهائية، وكنّا نراها بعد أعوام للمرة الأولى تحمل طفلاً على ذراعها فى أحد الشوارع.. وكان ذلك ما حدث بالفعل لأختاى فقد تزوجت كل منهما بأحد المدرسين وهى فى عمر السادسة عشر. وقد أصبحت أختى الكبرى "صباح" جدّة وهى فى الثامنة والثلاثين.

***

لا أستطيع أن أنسى تلك الجمعة بالذات. إذ رأيت آلاف من البشر يومها يخرّون سجّداً أمام أبى فى المسجد وهو واقف بكبرياء فوق منبره ينظر إليهم وكأنّهم صاروا عبيداً له. فكان قد قرأ أثناء الخطبة إحدى آيات السجود وأمر المصلين أن يسجدوا لله فسجدوا جميعاً وظل هو واقفاً حيث كان. لقد كان مشهداً أسطورياً فرعونياً بالنسبة لى. شعرت بجبروت أبى إلى أقصى الحدود وشعرت بالخوف الشديد. كان أبى مشهوراً بخطبه الرنانة التى تمس الوجدان وتسيل دموع المؤمنين. لم يكن فى القرية كلها رجل يعرف عن الناس ما كان يعرف.. كان يعرف أفكار الناس وأسرارهم.. أحلامهم ومخاوفهم. لم يكن فقط إمام المسجد وإنما قاضياً يفضّ بين المتنازعين وطبيباً يصف الدواء ويعطى التعويذات، كما كان مفسراً للأحلام. كان كل شىء: الغضوب الحنون.. الجاد الساخر.. الظالم المنصف.. الضارب لزوجته وولده والرفيق بالحيوان. كان الناس يحترمونه رغم تناقضاته.. مثلى تماماً. فقد كان دائماً مثلى الأعلى.. لم أر فى حياتى كلها رجلاً أثار إنبهارى مثله.
سافرت أمى ذات مرة إلى القاهرة لزيارة أخواتها هناك، وكانت علاقتها بهن قد تحسنت كثيراً بعد وفاة جدى. وقد جاء فى نفس اليوم أحد مقرئى القرآن من القرية المجاورة لزيارة أبى. وجلس الإثنان فى غرفة الضيوف وراحا يدخنان المعسّل ويشاهدان التليفزيون. كانت هذه هى أوّل مرة أرى أبى يشاهد فيها التليفزيون، فقد سمعته مرة يسميه "المفسديون" من فوق المنبر. كما كنت أتضجّر كثيراً عندما كنت أراه يدخن "المعسّل" من الجوزة فهذه خصلة الرعاع والبلطجية ولا تليق بإمام المسجد. سمعتهما يضحكان بصوت عال فساقنى فضولى وتسللت أنصت من بعيد لحديثهما دون أن يرانى أحد. كانا يشاهدان برنامج "الموسيقى العربية".
أيستمع أبى لمزمار الشيطان؟ أيشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله؟
-"الحِتّه دى جاية ليك انت مخصوص يا مولانا . الصنف ده ماعدش منّه فى السوق خلاص" قال الضيف وهو يسلم أبى شيئاً ملفوفاً فى ورقة "سوليفان"
-"وبكام دى ان شاء الله؟" سأل أبى..
-"بسّ دوق انت الأول.. واللى تجيبه انا تحت أمرك!" قال الضيف فى تواضع.
بدأت الشكوك تعبث فى صدرى. وبعد قليل قطعت رائحة الدخان الأزرق الكثيف الخارج من غرفة الضيوف "الشك باليقين. فقد كانت رائحة معسل "مغمّس
حشيش يا شيخ الجامع؟ هل تتعاطى المخدّرات يا أبى؟" قلت لنفسى وقلبى تملأه الحسرة."
"شايف يا مولانا النسوان بتوع الموسيقى العربية دول الواحدة فيهم أحلى من أختها. والّا شايف طقم الرقابى بتوعهم ده؟" قال الضيف فراح أبى يضحك ضحكاً ماجناً لا يصدر إلا من "عُرزجى" محترف. وهنا تبددت آخر شكوكى. كان أبى مسطولاً. وهكذا عثرت على الإجابة الأخيرة لسرّ إفلاسه.
وقفت خارج غرفة الضيوف أتصبب عرقاً يملأنى الخزى والألم. سقط صنم أبى أمام عينىّ وكأنه هرم الجيزة الأعظم ينهار أمام عيون من بنوه بأيديهم. أبى.. قدوتى ومثلى الأعلى.. حافظ كتاب الله فى صدره.. الواعظ.. والحاكم والناهى بأمر الله ليس إلا نفساً ضعيفة مشوّهة مليئة بالآثام. من كسرك أو جرحك يا أبى

لتكون هكذا؟ لماذا تشعر بالوحدة؟ لماذا تهرب إلى دنيا الدخان الازرق؟ وأين إلهك الذى كرّست حياتك لحفظ كتابه وتعاليمه؟

هربت إلى غرفتى لأننى كنت لا أريد أن يرى أنى أراه فى هذا الموقف المهين..

وفى يوم الجمعة التالية ذهبت معه كالمعتاد للصلاة. أحسست أن كل خطوة تقربنى الى المسجد كانت فى الوقت نفسه تبعدنى عن الله. جلست بين صفوف المصلين فى اضطراب. صعد أبى بلباسه الأنيق وعمامته الأزهرية وخطواته الواثقة المعهودة فوق المنبر فبدأت أشعر بالغثيان. فلما بدأ بحمد الله والثناء على رسوله أحسست بشىء بداخلى يدفعنى خارج المسجد، فأخذت حذائى وخرجت هارباً. رحت أسير فى الشارع الخالى من البشر تماماً وصوت أبى لا يزال يطاردنى من خلال مكبرات الصوت. وقبل ان أصل إلى البيت إستوقفنى مشهد رأيته كثيراً فى القرية ولكنه لم يجذب إنتباهى إلا هذه المرّة: رأيت مجموعة من الأطفال تضرب بعنف كلبين إلتصقا ببعضهما أثناء عملية المعاشرة الجنسية. راح بعض الأطفال يضرب الكلبين بالعصا والبعض يرميهم بالحجارة.. نبح الكلبان باستغاثة.. واصل الأطفال رجمهم وضربهم. غريبٌ شأن هذه الكلاب، فهى تمارس غريزتها فى أى مكان وفى أى وقت كلّما تمكّنت منها الرغبة. وهم يعلمون أنهم فى كل مرة سيلتصقون وربما سيُضربون، ولكنهم لا يعبأون بشىء ولا يفكرون فى شىء. أذَهَب الحياء منهم فيمارسوا لذتهم فى وسط الشارع؟ وفى يوم الجمعة؟ ألا يسمعون ما يصيح به أبى فى المسجد لتوّه؟: يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد؟

وعجيب أمر هؤلاء الأطفال أيضاً. أيضربون الكلاب رغبةً فى تخليصهم من إلتصاقهم؟ أم أنهم يحسدونهم على حريتهم؟ أم أنها فقط حلقة العنف الأبدية التى وصلت للأطفال من آبائهم ويجب أن يوصلوها لمن هم دونهم؟

واصلت طريقى نحو المنزل ففوجئت أمى بوصولى مبكّراً للمنزل "إيه.. هى الصلا خلصت؟" سألتنى أمى وهى مشغولة بالطبيخ.

"أنا صلاتى خلصت!" أجبتها باختصار وصعدت فوق السطح. وكنت على يقين أن أمى لن تبوح بذلك لأبى، فقد أصبحت تفهم نظام قريتنا وتعلم أن أفضل الطرق للعيش هناك هى مبدأ "ولا من شاف ولا من درى" أو مبدأ إخفاء قاذورات المنزل تحت السجّادة..

كان يوماً بلا ريح. لم تتحرك ورقة فوق غصنها. رحت أجوب بعيونى الحقول المحيطة بالمنزل وأراقب النخل العجوز المتحجّر. ثم جال بى النظر بين البيوت الصغيرة المجاورة. وفجأة رأيت منظراً ظننته فى بادىء الأمر من وحى خيالى أو من تأثير حرارة الشمس. ولقد هالنى ما رأيت.. كان هذا المنظر هو آخر ما كنت أتوقعه فى مثل يوم كهذا وفى مثل وقت كهذا: إمرأة عارية تماماً!! كانت تجلس للإستحمام فى طشت ألومنيوم فى دهليز بيتها المكشوف وهى تدير ظهرها لى. فركت عينى مراراً لأتأكد أنه لم يكن حلماً. أمعنت النظر جيداً لتحديد موقع بيتها بالضبط لمعرفة أى جيراننا كانت. لابد أنها "أنهـار" زوجة "حسن ابو عجمى"، وهى ليست من قريتنا أصلاً. أتذكّرها جيداً. فهى مثلى صليبية الهوية، فعيناها خضراوتان جميلتان وفمها مرسوم كالعنقود. وبالطبع كانت قد وقفت مراراً كـ "موديل" لخيالاتى أثناء ضرب العشرات قبل أن أسمع ما قاله مدرس الدين..

وكان زوجها رجلاً محترماً جداً. وكان قد كافح كثيراً من أجل الزواج منها، فقد كانت مخطوبة لرجل آخر من القاهرة. وعندما قبل أهلها تزويجها بـ "حسن" صار أسعد مخلوق فى الوجود وراح يسير فى شوارع القرية وهو يغنى لأنهار، حتى ظن الناس أن جمال زوجته قد سلب عقله. ولكنه مالبث أن تزوج بها حتى تركها ورحل إلى السعودية بعقد عمل أشبه بصكوك بيع العبيد..

كان كل الرجال فى المسجد وكل النساء مشغولات بطهى الغذاء، فكانت "أنهار" تشعر بالأمان وهى عارية فى دهليزها. لم تكن أبداً تتخيل أنها فى هذه اللحظة كانت تحت المراقبة من رجل إنتفخ قضيبه هيجاناً ولذّة. كان جسدها جميلاً جداً وكان ذلك نادراً بين النساء المتزوجات. فقد كانت معظم النساء يُصبن بالسِمنة والترهّل بعد الزواج، وكأنّ عقد الزواج يعطى لهن تصريحا بالإنفجار!

جلست على كرسى أعدّه أخى الأكبر تحت مظلة فوق السطح ورحت أراقب جميلة جميلات القرية وهى تغسل جسدها الجميل. تسللت يدى بعفوية إلى "عَضَلة الحب" المنتصبة فى سروالى وراحت تعبث بها. شعرت باللذة المحبوسة فى قضيبى منذ شهور. معذرةً يا أمى!! الأمر ليس بيدى! يدٌ حبلى؟.. "أنهار" تستحق هذه المخاطرة! لقد كان أمراً هزلياً أسطورياً أن أجلس بقضيب منتصب أراقب امرأة عارية وفى ذات الوقت أسمع صوت أبى يخطب الجمعة. فسق وقرآن.. وعظ وهيجان فى آن واحد!

"إن للمتقين مفازاً. حدائق وأعناباً".. بعدما فرغ أبى من حديث الجحيم بدأ فى سرد محاسن الجنة ونعيمها. فالناس فى بلادنا يحبون التوازن بين الترهيب والترغيب، وأبى يفهم طبائع البشر جيدا. والقرآن حريص على هذا التوازن فقد وردت كلمة "جنة" نفس عدد كلمة "نار" فى كتاب الله..

كنت أريد أن أسدّ أُذناى حتى لا أسمع وعظ أبى، ولكن يداى كانتا منشغلتان بما هو أهم. دعنى وشأنى يا أبى.. إحكِ للجائعين عن ثمار الجنة وللمحرومين عن حورياتها، ودعنى هنا أستمتع بجنة من تحتها "أنهار"!! أىّ خطيئة أرتكب؟ وأى رجل سيتخلى طائعاً عن مراقبة مثل هذه المرأة وهى عارية؟ إن كل البشر متلصصون ينتظرون فقط فرصة كهذه!

سمعت أبى وهو يختتم خطبته الطويلة فنزلت من فوق السطح على مضض وأنهيت فى الحمّام ما لم أستطع إنهاءه فوق السطح.. لقد كان انفجاراً منوياً مدوّياً. ثم أعدت الكَرَّة مرتين حتى الإرهاق التام، ثم اغتسلت من الجنابة وذهبت لتأدية صلاة الظهر قضاءً!!

وفى يوم الجمعة التالية تسللت من المسجد من جديد عند بداية الخطبة وذهبت للمنزل وأردت الصعود الى سطحه فاستوقفتنى أمى:

-"إنت إيه حكايتك بالظبط؟ انت ما بتصليش فى الجامع ليه؟ إيه اللى جرالك يا وَله؟ وفارق لى شعرك م الجنب زى عبد الحليم حافظ ليه كده؟"

-"سيبينى فى حالى الله يرضى عليكى يا امّه وروحى كملى طبيخ!" قلت لها على غير صبر وأنا أسرع الخطى للسلم. كل ما كان يشغل رأسى هو السؤال: هل تستحم "أنهار" فى دهليزها اليوم ايضاً؟ صعدت إلى السطح

ونظرت إلى الدهليز. مدد يا سيدى موسى المغربى!! كانت ترغّى شعرها بالصابون ثم وقفت لتصب الماء على نفسها. كانت أول مرة أرى جسدها العارى كلّه من الخلف.. تقولش غزال!! شعر إيه وفخاد إيه! ومؤخرتها الجميلة كانت قد تكوّرت بحرفنة. كان الماء ينساب من فوق شعرها بالصابون على ظهرها وكانت لمساتها لجسدها توحى عن حبها له وشوقها للّمس!

كانت"أنهار" تنتمى إلى ذلك النوع من النساء الذى يعشقه الشعراء: ساذجة، طبيعية، تحليها إبتسامة طفولية أبدية.. دانية نائية.. داعية نافرة.. بسيطة وخطيرة. كنت أتمنى أن أقترب منها قدر المستطاع.. أن أشمّ جسدها وأسبح عاريا معها فى النيل ثم نجرى عاريين معاً فى الحقول.. ثم أقبّلها وألقى بنفسى فى جحيمها. أدخلت يدى فى فتحة الجلباب اليسرى وبدأت فى العبث بالثعبان الاقرع الغاضب فى سروالى فى حين وقف "موديل" حىّ من لحم ودم أمامى.. كان صوت أبى لا يزال يدوّى فى السماء ولكننى لم أكن أسمع إلاّ بلبطة "أنهار" فى طشتها وأتخيلها تتنهَّد لذّةً وأنا أغوص بداخلها.

وفجأة وبدون سابق إنذار إستدارت "أنهار" ونظرت إلىّ مباشرة وكأنها أحست بفطرتها بما كان يدور بداخلى. لم أجد وقتاً لمراقبة ثدييها فقد قفزت كحمار وحشى يفر من الأسد ونزلت درجات السلم فى أربع قفزات، وأختبأت فى حجرتى.

يا ويلى! لابد أنها قد رأت وفهمت ما كنت أفعل! إنها تعرف أمى جيداً ولابد أنها ستأتى لتشتكى لها. هذا جزاء من يهرب من صلاة الجمعة لمراقبة الحريم! تذكرت أغنية يحبها الناس فى القرية تقول "ياللى بتمشى ورا النسوان دى الآخرة هتبقى طين!"

"يا أرحم الراحمين إرحمنا يارب! يا إلهى لو أنقذتنى من هذا المأزق فلن أترك فرضاً ما حييت ولن أكرر ما فعلت ابداً" رحت أتوسّل إلى الله..

مرّ يومان دون أن يفتح أحد معى الموضوع فظننت أن المسألة مرّت بدون عواقب. وفى يوم الأحد بعد صلاة العشاء إصطفت بعض النساء أمام بيتنا لإستشارة أبى فى أمور فقهية، وكان اليوم المخصص للحريم. وقد كان سكان القرية يعتادون زيارة أبى كل يوم لسؤاله عن رأى الدين فى الزرع والحرث وكيفية دخول المرحاض ومسائل الطهارة وكيفية معاشرة أزواجهم ومسائل الميراث ورد يمين الطلاق أو أخذ تعويذات لفك السحر. وكنت دائماً أجلس إلى جواره لأتعلم أصول الإفتاء. وفجأة دخلت "أنهار" الغرفة وقبَّلت يد أبى ثم جلست على الأرض.

"خبر اسود ومنيّل! يا أرض انشقى وابلعينى!" تبلل جبينى عرقاً وبدأ قلبى فى الخفقان الشديد مثل ماتور ماكينة المياه. جلست "أنهار" فى هدوء وتجنَّبتْ النظر إلىّ وبدأت فى سرد قصتها: "يا مولانا أنا شُفت حلم غريب امبارح ونفسى تفسّرهولى: حلمت إنى بعوم فى بحر كبير مالوش آخر، وبعدين سمكة كبيرة جت وعضّتنى وانا بعوم" قالت بصوت منخفض.

-"ولمّا السمكة عضتك نزل منك دم؟ شفتى دمّك بعنيكى يعنى؟" سأل أبى باحتراف وهو يتكىء على أريكته.

-" لأ.. بس لمّا طلعت من الميّه كانت بطنى مفتوحة وكنت شايفة مصارينى" ردت أنهار.

-"بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله. السمكة فى الحلم معناها رزق ربنا هيبعتهولك: إمّا طفل جايلك فى الطريق إن شاء الله أو جوزك ربنا حيكرمه فى السعودية. العوم فى بحر فى الحلم معناه تخبّط فى الحياة ورغبة فى المعصية. البطن المفتوحة معناها فى الغالب مولد طفل. بس المصارين اللى طالعة برّة البطن معناها خيانة سرّ. ما تآمنيش كل من هب ودب على سرّك يا بنتى.. والله أعلم!" جاءت إجابة أبى بإختصار وتمكن.

لم أكن أدرى إذا ما كان أبى عالماً بشئون الأحلام أم لا، ولكننى كنت أعلم أنه عالم نفسى وخبير إجتماعى على أعلى المستويات. كان يفهم نقاط ضعف الناس وكان يعلم ما يريدون سماعه وكيف يصل لقلوبهم. كانت لديه موهبة عجيبة أن يقول ما يريد فى إيجاز مفيد..

لم يكن أحد يعلم أن هذا الرجل الذى يأتمنه الناس على أسرارهم وحياتهم لم يكن يقوى على حمل ثقل حياته بنفسه ويهرب من أعباء روحه إلى دنيا المخدرات. ولكن أبى كان يفصل دائماً بين عمله ولذّته. الشُغل شغل والحشيش حشيش.. وساعة لربك وساعة لقلبك!

-"انا عندى كمان سؤال يا مولانا" أرادت "أنهار" أن تستكمل إستشارة أبى..

-"لا يا بنتى كده كفاية النهارده. فيه ناس كتير مستنية برّة" رد أبى باحتراف. قبلت أنهار يد أبى وانصرفت، وأنا أتعجب لما قالت. هل رأت حلماً بالفعل أم أن هذه كانت فقط مجرد لعبة؟ يبدو أنها لم تكن على هذه الدرجة من السذاجة مثلما كنت أظن.

وسرعان ما نسيت وعدى لله وخرجت من المسجد فى الجمعة التالية بعدما بدأ أبى خطبته بالإفتتاحية المعتادة "الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى" وفى طريقى للمنزل وقفت أمام بيت أنهار. لابد أنها تجلس الآن عارية وتدعك جسدها الجميل. أنا كمان عايز أدعك!! فكّرت أن أطرق بابها.. ثم قلت لنفسى: لماذا الطرق؟ لماذا لا أفتح الباب بعنف وأفاجئها فى طشتها فأفتحها هى أيضاً بعنف؟ لماذا لا أدخل وأعوّضها عن الحرمان الذى خلّفه غياب زوجها وأعوض نفسى عن حرمان عمرى كله؟ وقفت متحجراً أمام بابها تداعب اللذة شجاعتى وتداعب الأفكار منطقى، وفى النهاية أدّى خوفى من العواقب أن أواصل السير للبيت وأصعد فوق السطح.

وكانت "أنهار" تجلس كعادتها فى الطشت ولكنها كانت هذه المرة تجلس فى مواجهة منزلنا وكأنها كانت تنتظرنى.

"..وماله يا عسل.. خلّى اللعب يبقى عـ المكشوف!"

أخرجت ثعبانى من جرابه وبدأت فى دعكه أمام عينيها. كانت تنظر إلىّ على استحياء وهى تحك ثديها بليفة ببطء شديد. نسيت صوت أبى ونسيت الأرانب فى الحظيرة خلفى ورحت أحكّ عصاتى السحرية حتى انفجر سائل الحياة منى وراح يسيل على الأرض حتى ظننت انه لن يتوقف. وكانت "أنهار" تنظر إلىّ من حين لآخر بنظرة منتصر. أخفيت آثار قطرات لذتى من على الأرض ومن على جلبابى، والقيت بقبلة هوائية إلى أنهار التى

ردّت بما يشبه القبلة ثم عضت شفاهها الحمراء واستدارت قليلاً من فرط خجلها. قمت بأداء الغسل بعد نزولى وغيّرت ملابسى وصلّيت الظهر فى غرفتى وحدى. أصبحت الصلاة شيئاً لا أستطيع التخلص منه حتى لو كانت تصرفاتى ومعتقداتى تخالف ذلك..

إستمر الأمر كذلك لعدة أسابيع.. كان يوم الجمعة هو اليوم الذى أعيش من أجله، وكانت أنهار دائماً هناك حسب الموعد.. كانت دائماً جميلة وكان مدفعى دائماً جاهزاً لإطلاق قذائفه..

وكنت فى طريق عودتى من المدرسة ذات يوم فرأيتها تجلس على عتبة دارها فألقيت عليها السلام بإبتسامة خبيثة، فردت بإبتسامة أشدّ خبثاً منها:

-"يسلّمك!"

وعندما واصلت المسير استوقفتنى :

-"يا أستاذ شاكر.. ممكن يا خويا لو سمحت تكتب لى جواب لجوزي؟"

كانت أنهار هى أول مخلوق يطلق علىّ لقب "أستاذ".

-"دلوقتى؟" سألتها متعجباً.

-"أيوه يا خويا لو سمحت!"

إنتهزت فرصة أن احداً لم يكن فى الشارع ودخلت إلى بيتها.

-"أعمل لك شاى؟" سألت برقّة.

-"لا.. شكراً" أجبت بإختصار.

-"يبقى هاعمل لك لاموناته" قالتها وذهبت للمطبخ قبل أن تسمع إجابتى.

حتى من تحت ملابسها بدت مؤخرتها جميلة.

وعادت بعد فترة بكوب به عصير ليمون طازج وضعته على منضدة صغيرة أمامى وجلست بجوارى على كنبة غير مريحة.

شعرت بإضطراب شديد وبدأت رعشة غريبة تدبّ فى جسدى. إنتفضت واقفاً وأخبرتها أني سأذهب للبيت لإحضار ورق أبيض للجوابات. فأمسكت بيدى وقالت "انا اشتريت ورق وقلم" وأخرجت بيدها الأخرى ورق مسطّر وقلم فرنساوى من تحت مرتبة الكنبة وكأنها كانت تخطط لكل شىء بدقة. حتى بعدما جلست من جديد كانت لا تزال تمسك بيدى.. دافئة وطرية.. زاد إضطرابى وهيجانى فحاولت تغيير الموضوع :

-"هُوّا انتى مبتعرفيش تقرى وتكتبى؟"

-"بعرف على قدى . بس مش زيّك يعنى!"

تركت يدى أخيراً فرحت أكتب لها ما تملى علىّ :

"زوجى الحبيب.. بعد تحية الإسلام.. أسأل عن صحتك وأخبارك وأرجو أن تكون انت وكل من معاك فى الغربة بصحة وأحسن حال.. أنا كويسة والحمد لله ولا ينقصنى سوى رؤياك الغالية التى هى غاية المراد من رب العباد.. إسمع يا حسن ما تزعلشى منى يا خويا. انت قلت انك هتيجى قبل رمضان وما جيتش. قلت هتحصَّل العيد وبرضه ما جيتش واهو العيد الأولانى فات والعيد التانى قرَّب (.....) 15 شهر يا حسن؟ انا بصراحة تعبت.. تعبت قوى. شوف لك صرفة يا خويا.. انا بقيت اخاف انام لوحدى فى السرير دا!"

كنت أكتب ما تقوله وأنا أشعر بالرسائل الخفية بين سطور رسالتها ومن خلال صوتها المغرى. لم يخف عليها أن قضيبى قد تمدد فى بنطلونى فقالت لى بابتسامة خبيثة وهى تنظر الى إنتفاخة هيجانى "إشرب! .. اللمون بيهدى الأعصاب!" قالتها وعضّت على شفاهها الجميلة. نظرت إلى عينيها الخضراوتين وأطلت النظر.

لم يكن جسدى ولا عقلى قادرين على تحمل كل هذا القدر من الإثارة.. بدأت أشعر بالدوران.. إختلط الواقع بالخيال فى رأسى.. أمسكت بها من خلف عنقها وجذبتها إلىّ بقوة ثم قبّلتها وعضضت شفاهها، ومزّقت جيب صدرها ورحت أعصر ثدييها بيدى وأقبلهما وأمصّهما، ثم دفعتها إلى غرفة نومها ونزعت ما تبقّى من ثيابها وألقيت بها فوق بطنها على السرير وارتميت عليها ورحت أقبّل ظهرها وأعضّ مؤخرتها، ثم أدخلت خرطوم لذّتى فى دار ولادتها الساخنة وصرت أرتجّ فوقها وهى تصرخ ألماً... وصرت أرتجّ فوقها وهى تصرخ لذّةً.....

كل ذلك حدث فقط فى خيالات رأسى.. كل ذلك نبع فقط من أفكار حرمانى. أفقت من خيالاتى وسلّمت أنهار الخطاب الذى كتبت وخرجت هارباً من بيتها بدون وداع.

"جبان.. غبى!" كنت أقول لنفسى وأنا أسير فى الشارع مدركاً أن فرصةً كهذه لن تتكرر مرة أخرى.

وكنت من فرط شعورى بالخجل لم أصعد إلى سطح البيت يوم الجمعة التى تلت الواقعة ثم تغيَّبت هى بعد أسبوعين.. وقد صادفتها مرة بعد عدة أسابيع وهى عارية يوم الجمعة، ولكن لعبة التلصص قد غاب عنها سحرها المألوف. فقد عجزت عن فرقعة البالون فى الوقت المناسب عندما كانت مليئا بالهواء.. وقد تسرّب الهواء تدريجياً الآن فلا جدوى ولا صوت للفرقعة!!

وبعد شهور عاد "حسن ابو عجمى" زوج أنهار من السعودية وبنا الدور الثانى لبيته وغطّى بذلك الفناء الذى كنت أراقب فيه زوجته.. أول فناء داعب رجولتى.. آخر ابواب الرحمة.. نافذتى الوحيدة الى الجنة..

لعن الله "حسن ابو عجمى" ... آميـــــــن !!!

وداعاً أيها الأب

بلغت السادسة عشرة. كانت إمتحانات الثانوية العامة على الأبواب. لم أتم حفظ القرآن بعد، بل قد نسيت بعض الأجزاء التى حفظتها منه. ولكنى حفظت سورتى البقرة وآل عمران من باب حسن النية تجاه أبى. أصبح أبى مدركا أننى لن أقدر على حمل هذه المسؤولية الكبيرة ولكنه أثنى علىَّ بعدما تلوت عليه أطول سور القرآن قائلا "لا يحفظ البقرة وآل عمران منافق!" ولم يكن أبى يعلم أننى قد صرت من أشد أهل القرية نفاقاً..
فكنت لا أزال أخفى عليه نواياى بدراسة اللغات الأجنبية بدلاً من أصول الدين. لم يكن يعلم أننى لست ذلك الشاب الوديع ذا الحياء الذى كان يظننى. لم يكن يعلم أننى قد ودَّعت القرية من داخلى إلى الأبد. ولكن كانت تواجهنى مشكلة أخرى: فقد كان على أن أجتاز نتيجه 85% فى إمتحانات الثانوية كى أتمكن من دخول كلية الألسن فى القاهرة. وكنت قد أهملت الدراسة فى النصف الأول من العام الدراسى وكان علىّ بذل مجهود رهيب لتعويض ما فات. ولكن حفظ القرأن خلال كل هذه السنوات الماضية قد زاد ذهنى نشاطاً وذاكرتى قوةً، مما جعل قدرتى على تعلم اللغة العربية واللغتين الإنجليزية والفرنسية مهمة سهلة. فقد كنت أحفظ القاموس بالصفحات وكنت أذهب إلى مكتبة المدرسة المتواضعة وأبحث عن أية كتب باللغات الأجنبية وأقرأها مهما كانت تفاهتها.
وذات مره عثرت على كتاب غيّر مسار فكرى تماماً. كان كتاب "الدكتور فاوستوس" وهو رواية مسرحيه لـ "كريستوفر مارلو" الذى عاش فى زمن "شكسبير". كانت الرواية تدور حول عالم لاهوتى رفض حدوده البشرية وأراد أن يطير خلفها فباع روحه للشيطان فى مقابل 24 سنه بلا قيود. بهرتنى فكرة التمرد على القيود البشرية، كما بهرنى كل ما قرأت من كتاب الغرب. رحت اقرأ ترجمات لـ "شكسبير" و"كيتس" و"فيكتور هوجو" و"تشارلز ديكنز". إطَّلعت فى شهور معدودة على لمحة من الفكر الأوروبى الذى يتمرد على كل سلطة مهما كانت قدسيتها ويضع الإنسان وفرديته مركزاً للكون. لاحظت شبهاً كبيرا بين ما كنت أفكر فيه بالفطرة وما كان يكتب هؤلاء. هل من الممكن بالفعل أننى من أصل صليبى، ولهذا أميل إلى هذه الفردية وهذا التمرد؟ وهل العملية مرتبطة فقط بالجينات الوراثية؟: اليهود أذكياء وخبثاء بالفطرة، والعرب "فلاتية" ومتناحرون ولا يتفقون بالوراثة؟ اليابانيون نشيطون ومأدّبون.. الأفارقة كسالى وسلبيون والأوروبيون يفكرون ويحللون ويستغلّون؟ ما هو ذلك الشئ الذى يربطنى بهؤلاء الأوروبيين الذين لا يعرفوننى ولا أعرفهم؟ أهو إحترام الإنسان والفكر البشرى؟ أم رفض أى سلطة مغرورة؟ أم عدم إكتراثهم بمن هو دونهم؟ كنت أريد أن أتعلم لغاتهم.. كل لغة جديدة نافذة جديدة على العالم.. كل لغة محطة هروب!
لم أكن أدرى كيف سأواجه أبى بقرارى. لقد كنت الإستثمار الأكبر فى حياته. لقد فقد كل شئ وصرت أنا آخر أمل له. ماذا سأقول له؟ : سامحنى يا أبى.. فأنا لا أستطيع أن أكون مجرد إعتذار لحياتك؟ لا أستطيع أن أكون مجرد تعويض عمّا لا تستطيع أنت تحقيقه. فعالمك غيرعالمى.. وحياتك غير حياتى. لا أستطيع أن أسكن بيت الأمس بعد ذلك، فقد صار مليئاً بالفئران. معذرةً يا أبى فأنا لا أستطيع أن أضحى بحياتى من أجل "نظامك" الذى رحت تدافع عنه حتى بعد أن كسرك. كنت أتمنى أن أكون قادراً على مخادعة نفسى مثلما خادعتك كل هذه السنوات. ولكننى لا أستطيع أن أتحمل هذا الكذب والنفاق بعد اليوم. لا أريد أن يكرر القدر نفسه مرة أخرى: إمامٌ آخر عذبٌ كلامه فارغةٌ أحلامه.. قوىٌّ أمام الناس مكسورٌ فى داخله. لقد صرت أنت عجوزاً وضعيفاً فلا تقدر على تغيير شئ.. ومازلت أنا صغيراً ومكدوراً فلا أستطيع التجاهل والإصطناع وكأنّ شيئا لم يكن. لقد ظلمنى "نظامك" الذى تحمى وغرس المرارة فى حلقى فلن أستطيع حمايته.. لا.. لا أستطيع أن أكون حلمك.. لا أستطيع أن أكون مثلك.. لا أستطيع أن أتحدث للناس عن إله لا يتحدث إلىّ.. لا أستطيع أن أفسَّر للناس أحلامهم وحلمى أنا مخنوق.. لقد قررت الهروب من عالمك يا أبى وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.. كنت جاهزاً ليوم المواجهة الكبرى مع أبى.
كانت إمتحانات الثانوية صعبة، ولكننى حصلت على 86.5 %. لم أكن أفضل طلاب المدرسة بل حصلت على المركز الثانى، ولكننى كنت الأفضل فى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية مما أهّلنى لكلية الألسن. ولكن كان علىّ أن أخبر أبى بمخططاتى قبل تقديم أوراقى للجامعة. كنت أعدّ فى رأسى عشرات السيناريوهات لمواجهتى معه. كنت أجهز حججى وأعمل البروفات كيف سأدافع عن قراراتى، وكنت أتوقع من أبى أى رد فعل إلّا الذى قال لى:
"إعمل اللى انت عايزُه! دى حياتك وانت حُرّ فيها. انا مش حعيش لك فى قمقم!" قال أبى فى هدوء فظيع.
ماذا دها أبى؟ إما أن قرارى قد أصابه بصدمة كبيرة فلم يجد رداً اخراً، أو أنه قد دخَّن لتوه سيجارة مغمسة، ولم يرد أن يعكر دماغه المتكلفة. كنت أنتظر شجاراً كبيراً أو محاكمة أترافع فيها وأدافع عن قرارى. أصابنى رد فعله باليأس وخيبة الأمل. كنت أستعد للمعركه الكبرى طوال السنين المنصرمة ولكنه فرَّ من الميدان فى يوم الفصل كالمعتاد. كنت أظن أنى مشروع حياته الوحيد، فكيف يرد بهذا القدر من اللامبالاة؟
وعلى الرغم من أننى كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، إلا أن الوداع من قريتى كان صعباً. وبرغم كل ذكرياتى المؤلمة فى هذا المكان فإننى قد إعتدت على الحياة هناك.. لم يودعنى أحد.. فقط جاء أخى الكبير إلى وقال لى بعطف "ربنا يوفقك! انت ربنا رحمك علشان هاتسيب البلد بنت ميتين الكلب دى". كان أخى فخورا بنجاحى فى المدرسة ويتوقع لى مستقبلا مشرقا فى القاهرة. كانت أمى حزينة ليس فقط بسبب فراقى ولكن لأن أبى فقد كل أملاكه وأصبح غير قادر على تحمل مصاريف دراستى فى القاهرة . "ماتحمليش هم يا مَّا.. أنا هاتصرَّف!" قلت لأهدأ أمى على الرغم من أننى لم أكن أعلم كيف سأتصرف وأين سأعيش فى بلد المقابر والمآذن.
***
انتابنى شعور غريب بالغربة والخوف منذ أن ظهرت لى أول أبنية القاهرة خلف الشابورة. كانت أول مرة أدخل فيها القاهرة منذ أن جاء كل طلاب مدرستى ذات مرة بالأمر محمَّلين على سيارة نقل فى عزّ البرد ليهتفوا

للرئيس أمام مبنى محافظة الجيزة "بالروح بالدم"، ولكن دخولى القاهرة هذه المرة كان مثقلاً بذكريات الطفولة القاسية والخوف من مستقبل مجهول فى مدينة لا تعرف الرحمة. شعرت بأننى منفى مطرود من قريتى الخضراء الصغيرة إلى مدينة الأحجار والعجلات. ركود.. ضوضاء.. إرتباك.. ضباب.. ووقت محكوم عليه بالضياع: كل ذلك تراكم فوق بعضه عبر السنين وتحجَّر وأصبح الحقيقة الوحيدة فى هذه المدينة. يسمَّون عاصمة بلادنا "القاهرة" وكنت أسميها "المقهورة".. ولكنها بالفعل كانت قاهرة، فقد قهرت أبنائها ودفنتهم تحت مقابرها. كنت أسير فى شوارعها ليلاً فتقهرنى أضوائها النيون الباردة ويقهرنى الزحام وعادم السيارات. كنت أمشى فى أول أيامى فى القاهرة فوق كوبرى "قصر النيل" وأراقب الأسدين القابعين عند أول الكوبرى وقد غطاهما تراب عمره عشرات السنين.. رحت أتخيل نفسى أفك الأسدين البائسين من أسرهما وأكسر صمتهما وأنزل بهما إلى النيل الذى لا يبعد عنهما سوى بعض الأمتار فأغسل عنهما غبار القهر وأغسل عن نفسى مرارة السنين... ولكننى كنت لا أزال أتذكر وعدى لأبى ألا أمس مياة النيل بجسدى. رحت أجوب شوارع وسط المدينة وكنت على مسافة أمتار معدودة من الشارع الذى كان يقطن فيه جدى ، ولكننى لم أقو على دخوله.
رحت أراقب الطالبات فى كلية الألسن ومعظمهن كاسيات عاريات: "نيفين" و"شيرين" و"سيمون" وأسماء أخرى سمّوها هم وآبائهم ما أنزل الله بها من سلطان. كنت أنظر إليهن وأتسائل: فى شِبَاك أى فِتن القاهرة سأسقط أولاً؟ كان معظم الطلاب حولى من أثرياء القاهرة وكنت أشعر بالإشمئزاز منهم. كنت أحاول الكلام باللهجة القاهرية ولكن جذورى "الفلاحى" كانت تطغى على سِحنتى ولهجتى. ولكن كان هناك أيضا بعض الطلاب من الأقاليم وأحياء القاهرة الشعبية. كان أول من صار صديقا لى هو "حسام".. شاب قاهرى يلعن حياته ويخانق دِبَّان وشِّه، ولكنه فى الوقت نفسه كان يتمتع بسخرية جافة كانت تضحكنى. وكان صديقى الآخر "جميل" متديناً جداً.. كان لا يأكل ولا يبصق إلّا بإسم الله.
بدأت بالعمل كمساعد "سبَّاك" وكان العمل الوحيد الذى تمكنت من العثور عليه. كانت هذه هى أكثر فترة فى حياتى أشم وألمس فيها "الخرا" فقد كان معلمى متخصصا فى إصلاح المجارى المعطلة. كنت أعيش مؤقتا فى بيت أحد أقاربى فى القاهرة، ولكننى سرعان ما تركته خوفا من نفسى الأمارة بالسوء. كان بيتاً ضيقاً وكانت الأسرة مكونة من أب وأم وستة أولاد، وكان الجميع يسكنون فى شقة بغرفتين، وكنت أنام على سرير بجوار ثلاثة من الأطفال.. وكان أحد هؤلاء الأطفال الذين ينامون بجوارى صليبى أبيض البشرة وناعم الملمس. وكان ينام ذات مرة بجوارى وهو مرتمى على بطنه، فنظرت إليه بهيجان وراح الشيطان يعبث بصدرى. [...] لم أشعر بأى رحمة أو شفقة تجاه الطفل... ولكننى فى اللحظات الأخيرة شعرت بالخوف، فكنت أخشى أن يستيقظ الطفل أو أحد أخوته فيرى ما أفعل. أوقف فقط الخوف هذه اللعبة القذرة. ذهبت إلى المرحاض ورحت أمارس العادة السرية لتفريغ ما بداخلى من شهوة مريضة.. كنت أفرك قضيبى وأبكى.. أبكى من قذارتى.. أبكى على ما حدث لى فى طفولتى.. أبكى لأننى لم أكن أفضل حالاً ممن إمتهنونى وهتكوا عرضى.. إنسابت الحيوانات المنوية من داخلى وانهالت معها دموع أكثر وآلام أعمق.. لم أكمل جريمتى حتى النهاية، لا لأننى كنت أكثر رحمة أو أقوى إيماناً من صبى الميكانيكى، ولكن لأننى لم أجد الفرصة المناسبة. ربما كنت سأفعل نفس ما صنعه "شكمان" لو كنت قد اختلوت بهذا الطفل فى مكان منعزل. لم تؤدِ آلام الإغتصاب التى عايشتها بنفسى إلى أن أكون رفيقاً بالأطفال بل قادتنى إلى تقليد من عذبونى ودمروا حياتى. العنف لا يولد إلا عنفا.. ولكننا قلما نوجه عنفنا إلى الغاشم الذى بطش بنا، بل نبحث عن من لا حول لهم ولا قوة ونمارس معهم ألعابنا السادية المبهمة.
تركت منزل أقاربنا يملؤنى الخزى واستأجرت غرفة أخرى، ثم قدمت طلباً للسكن فى المدينة الجامعية، وكنت على قائمة الإنتظار، ولكن كان علىّ أن أقدِّم مع أوراق التقديم "شهادة فقر" تثبت أن عائلتى ليس لديها أملاك أو دخل يسمح لى بتأجير سكن خاص فى القاهرة. كان أمراً مخجلاً للغاية، ولكن أمى إستخرجت هذه الشهادة من الوحدة المحلية بقريتنا دون أن يعرف أبى حتى لا تجرح كبريائه.
وهكذا تمكنت من السكن فى المدينة الجامعية وتعرَّفت هناك على طلاب من كافة بقاع مصر. وبعد قليل حصلت على وظيفة أكثر ربحاً فى إحدى شركات السياحة بمطار القاهرة. كانت دراستى تسير حسبما أريد. تعلمت فى فترة وجيزة الكثير عن الحضارة الأوربية والأدب والتاريخ الغربى والنهضه والتنوير. كانت علاقتى بالجنس الآخر محدوده جداً، فقد كنت لا أثق بنفسى كثيرا لأقترب منهن. وكان خليط غريب من التدين والإنفتاح قد جعل منى شخصية غريبة الأطوار. ولكننى صادقت لفترة إحدى الزميلات التى أعجبتنى عيونها الخضراء، ولكنها كانت بالطبع صداقه بريئة. كنا نحلم بالهجرة معاً لأمريكا والإستقرار هناك..
كنت قد أُخترت كمندوب ثقافى لقسم اللغة الإنجليزية بالكلية. وكانت مهمتى هى إعداد المجلّة الخاصة بالقسم. وقد تعرّفت من خلال هذا النشاط على الكثير من الطلاب ذوى الأنشطة السياسية والإجتماعية.. وكان من بين هؤلاء الطلاب "خالد" وكان ثائراً إجتماعياً يقدِّس "جيفارا" و"ماو". أعجبنى إخلاصه فى كلامه، خاصه بعد أن عرفت أنه قد أُعتقل ذات مرة بسبب النشاط السياسى. تعرفت من خلاله على مجموعة من الطلاب بنفس فكره ونشاطه. كنا نلتقى سرّاً ونتناقش فى شئون السياسة والحياة. كنا نتبادل الكتب المحظورة ودواوين الشعر السياسى الغاضب لأحمد فؤاد نجم ونجيب سرور وغيرهم. قضيت معهم شهورا دون أن أعرف لهم إسماً. كنا نلتقى بالجامعة وأحياناً فى بعض المنتديات "السرية" فى وسط المدينة. وعندما لاحظت أن عبارات مثل "عدالة إجتماعية" و"صراع الطبقات" و"الدين أفيون الشعوب" تتكرر كثيرا بدأت أتسائل :هُمّا العيال دول مِلّتهم إيه بالظبط ؟ يكونوش ماركسيين؟؟ بالطبع كانوا ماركسيين ولكن أحداً منهم لم ينطق بذلك صراحةً، لأن لهذه التسمية تأثيرا سلبيا على كل من يسمعها، فهى مرتبطة بأذهان كثير من المصريين بالإلحاد والعياذ بالله. وكان معظم "الرفقاء" يسمون المجموعة "إشتراكيين" كى يتجنبوا أى سوء فهم.
ولكنهم فى الواقع كانوا ماركسيين أكثر من "ماركس" نفسه، وكان الكثيرون منهم لا يؤمنون بأى إله ولا

يخجلون من قول ذلك. ولكنني حينها لم أكن قادراً على التخلص من الدين بهذه السهولة. كانت لدى شكوكى العقائدية ولكننى لم أكن مستعداً أن أصبح ملحداً 100%. كنت الوحيد بين الرفقاء الذى يتكلم عن الصوفية وعن رحلة الإنسان اللانهائية للبحث عن الله. تعلمت الكثير من لقائاتى مع الماركسيين. فقد كان معظمهم شباب قارئ ومطلع وذا فكر متفتح، ولكننى كنت غير قادر على ملاحقتهم، فقد كانوا يفترسون الكتب افتراساً وكانوا يستخدمون مصطلحات لا أعرفها، وكانوا يعرفون الأدب العالمى جيداً. إشتريت كتباً مثل "الشيوعية فى 90 دقيقة" و"100 كتاب غيَّرت التاريخ" وملخصات لأهم الروايات الروسية حتى أفهم عما يتحدثون ولا أبدو أمامهم كفلاح جاهل. وقد نجحت الخدعة ولم يشك منهم أحد أنى طور الله فى برسيمه! كان يعجبنى فيهم أنهم مثقفون وأذكياء ومثاليون كما كان يعجبنى أن بينهم بعض الجميلات المتبرجات المتحررات من أبناء الطبقة "المستريحة" واللاتى كن ماركسيات من باب الملل وحب التغيير لا من باب الإقتناع. كنت أطلق عليهن "شيوعيات الكعب العالى". ربما كانت تلك الجميلات السبب فى أننى أطلت البقاء أكثر من اللازم مع الماركسيين مع أننى لم أكن مقتنعا تماما بمشروعهم السياسى. فبالرغم من إحترامى لعقلياتهم المتفتحة فإننى كنت لا ائتمنهم على مستقبل مصر. لم أرَ بينهم ثائراً حقيقياً، بل كانوا محاربين متعبين. ومن الصدف العجيبة أننى إلتحقت بالشيوعيين فى نفس العام الذى سقطت فيه الشيوعية، وانطبقتْ بذلك علىّ عبارة "جورباتشوف" الشهيرة: "من يأت متأخراً، فستعاقبه الحياة!"

وبرغم إختلاطى بالشيوعيين كنت لا أزال أواظب على الصلوات الخمس. كنت أشعر أن كل مناقشة معهم تملأ رأسى بالأسئلة ولا تمنحنى أية إجابة.. كنت أشعر بعد كل لقاء معهم بفراغ داخلى.. إمتلأت رأسى بالأسئلة والأفكار المحيرة لدرجة الصداع المزمن. كنت أود أحياناً أن أجرَّ مخى عن طريق الأنف مثلما كان يفعل المصريون القدماء فى طقوس التحنيط، ثم ألقى بمخى من النافذة أو أدهسه بأقدامى حتى أتحرر من أفكار جدباء لا تجلب إلا وجع الدماغ.

الجهاد

سنحت لى فرصة كبيرة أن أعمل عملاً حسناً فى حياتى: عمل بطولى يثبت لى أننى لا أزال إنساناً ولا أزال قادراً على إعطاء الحياة. أصيب خالى بمرض خطير فى القلب وكان عليه أن يخوض عملية جراحية معقدة يحتاج خلالها لأرتال من الدم الساخن. وكان على هذا الدم أن يُنقل مباشرةً من وريد المتبرع لوريده أثناء الجراحة. ولأن فصيلة دمى كانت مطابقة لفصيلته فقد عرضت عليه أن أتبرع له بدمى مما أدخل السعادة والأمل إلى قلبه المريض. أعجبتنى فكرة أن أكون منقذاً أو مغيثاً. فقد كان شعورى بالعار وعدم الإنسانية قد تعمَّق منذ محاولتى الخسيسة للتعدى على الطفل أثناء نومه. وكنت أحتاج لإعادة تأهيل إنسانى. لم تكن علاقتى بخالى جيدة بالمرة، فأنا لم أكد أعرفه، فقلما زارنا فى القرية. وكان يكبرنى فقط بعشرة أعوام، فلا هو من أقرانى فأصادقه ولا هو بالرجل الكهل فأعامله كخالى. زرته مرة قبل الجراحه ورأيته يقرأ القرأن لأول مرة فى حياته. "أنا مش عايز اموت يا ابن اختى. أنا افتريت كتير فى حياتى ومحتاج وقت كتير علشان اكفَّر عن ذنوبى" رأيت الرعب فى عينيه. رأيت كيف يسقط شاب قوى أسيراً للمرض فى أسرع ما يمكن. ورأيت كيف يتحول المرء إلى عابد ورع عندما يحس بخطوات الموت تقترب منه. ولكننى رأيت أيضاً فيه آخر آثار حب الحياة وتشبثه بها، فقد طلب منى فى آخر زيارة له أن أهرِّب له "بيتزا" وعليه سجاير "مارلبورو" إلى المستشفى. لست أدرى لماذا لم أتردد فى فعل ذلك رغم منع الطبيب له منعاً باتاً من أكل الدهون والتدخين. أكل خالى البيتزا فى نهم ودخن علبه "المارلبورو" فى زمن قياسى ومات بعدها بثلاثة أيام. مات فى عمر الثامنة والعشرين. كنت حزيناً لأننى لم أعطه بعض الحياة.. ففاقد الشئ لا يعطيه.. وأعطيته بدلا من ذلك ما أسرع فى القضاء عليه. كان آخر ما قدمته له هو المشاركة فى غُسله الأخير الذى تم فى المستشفى التى مات فيها. كنت أنظر إلى جسدٍ بلا لون ولا حراك وأتسائل كيف لشخص يخاف الموت أن يستعجل الموت بإستهلاك ما منع الطبيب؟ وكيف أساعده بكل برود فى إنتحاره؟ أستهزاءً منى بالمسؤولية؟ أم إستهزاءً بالحياة نفسها؟ "أين فتوتك وعنفوانك؟ لماذا تموت أنت ويحيا آخرون؟ إلى أين المصير؟" هل يمكن للماركسيين أن يعطونى أجوبة لهذه الاسئلة؟

لم يمض وقت طويل حتى وجدنى "ثوار" آخرون. كنت أجلس ذات مرة لتناول وجبة الغذاء الملغمة بزيت الكافور فى "الميز" الخاص بالمدينة الجامعية. جلس أمامى طالب لا أعرفه وراح ينظر إلى طويلاً وهو يسبِّل عينيه.

-"إنى أحبك فى الله" قالها لى بدون مقدمات.

-"نعم؟ " سألته متعجبا.

-"إنى أحبك فى الله. أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخبر من أحببنا بحبنا له" قال التقى الورع الطاهر.

-"ماشى ياسيدى شكراً" قلت بسخرية، ولم أكن أعلم أننى قريبا سأرد على هذه العبارة بقول "أحبك الله الذى

أحبتنى من أجله!" كانت هذه هى أول مرة يقول لى إنسان "إنى أحبك" وشاءت الأقدار أن يكون هذا الشخص ذكراً، وكأن لعنه الشواذ تطاردني أينما ذهبت!

كان للإخوان المسلمين نشاط كبير فى الجامعة والمدينة الجامعية. وكنت بالنسبة لهم عضواً نموذجياً: طالب تائه من الأقاليم يعرف القرآن ويحمل بعض الأفكار المثالية ويرغب فى أى شكل من أشكال المشاركة السياسية. كنا نجلس بعد الصلاة نتناقش حول أوضاع المسلمين وقضاياهم الغير محلولة فى فلسطين والعراق والبوسنة والشيشان. كان الإخوان يصلون إلى قلوب الطلاب أسرع وأسهل من الماركسيين لأن أفكارهم كانت أقرب لمزاج الشعب وطبيعته، وأفكارهم لم تولد فى ألمانيا أو روسيا، وحركتهم لم تستورد من الخارج. كما كانت لهم شبكة إجتماعية محكمة، وكانوا يفعلون ما لا تفعله الحكومة: كانوا يبحثون عن الفقراء والغرباء ويحاولون مساعدتهم. كانوا يتوادون ويتزاورون، وكان يحركهم الإيمان وليس المنفعة الشخصية. أحسست حين انضممت إليهم أننى أصبحت رجلا.. أننى صرت قادراً على المشاركة السياسية التى لم تكن متاحه لمثلى من الشباب فى أى مكان آخر فى مصر. أعجبتنى قراءاتهم الثورية التحررية للإسلام والقرأن.. فالمسلم الحقيقى لا يتخاذل ولا يقلد وإنما يبدع ويغير عالمه. كان إسلامهم يختلف كثيرا عن الإسلام الذى تعلمته من أبى.. إسلام أبى كان هادئا مصالحا يعلمنى إحترام سلطة الكبير والقوى وتجنب الفتنة والصراع، وتقبيل يد عمى رغم أنى لا أطيقه. كان إسلامه مبنياً على حرفية النص وقدسية الحرف فلا قدرة لى على تفسير أو إجتهاد. كان أبى يستخدم الإسلام حتى يبقى الحال على ما هو عليه، بينما كان الإخوان يستخدمون الإسلام كثورة إجتماعية من أجل التغيير، وهذا ما أعجبنى كثيراً. وكانوا يختلفون عن الجماعات الإسلامية الأخرى فى أمرين:

أولاً كان الإخوان أكثر ثقافة وعقلانية فى أطروحاتهم، فكانوا لا يستندون فقط إلى النص المقدس وإنما يبررون إيديولوجيتهم بالمنطق السياسي والإجتماعى. وكانوا لا يثيرون النقاش حول مسائل فقهية تافهة مثل "هل الخيار المخلل حرام أم حلال؟" أو "هل يجوز للرجل أن يجلس على مقعد بالأوتوبيس بعد أن تغادره امرأة؟" ثانياً كانوا لا يأمروننا بحمل السلاح من أجل التغيير وإنما كانوا يعتمدون على الحشد المعنوى والتجهيز الإيمانى أولاً، رغم أن الجهاد كان سبيلهم والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم. كانوا يقولون إن شخصية الفرد المسلم وإيمانه هما نواة تغيير المجتمع بأسره، وكانوا يستخدمون مقوله للشيخ "الهضيبى" أحد مؤسسى حركة الإخوان كثيراً وهى: "أقيمو دولة الله فى قلوبكم تقم على أرضكم!"

كان خروجى من القرية هروباً من العائلة وتقاليد الريف وكان إنضمامى للإخوان هروباً من الإسلام التقليدى السلطوى... هروباً من أبى..

وكان لنا زميل إخوانجى كنا نعتبره مثلاً أعلى. كان يدرس اللغة العربية فى الجامعة ولكنه كان يتعلم اللغة العبرية فى "خفاء". كان يقول لنا اننا لن نستطيع أن نهزم عدونا حتى نعرف نقاط ضعفه، ولكى نعرف نقاط ضعفه فلابد من تعلم لغته.

كان يعجبنى جو السرية المحيط بمعسكراتنا فى القناطر والسويس والفيوم. كنا أحيانا نغير أسماءنا وندَّعى أننا أطباء، وكان ذلك يعطينا الإحساس أننا نعمل شئ فى غايه الأهمية أو كأننا فى أحد أفلام "جيمس بوند". كنا نصلى جميعا فى الخلاء ونردد الأناشيد الملهبة للأحاسيس مثل: "فآلمنى وآلم كل حُرٍ سؤال الدهر أين المسلمون؟" وكان الإخوان يبكون ورعاً وحماساً، ولكن قلبى كان لا يزال مثل قطعة حجر بارد. كان الإخوان يتصافحون ويتعانقون طول الوقت وكان ذلك يضايقنى كثيراً، لأن التصافح والعناق يشترطان أن يثق المرء بمن يعانقه ثقة تامة، وهذا ما لم أقدر عليه، فقد كنت ولا أزال لا أثق بأى مخلوق له عضو ذكرى.. ولا أستثنى نفسى!!

ولكننى كنت فى الوقت نفسه أشعر بالإرتياح لوجودى مع مجموعة من الرجال المؤمنين حقاً والمخلصين فيما يقولون ويفعلون. لم يكن وجودى وصلاتى معهم أكثر من طقس إجتماعى خالى من العواطف والأحاسيس. كنت أستمتع بلعب الكرة وممارسة الأنشطة المختلفة معهم، ولكنهم كانوا أحياناً ينظمون أنشطة غريبة لا أفهمها. فقد قسمونا مرة أثناء معسكر صيفى إلى مجموعات صغيرة وجعلوا لكل مجموعة أميراً وأمرونا بالسير فى الصحراء لساعات وكان كل منا لا يحمل معه سوى برتقالة. وبعد ساعات من المشى والعرق أمرنا أمير جماعتنا أن نتوقف وأن نقشر البرتقالة. كنت سعيداً جداً عندما قال ذلك وكنت أنظر للبرتقالة كأنها ثمرة من ثمار الجنة. وبعدها أمرنا الأمير بدفن البرتقالة فى الرمال وأكل القشرة. كدت أصرخ فى وجهه "إيه الهبل دا؟"، ولكننى لم أجرؤ بعدما رأيت كل المجموعه تفعل ما أمر به وكأنهم الصحابة فى غزوة الخندق. دفنت البرتقالة فى الرمال على مضض ورحت آكل القشرة المرة وأنا ألوم نفسى على أننى لم أقتطع بعض لحم الثمرة مع القشرة.

وكنت رغم إرتباطى بالاخوان لا أزال ألتقى ببعض الماركسيين من وقت لآخر. وقد تمكنت من تجنيد أحدهم لجماعة الإخوان، وكان ذلك الأمر يحدث كثيراً. فالطالب تعجبه أفكار الماركسيين لكنه يخاف من الإلحاد فيتحول قريباً إلى الإخوان. وقد زارنى هذا الرفيق الإخوانجى الماركسى ذات مرة فى المدينة الجامعية وطلب منى أن أجلده مائة جلدة. فسألته لماذا؟ فقال انه وقع فى الخطيئة مع إحدى الماركسيات أيام العصيان ويريد أن يطهر نفسه من هذا الذنب الكبير. لم أتردد لحظة واحدة، فقد كان بداخلى كم هائل من العنف وكنت أبحث عن طريقة لتفريغه. سألته أن ينزع قميصه ويعرى ظهره، ثم نزعت حزام بنطلونى وبدأت فى جلده بكل قسوة حتى دمت كل بقعة فى ظهره. رحت أضرب وأضرب وكانت ممارسة هذا العنف تهدأنى، بل وتثير نشوتى. وكان صراخ الطالب يزيد من بهجتى. وعندما فرغت من المائة جلدة لم أحس بالإكتفاء بعد، فقلت له اننى سأضربه خمسين جلدة أخرى لأن الحزام أقل فاعلية من الكرباج، فوافق وواصلت نشوة عنفى!

***

وبعد فترة طويلة من الغياب ذهبت لزيارة أسرتى فى القرية. ثمانى عشرة شهراً من الحياة السريعة المتقلبة فى القاهرة جعلتنى أفتقد القرية وإيقاعها البطئ. أصبحت أرى سكان القرية فجأة بعيون أخرى. رحت أنظر اليهم بإمعان فأرى فيهم أصالة الريف وبساطة الحياة التى لم يفقدونها رغم كل شئ. كانوا لا يزالون يطاردون لقمة العيش بدأب وصبر ولم يكن لديهم وقت ليفكروا فى النظام الذى يعيشون فيه. ربما حالت آلام السنين الماضية بينى وبين رؤية كل هذه العيون الطيبة. كانت علاقتى بأبى لا تزال باردة، ولكننا كنا لا نزال قادرين

على التحاور. سألته عن "الإخوان المسلمين" وعن رأيه فى مفهومهم للجهاد فقال لى ان الإخوان يفسرون الجهاد تفسيرا ضيقا. فالإسلام ليس حزباً سياسياً والجهاد فى المقام الأول هو جهاد النفس. قال أبى انه من السهل التركيز على عدو خارجى أو قريب، ولكن أصعب شئ هو العدو الداخلى. ولكن عدو أبى الداخلى لم يكن النظام المستبد كما كان يرى الإخوان وإنما داخل الإنسان ذاته ونفسه الأمارة بالسوء. قال إن وظيفة الدين فى هذا الزمان لا يمكن أن تكون تجييش الجيوش، وإنما على الدين أن يضمد جروح الأمة ويعيد بناء الفرد ليكون مواطناً صالحاً. حذرنى أبى من أن أنساق إلى أى مخطط جهادى إخوانى وقال: "لو عايز تجاهد فى سبيل الله ذاكر وانجح فى دراستك، خلّيك راجل صالح ينفع بلده وعيلته. أمّا لو عايز تموت فى سبيل الله، قول لى الأول مين دا اللى حسيستفيد من موتك؟" كان أبى لا يزال قادرا على إعطائى حجج قوية ونصائح قيمة، ولكنه كان يصعب على أن أصدق كل ما يقول، فما أسهل الكلام! أو ربما كان أبى قد تغيّر فى الشهور التى مضت بالفعل.. ربما أصبح يفكر فى حياته وإخفاقاته ويحاول التغيير من نفسه.

رحت أتخيل قريتي بدون دين ولا ملة. لابد أن ذلك سيكون الجحيم بعينه لأهل هذا البلد. فأى خيار يتبقى لهم إذا فقدوا الدين؟ أى ركيزة أخرى يمكنهم أن يتخذوها لهويتهم وتفاهمهم وقيمهم؟ فقد كان الدين فى بلدنا دائما هو المدخل لأى مصرى مسيحياً كان أم مسلماً. كانت لغة الدين هى لغة الإتصال والتفاهم والتصالح. وأنا لم أسمع فى أى خطبة من خطب أبى سباً لأقباط القرية أو لعناً لهم كما سمعت فى القاهرة. بل كان أبى وقسيس الكنيسه صديقين حميمين يتزاوران ويتوادان. وكان كلاهما يتوسط لحل أى نزاع نشب بين مسلم ومسيحى. ولم تكن مثل هذه الصراعات تنشب أبداً بسبب عقائدى ولكن كانت فى الغالب شجارات حول حدود الحقول أو مشاكل جيرانية عادية. وقد أدان أبى بشدة تصرفات مسلمى القرية المجاورة الذين إستغلّوا شجاراً بسيطاً بين مسلم ومسيحى فراحوا يسرقون عروق الخشب من الكنيسة وهم يصيحون "حىّ على الجهاد".

كنت لا أستطيع أن أفرق مسلم من مسيحى فى قريتى من حيث الشكل واللبس والأخلاق. حتى عاده ختان الإناث كانت منتشرة بين المسلمين والمسيحين على السواء. وكانت العادات والتقاليد المصرية بحسنها وسيئها شأنها شأن اللهجة المصرية: خليط فرعونى إسلامى قبطى متجانس. ولكن عندما عاد بعض العمال من السعودية إلى القرية جلبوا معهم فكراً وهابياً متعصباً وخطاباً دينياً لا يخدم الوحدة الوطنية والتعايش السلمى. وراحوا يطيلون اللحى ويأمرون نسائهم بإرتداء الخمار. وأدت هذه الممارسات إلى أن الأقباط أيضا بدأوا بإظهار رموزهم الدينية أكثر مما أدى إلى بعض المصادمات. ولكن هؤلاء العائدين المتعصبين كانوا فى ذلك الوقت لا يزالون قلة قليلة. كان سكان القرية يسموهم "الجماعة السُنية" أو "الجماعة بتوع الدقون" من باب السخرية.

فوجئ أبى عندما حكيت له أن الجامعة لا يزال بها ماركسييون، فقد ظن أن السادات إستئصل شأفتهم بعدما سلط عليهم الإخوان، وعلمت من أبى أيضا أن السادات هو الذى أخرج الإسلاميين من السجون كى يضيقوا الخناق على الإشتراكيين. وشاءت الأقدار ألا يقتله الإشتراكيون بل الإسلاميون الذين عفى عنهم وساعدهم: قال أبى انه بعد نكسه 67 لم تقم للإشتراكية قائمة أخرى فى مصر، فلم يعد أحد يصدق أنظمة غربية، فتوجه الشباب إلى التيارات الإسلامية "المضللة" حسب تعبير أبى.

وهكذا ظللت ممزقا بين "جهاد" أبى و"جهاد" الإخوان. وقطعت بالتدريج علاقتى بالماركسيين وصرت إخوانجيا 100% . كنت أشعر مع الإخوان بتضامن وإعتراف كامل بشخصى لم أجده مع أى مجموعه أخرى. ولكن إحترامى لأبى وتقديرى لرأيه منعانى من الإنخراط فى أى نشاط إخوانى يتخطى نشر بعض المقالات الثورية أو الإشتراك فى المظاهرات ضد حرب الخليج وحرب البلقان.

المرّة الأولى

كان من الصعب الحفاظ على التوازن بين تدينى كإخوانجى ومتطلبات جسدي الطبيعية كشاب فى العشرين. وكنت من خلال عملى فى المطار أحتك ببنات "الفرنجة" ولكننى كنت خجولاً وغير قادر على تخطى الحدود. وذات مرة طلب منى صديقى "حسام" - والذى كان أيضا يعمل فى إحدى شركات السياحة - أن أرافق صديقة أمريكية له كان يعتبرها زوجه المستقبل، فقد رأى فيها عفة وجمال وبراءة لم يرها فى بنات مصر. وكان حسام مشغولاً وغير قادر على مرافقة صديقته وكان يخشى أن تقع فى حبائل من لا يرحم من شباب مصر فيستغل براءتها ويغرر بها. وقد فعلت ما طلب منى صديقى ورافقت الجميلة العفيفة البريئة أثناء رحلتها فى القاهرة، وكنت أعاملها بكل أدب وإحترام كما تتطلب شروط الصداقة و"المرجلة". لم أكن حتى أرفع عينى فى عينها حتى لا تسئ فهمى. ويبدو أن تحفظى الشديد مع الأمريكية قد أثارها كثيراً. وقد سألت الأمريكية حسام فى هذا اليوم عبر الهاتف لماذا أنا خجول لهذه الدرجة، فقال لها لأن "شاكر "لا يزال يحتفظ بعذريته ولم تكن له علاقة بأية إمرأة من قبل. ويبدو أن ذلك قد زاد من إثارتها، فلاحظتُ فى اليوم التالى أنها كانت تحاول إغرائى بكل الطرق. كان وقت الظهيره وكنا نزور مقبرة فرعونية فى جوف الأرض بمنطقة سقارة، ولم يكن فى المقبرة أحد إلا أنا وهى، فراحت تفتح أزرة بلوزتها بحجة الحر الشديد حتى رأيت ثلاثة أرباع ثدييها، ثم اقتربت

منى وقالت "أشعر بسخونة شديدة، وأنت أيضا؟" ثم طلبت منى أن أدلِّك لها عنقها ففعلت وكنت أحاول أن أبدو طبيعياً قدر المستطاع ، ولكن "الثعبان الأقرع" كان قد تمدد فى بنطلونى بصورة لا يمكن إخفاؤها. فلاحظت الأمريكية ذلك وخرت على ركبتيها وفتحت سوسته بنطلونى وأخرجت "أبو العرب" من مرقده وراحت....... كنت أقف متحجراً رغم شهوتى الكبيرة وتركتها تفعل ما بدا لها. ثم خرجنا من جوف الأرض بعد أن لاحظ غفير المقبرة أن شيئاً غير طبيعى يحدث فى القاع. وذهبنا إلى الفندق الذى كانت تسكن فيه، وكان علىّ أن أتسلل لغرفتها، فشرطة السياحة حريصة كل الحرص ألا يقع شباب مصر فى حبائل الغربيات الفاجرات حتى لا يصابوا بعدوى الإيدز.. خاصةً الشباب الذين لا يقدمون الرشاوى للشرطة عليهم أن يحتفظوا بأخلاقهم الحميدة. أما الأغنياء من شباب مصر ورجال الخليج فيبدو أن لديهم حصانة طبيعية ضد الايدز!! سألتُ الأمريكية لماذا اختارتنى أنا ولم تختر "حسام" الذى كان أكثر منى خبرة ومرحاً، فقالت "أنت طاهر مثل الملاك، وأنا أريد أن أكون أول امرأة تقبلك وتشاركك فراشك." كنت أتعجب أن الغربيين لا يحترمون المرأة العذراء ولكنهم يحبون الرجل الذى يحتفظ ببراءته. خلعت الامريكية ملابسها ثم بدأت فى خلع ملابسى وكانت تتلذذ بذلك. طرحت بنفسها على السرير وقالت "إفعلها يا صديقى الصغير!" فألقيت بنفسى فوقها وكنت مصمماً ألا ألعب دور الصغير. حاولت أن أكون فظاً عنيفاً فأعجبها ذلك. كان يثيرها كثيرا أن أشدها من شعرها وأن أكتم أنفاسها. كانت تلتوى فى الفراش كالأفعى وتصرخ بألم. لم يكن هناك مكان للحب أو للنعومة بداخلى... فقد كان هذا اللقاء إستعراضاً للعضلات لا أكثر... لم تكن تهمنى شهوتى بقدر ما همنى أن أجعل الأمريكية تصل إلى أقصى درجات اللذة... كنت ألعب معها وأغير الإيقاع وكنت أتوقف عندما أشعر أن لحظة ذروتها قد قربت ثم أعيد الكرَّة من جديد حتى أنهكتها تماما... وفى وسط هذه اللعبة صرخت قائلة "أوكى.. لقد فهمت الدرس. تريد أن تقول لى إنك لست ملاكاً ولكن شيطان. نعم أعترف أنك شيطان رهيب!" عندها أعددت الإنطلاقة الأخيرة بكل تركيز وأعطيتها الرجفة الكبرى التى كانت تبغى. إعترفت لى بعدما فرغنا أنها تعمل راقصة "إستربتيز" فى أمريكا، وجاء ذلك تفسيراً منطقياً لحركاتها الأكروباتية وليونتها الغير عادية فى السرير. ورحت أتعجب كيف أن حسام كان يعتبرها بريئة طاهرة. لم يكن فى هذا اللقاء أى نوع من الرأفة أو الأحاسيس.. كان مجرد لعبة ظننت أنها ستكمل قوس رجولتى. ولكننى لم أشعر بتغيير ملحوظ بعدها. حاولت الأمريكية بعدها مراراً أن تلتقى بى ولكنى كنت أتهرَّب منها.

أحسست بقدر هائل من الشعور بالذنب. هل سأذهب إلى أحد الإخوان وأسأله أن يقيم علىّ حد الله؟ بالطبع لا! لست مخبولاً كى أذهب لأصولى "مكلكع" وأجعله يضربنى. إذا كان الله يريد عقابى فليفعل هو ذلك بطريقته. لم أحك لحسام أيضا ما كان، ولكنه أحس أن تغّيراً ما قد ورد على المرأة التى كان يرغب فى الزواج منها بعدما ائتمنى عليها. تكررت نفس القصة تقريباً مع صديقى الآخر "جميل" فقد وقع فى غرام إحدى الطالبات الثريات فى الجامعة وكان يتقرب إليها بكل الطرق، وعندما تعرفت علىّ فقدت كل اهتمام به. بعدها قرر جميل قطع علاقة الصداقة معى نهائياً، رغم أننى لم أفعل شيئا هذه المرة. قال لى انه سئم لعب دور عبدالسلام النابلسى فى حين أنى دائماً ألعب دور عبدالحليم حافظ!

وقد عشت فى هذه الحالة من الأرجحة لفترة طويلة : عدم توازن بين التدين والتفحش.. عدم تصالح بين جهاد النفس وجهاد الثورة. قادنى هذا الإنفصام إلى حالة من عدم الرضى فرحت أفكر فى حزم أمتعتى للهجرة بعد إنهاء دراستى. وفى هذه الفترة إلتقيت بأنطونيا التى ساعدتنى على السفر لألمانيا. وعدت إلى مصر زائراً بعد غياب عامين فلم أجد لى مكاناً فى بلدى. نعم.. كنت ألاحظ أن تغييرات كثيرة قد طرأت على القاهرة فأصبحت المدينة أكثر إنفتاحاً وإزدهاراً. ولكن هذه التغيرات لم تكن أكثر من قطرة ماء على حجر ساخن. فقد كانت تغيرات شكلية سطحية لا تصل الى عمق مشاكلنا. فما فائدة أن ندهن واجهة المنزل بلون جميل فى حين أن العفن الفطرى قد تمكن من كل حجرة فى البيت؟

ألمانيا من جديد

رجعت إلى المانيا وقررت البقاء فيها رغم أننى لم أكن أطيق جوها ولا شعبها. ولكنها كانت - رغم كل شيء - أرحم بى من بلدى. قطعت أى علاقة لى بالمسجد أو بالمهاجرين وحاولت أن أصير ألمانياً أكثر من الألمان أنفسهم. بدأت أشرب "البيرة" التى لم أكن أطيق رائحتها من قبل وجربت جميع أنواع الخمور. وكنت أظن أن شربى للخمور سيسهل علىّ الإنصهار فى المجتمع الألمانى ولكن الألمان أنفسهم كانوا يتعجبون كلما رأونى أشرب ويسألونى "سمعنا أن المسلم لا يشرب الخمر.. فلماذا تشرب؟" كانت تضايقنى مثل هذه التعليقات وتزيد من غضبى. كنت أريد أن يرانى الناس فقط كإنسان ولكنهم كانوا ينظرون إلىّ أولاً كمهاجر وثانياً كمسلم : أى مشكلة مزدوجة! رحت أمارس الفواحش بأنواعها ولكننى لم أشعر بأى ارتياح.. شربت من المياه المالحة التى لم تزدنى إلا عطشاً وشعوراً بالذنب. كنت أحاول الإبتعاد عن جذورى قدر الإمكان. ولكنى كنت في

صميمى مرتبط بهذه الجذور برباط مطاطى. فكنت مهما أبتعد عن الجذور يعيدنى الرباط المطاطى ويرطمنى بأصولى من جديد. وكيفما كان بعدى وسرعة هروبى كانت قوة إرتطام العودة! وكانت علاقتى بأنطونيا قد وصلت إلى شبه الجمود التام، مما زاد من عزلتى. سحبت ورقة جديدة من لعبة "بوكر الهويات" : رحت ألعن ألمانيا وأجعلها المسئول الوحيد عن ضلالى وحيرتى .

وصلنى خبر حزين من قريتى بمصر عمّق من شعورى بالخوف والذنب. إنتحر صديقى القديم "احمد عبد المعبود". كان يتصل بى قبل إنتحاره من فترة لأخرى ويسألنى أن أجلب له تأشيرة للرحيل إلى ألمانيا.. حاولت أن أشرح له أن ألمانيا ليست كدول الخليج، ولكنه واصل الإلحاح. وقد اتصل بى أسبوعين قبل وفاته وقال لى :

-"شاكر.. أرجوك.. ساعدنى أسيب البلد دى أحسن أنا حاسس إنى باتخنق. شوف لى أى حاجة عندك أو أى واحدة ألمانية طالبة الحلال إن شالله لو عندها ميت سنة حتى!"

-"صدّقنى يا أحمد.. ألمانيا مش جنة زى ما انت متخيّل.. وانت لو ما لاقتش حلّ لنفسك فى مصر مش هتلاقيه فى أى مكان تانى!" قلت له فى آخر مكالمة لى معه.

لم يجد صديقى حلاًّ فى مصر فتجرّع السم ومات قبل وصوله للمستشفى. ملأتنى رعشة الخوف والشعور بالذنب طوال الليلة التى سمعت فيها هذا الخبر. وكنت أشعر أن دورى هو القادم. لم أجد مكاناً التجىء اليه إلا المسجد. ذهبت الى مسجد عربى جديد ورحت أصلى لصديقى ولنفسى. مرة أخرى دفعنى الموت أن أتسكّع على أبواب الله. شعرت بغربة شديدة داخل المسجد. رأيت هناك شباباً عربياً كنت أراهم أيضاً فى الحانات والديسكوهات فبدت لى قصة حياتى وكأنها نسخة مصورة وغير أصلية.. فقصتى مثل قصص معظم هؤلاء الشباب: شاب يحلم بالحرية فيلهث ورائها دون حسابات. فتلسع أصابعه نار الحرية فيعود للمسجد طالباً العزاء والمواساة...

فتح انتحار صديقى ملف هويتى من جديد.. ماذا جرى لنا؟ ألسنا قوم إيمان وتوكل على الله؟ ألم نقل ان الآخرين هم الذين ينتحرون؟ بدأت أنظر لنفسى ككيان قذر قبيح الوجه. ولكننى لم أكن أدرى أألوم الألمان لأنهم هم الذين نبّهونى لقبحى وصاروا يسخرون منه؟ أم ألقى باللوم على أبى وأمى الذين ورثت عنهم ملامحى وطباعى؟ كم عملية تجميل ستكفى لإزالة هذا القبح؟ كم كذبة أخرى يمكن أن تتحملها حياتى؟ هل خلقنا الله ليرى محدوديتنا ويعاقبنا عندما نفشل؟ لماذا لم يخلق بشراً أقوى وأكثر صلابة؟ أسئلة كثيرة راحت تدور فى ذهنى من جديد. ولا إجابة سوى الضباب والخوف...

تعرفت فى المسجد على مجموعة من الشباب الباكستانيين جاءوا من انجلترا لدعوة الشباب المسلم فى ألمانيا للرجوع إلى الله. وجدت فى جلوسى معهم تلهية عن همومى وأحزانى وصرت أرافقهم في جولاتهم فى الجامعة وبيوت الطلبة. كنا نقرأ الأسماء المكتوبة على أجراس البوابة الرئيسية لبيوت الطلبة وندق على كل باب بدا من إسم صاحبه أنه مسلم. وكنا ننصح الشباب بالعودة الى الله وعدم التخبّط فى الغربة. صرت واعظاً مبشّراً دون أن أحس. وأصبحت عضواً مميزاً فى جماعة التبليغ والدعوة. ولكن جسدى بدأ يصرخ بعد فترة للحصول على الخمور ورائحة أجساد النساء، وكنت قد صرت مدمناً لهم. فكانت تمر علىّ بعض الأيام أعظ فيها الشباب المسلم بتجنب الفواحش بينما كنت أقع فى الفاحشة فى نفس الليلة.

نفذت كل أوراق لعبة الهوية. صرت لا أستطيع أن أتحكّم فى حياتى على الإطلاق. أصبحت قارباً مهشّماً تتخبطه الأمواج. لم أجد تفسيراً لتصرفاتى. وكنت أشعر أن هذه الحالة الإنفصامية لا يمكن أن تستمر كثيراً. بدأت آلام ظهرى فى الإزدياد وأصبت بانزلاق غضروفى ثانى. زادت حدة نوبات غضبى حتى أصبحت "أنطونيا" تخاف أن تنام معى فى نفس البيت.. شعرت برغبة عارمة فى ممارسة عنف جديد. أظننى كان من الممكن أن أصير إرهابياً فى هذه الفترة لو أن تنظيم القاعدة قد جندنى. فقد كنت أبحث عن مشروع قصير المدى يريحنى إلى الأبد. ولكننى لم أجد الفرصة التى أفرغ بها عنفى المدفون. فبدأ ذلك العنف يتوجه إلى نفسى. صرت أجلد نفسى كل مساء.

ذهبت "أنطونيا" معى للتمشية قرب إحدى البحيرات فى ليلة قاسية البرودة. وكانت المرأة الحنونة تحاول بكل ما فى وسعها تخفيف آلامى وفهم مشاكلى.. كانت البحيرة التى نسير بجوارها قد تجمَّدت من فرط البرودة.. وقرأت لوحة تحذيرية مكتوب عليها "الدخول الى البحيرة مجاذفة خطيرة بالحياة.. فطبقة الثلج هشة ويمكن كسرها بسهولة".. أحسست أن هذه اللوحة قد كُتبت فقط من أجلى وأنها دعوة صريحة لى كى أتخلص من حياتى وقرفها. تركت أنطونيا وحدها عند الشاطىء ورحت أدوس بأقدامى فوق البحيرة المجمّدة. راحت أنطونيا تصرخ من مكانها "أرجوك.. عود! ستموت يا مجنون!" لم أعبأ بصراخها وأكملت المسير حتى وصلت لوسط البحيرة وصرت أدبّ بقدماى فوق الجليد لكى ينكسر وأغوص تحته فلا ينقذنى أحد. صرخت "أنطونيا" مراراً وأنا أواصل ضرب سطح البحيرة بقدمى ثم جرت بشجاعة غير عادية تجاهى حتى وصلت إلىّ لاهثة الأنفاس، فأمسكت بذراعى وقالت باكية:

"هذا كثير جداً.. أنا تعبت للغاية!" أمسكت بيدى بقوة وسحبتنى الى خارج البحيرة وهى تبكى بحرقة.

أقنعتنى "أنطونيا" أن أعرض نفسي على طبيب نفسى، فوافقت، لا لإقتناعى بجدوى الطب النفسى، ولكن لأننى كنت لا أريد أن أثقل على المرأة الطيبة أكثر من ذلك.. بعد عدة جلسات فى إحدى العيادات الخاصة لاحظ الطبيب المعالج أن مشكلتى تستوجب البقاء فى المستشفى بصفة دائمة فحولنى إلى قسم العلاج النفسى بإحدى مستشفيات "ميونخ". وتعرفت فى هذا القسم على عينات أخرى من المجتمع الألمانى لم أر مثلها من قبل. كانت "كاتارينا" كاتبة فاشلة لم يحقق أى كتاب لها نجاحاً يذكر. وكان يتركها الرجال بعد فترة وجيزة من المعاشرة، فصارت مذعورة مضطربة تميل إلى الكآبة والإنتحار. أما "كارل" فقد كان يعمل محاسباً فى إحدى الشركات الألمانية وكان من أبناء الجيل القديم الذى يستخدم فى حساباته النوتة والآلة الحاسبة. وقد طُلب منه أن يستخدم فى عمله الكمبيوتر فأصيب بالرعب وتفجرت منه ذكريات الطفولة المؤلمة. كانت هناك فتاة ألمانية شابة تعانى من إضطراب حاد بعد أن إغتصبها كل من أبيها وجدها. كانت تعجبنى "سوزانا" وكانت نصف فرنسية نصف ألمانية. وقد حاولت الإيقاع بها ولكنها كانت قد وقعت في غرام "ميشائيل". ولكن "ميشائيل" كان شاذاً وكان يحوم حولى طول الوقت. ولكننا كنا جميعاً نتعامل مع بعضنا ببساطة شديدة دون أحقاد أو حسابات. كنا نلعب تنس الطاولة ونرسم معاً ونشاهد الفيديو فى أوقات فراغنا. كان العلاج يعتمد فى المقام الأول على الطرق الحديثة مثل الموسيقى والفن والحوارات والتمارين الرياضية والنفسية.. ولكن الطبيب المختص بى كان من عشاق مدرسة التحليل النفسى. وكان قد أحس أنى أخفى ذكريات طفولة مؤلمة لا أريد الحديث عنها وكان يظن أن هذه الذكريات هى سبب مشاكلى النفسية وليس إضطرابات الهجرة والهوية. حاول الطبيب كل الطرق لإقناعى أن أفتح ذاكرتى له وأحكى له عما يؤرقنى ولكننى رفضت بعنف.. فاقترح علىّ أن يستخدم طريقة التنويم المغناطيسى لكى أشعر بالإسترخاء وأتعامل مع جروحى بهدوء، فوافقت دون أن أدرى أنه كان يحاول بذلك إغتصاب ذاكرتى عُنوةً.

خرجت من جلسة التنويم المغناطيسى وأنا أصرخ بعنف وهربت حافياً من المستشفى وصرت أجرى فى شوارع "ميونخ" في ليلة قارصة البرودة. ثم حاولت إيقاف جميع السيارات فى الشارع وكأننى كنت أريد إيقاف المدنية الألمانية التى كنت أشعر أمامها بالعجز والخصيان. تسببت فى إحداث زحام رهيب فجاءت سيارة الشرطة بسرعة وألقت القبض علىّ وأعادتنى فيما بعد للمستشفى. ولكننى بدأت فى ضرب الممرضين بطريقة وحشية حتى خدرونى بحقن مهدئة.

هدأتنى الحقن ليلة واحدة فقط. ففى الصباح حاولت خنق نفسى بكابل التليفون ورحت آكل زجاج كوب الماء وأبتلعه. فأجريت لى عملية جراحية عاجلة لإستخراج شظايا الزجاج من معدتى. ثم قرر مدير المستشفى تحويلى لمستشفى المجانين المغلق والذى يقع تحت حراسة الشرطة، إذ يعالج فيه المجرمون والمغتصبون والمدمنون. لكنى رفضت ذلك فلم يجد المدير بديلاً عن إستدعاء الشرطة التى قادتنى إلى المستشفى المغلق.

شُكِّلت لى محكمة عاجلة وقررت حبسى بالمستشفى لأننى أمثل خطراً على نفسى وعلى محيطى ومنعى من إدارة شئونى بنفسى ومن التوقيع على الأوراق الرسمية. أظننى كنت سأتخذ نفس القرار لوكنت أنا القاضى. فلم يدع تصرفى لأحد أى خيار آخر. لم يفهم أحد فى مستشفى المجانين مشكلتى بالمرة. حبسونى فى غرفة بلا نوافذ ونزعوا منها أى شىء حاد يمكن أن أستخدمه للإنتحار.. كانت العقاقير النفسية والعصبية تصيبنى بالخبل والعجز التام. كانت تحبس مخى ولا تترك منه إلا القليل فى حالة التشغيل. كان أسوأ هذه العقاقير دواء يسمى "هالوبيريدول" فكان يصيبنى بشلل تام فى الوجه فيلتوى لسانى بألم. ولكننى عندما إشتكيت لم ينصت أحد لشكواى وكأننى حيوان هائج يجب فقط تهدئته. وعندما رفضت تناول الدواء كانوا يقيِّدونى ويدسّون الدواء عنوة فى فمى أو فى عروقى. كنت أنام مقيداً فى السرير كل ليلة كى لا أؤذى نفسى وكان ذلك يؤلم ظهرى كثيراً.

كان الألمان لا يرغبون فى رؤية أمثالى فى الشوارع. فكانت هذه المستشفيات بمثابة مقالب زبالة يخفى فيها المجتمع قاذوراته حتى يستمر فى الإستمتاع بالجنة الزائفة.

أمضيت شهوراً لا أرى نور السماء ولا أتكلم مع بشر عاديين، فقد كان كل النزلاء مجرمين أو مهددين بالإنتحار أو مجانين على درجة عالية من العنف. وكنا لا نذهب لأى قسم فى المستشفى إلاّ تحت الحراسة المشددة.. أحسست يوماً أنى مخنوق وكنت أرغب فى شم هواء طلق ورؤية السماء. فطلبت من أحد الممرضين أن يصطحبنى لأى شرفة ولكنه رفض وقال ان ذلك ضد تعليمات الطبيب فرحت أصرخ بشدة حتى فقدت صوتى تماماً فقادونى لغرفتى وخدّرونى بالسموم. أمضيت أسابيعاً لا أنطق بحرف واحد.

وكانت "أنطونيا" تزورنى من وقت لآخر وكانت تحاول تحويلى إلى مستشفى آخر قرب جبال "الألب" يقال عنه أنه أكثر إنسانية مع مخبولى العقول. ولكن الطبيب قال إن هذا الإجراء لن يكون ممكناً قبل أن تتحسن حالتى العقلية كثيراً. كنت أحاول التحكم فى أعصابى قدر المستطاع فلا أصرخ ولا أتشاجر مع أحد.. وبعد بضعة شهور عصيبة سمح لى الطبيب بالإنتقال إلى المستشفى الآخر.

وكان الجو فى المكان الجديد مختلفاً بالفعل عن السجن القديم. كان أيضاً مستشفى مغلق، ولكن كان مسموحاً لنا بالمشى فى الحديقة الجميلة تحت الحراسة. لم يكن العلاج يعتمد هناك فقط على أدوية المخ والأعصاب ولكن كان يشمل علاجاً إبداعياً وعلاج الإسترخاء فى الماء والعلاج بالكهرباء وبالتحليل النفسى. كان مبنى المستشفى مليئاً بالنور الطبيعى وكانت تعلق على جدرانه لوحات سيريالية جميلة. كان الأطباء والمعالجون يتعاملون معنا بإحترام ورفق. ولكن الأدوية السامة كانت أيضاً جزءً مهماً من العلاج. وقال لى أحد الاطباء اننى لست مجنوناً فعقلى سليم 100% ولكن مشكلتى هى الأعصاب والمشاكل النفسية. وقال ان مرضى سببه شخصية مركّبة وهويّة مرتبكة ويرجع ذلك فى الغالب لصدمات فى أيام الطفولة. ولكننى لم أتحدث مع هذا الطبيب أيضاً عن ذكرياتى..

تعرّفت فى هذا المستشفى على بعض أصدقاء الجنون. وكانوا يقبلونى كما أنا. وقد كنت دائماً، حتى قبل

مرضى، أجذب المجانين والمعتوهين بصورة غريبة فيرتاحوا معى وأرتاح معهم منذ الوهلة الأولى. هناك مقولة جميلة لـ "هاينرش هايني " : لا يوجد مجنون واحد على درجة من الجنون تجعله لا يجد مجنوناً آخر يفهمه!!" كان "أولاف" طفلاً كبيراً فاق الأربعين وكان يكتب كل يوم خطابات إلى سكان الكواكب الأخرى يشكو لهم فيها من قسوة أهل الأرض وغبائهم. وكان "مُنْفرد" مدرس رياضيات فقد عقله بعد أن تركته زوجته لأنه صار مدمناً للخمور. كان يزحف كل يوم على الأرض ويصرخ "الروس قادمون!" كنت كلما أسأله : "كيف حالك اليوم يا منفرد؟" يرد علىّ قائلاً :"أنا دائماً بصحة جيدة لأننى أضرب العشرات ثلاث مرات يوميا!".. كان "إبراهيم" شاباً تركياً مدمناً للمخدرات وكان ذا شخصية مرحة وبديهة حاضرة.. وكان أكثر إنفتاحاً من كل الأتراك الذين قابلتهم فى ألمانيا . وكانت "سراب" فتاة تركية أخرى.. وقد هربت من عائلتها بعد أن وقعت فى غرام شاب ألمانى. ولكن علاقتها به إنتهت فصارت بلا سند وأصيبت بالاكتئاب. كنت أجلس بعد منتصف الليل فى غرفة التليفزيون، فقد كان مسموحاً لى بالبقاء مستيقظاً فى الليل لأننى كنت أعانى من أرق وكوابيس ليلية. وكنت أشاهد أحد أفلام "السكس" عندما دخلت "سراب" علىّ الغرفة فلم أغير المحطة وواصلت مشاهدة الفيلم الخليع. فجلست سراب بدون تعقيد وراحت تبتسم لى إبتسامة فهم وتضامن. فقد فهمت أننى سئمت التقاليد والممنوعات.. ربما مثلها تماماً! رحنا نمزح حول الفيلم وممثليه. ربما لو كنا فى مكان آخر لنشبت بيننا علاقة جميلة ولكن المكان لم يكن يسمح بأكثر من المزاح والمغازلة البريئة. وكان لقائى مع "سراب" قد أسعدنى ومنحنى الشعور بأننى لا زلت أتمتع بالشهوة الجنسية. كنت من وقت لآخر أتحسس "نبُّوت الغفير" المسترخى فى سروالى لأتأكد أنه لايزال على قيد الحياة. لم أكن أمارس العادة بالطبع ثلاث مرات يومياً مثل "منفرد" ولكننى كنت أطرد شهوتى من حين لآخر. كان سلطان المرح فى المستشفى هو "هانز" وكان طيّاراً سابقاً فى سلاح الجو الألمانى. وكان من عشاق الصين ونساء الصين. وكان يغنى كل يوم أغنية لـ"ماو" وقد أصيب "هانز" بالجنون عندما دعته عائلة خطيبته الصينية فى إحدى قرى الصين للأكل فى أحد المطاعم التقليدية. وأرادت العائلة أن تقدم طبقاً خاصاً للضيف الألمانى. فجلس الجميع على طاولة الطعام وكان بوسطها فتحة مدوّرة برزت منها رأس قرد كان لا يزال حياً ومقيداً تحت الطاولة. ثم جاء "الجرسون" بفأس صغيرة راح يضرب بها رأس القرد حتى انفتخت فراح الرجال الصينيون يأكلون من مخ القرد بالعصى الخشبية بينما راح القرد يصرخ ألماً. كان الرجال يعتقدون أن مخ القرد الحىّ يضاعف من القوة الجنسية.

وكان أكثر الناس كآبة فى المستشفى هو "فيلى" وهو أستاذ لاهوت فى الجامعة كان قد فقد إيمانه بالمسيحية وبالله كليَّةً. كان يدخّن السجائر طوال اليوم بشراهة ثم يبكى بعد أن تنفذ سجائره ونقوده. وقد كان له كبرياء غريب فكان لا يقبل معونة من أحد. وأردنا ذات مرة أن نجمع له بعض المال ونعطيه إياه دون أن نجرح كبرياءه. فقررنا تنظيم دورة لتنس الطاولة وسألنا كل واحد أن يدفع ثلاثة ماركات ألمانية على أن ينال الفائز الأول كل المبلغ فى النهاية. وكنا قد إتفقنا أن نترك "فيلى" يفوز بالدورة حتى يقبل المال بعزة نفس. ولكن الطفل الكبير "أولاف" كاد أن يفسد كل شىء فى الدور قبل النهائى. فقد نسى ما إتفقنا عليه وكان يصمم على الفوز. فأخذته على جنب وذكّرته بإتفاقنا فترك "فيلى" يفوز. وكان كل من يلعب ضد "فيلى" يجد صعوبة كبيرة فى الخسارة لأن "فيلى" كان لاعباً سيئاً للغاية. ولكنه كان على درجة من الجنون جعلته فى النهاية يصدّق أنه الفائز الحقيقى. فأخذ المال بسعادة وإشترى الكثير من علب السجائر..

كانت علاقتى جيدة بالجميع هناك.. وكان الجميع يحبوننى ويحترموننى. لم يلعب الدين ولا لون البشرة أى دور فى علاقتنا. كنا نرى أنفسنا فقط كبشر لا يفهمون العالم ولا يفهمهم العالم. وكانت الدموع تسيل حزناً عندما يترك أحدنا المستشفى. ولكن الدموع كانت فى أغلب الأحيان بدون داعى. فقد كان معظم من يغادر المستشفى يعود بعد أيام لأنه لا يطيق الحياة مع البشر "العاديين". فقد خرج الطيار من المستشفى ثم ذهب إلى إحدى الحانات وكسّر زجاجها فجاءت به الشرطة إلى المستشفى من جديد..

وقد كانت مستشفى المجانين قد صارت واحة هروب لمعظم النزلاء من ضغوط الحياة الخارجية ومتطلبات العالم "الطبيعى". صارت المستشفى قفصاً ذهبياً يحتضن المعتوهين ويتعامل معهم على قدر عقولهم ومتطلباتهم وعيوبهم.. فقد كان كل شىء تقريباً مسموحاً. كان الفرد يزحف على الأرض وقتما يشاء ويصرخ إذا أراد ويغنى أينما شعر برغبته فى الغناء. كان "أولاف" يتبول فى قصرية الزرع دون عقاب وكان "منفرد" يقفّش مؤخرة الممرضة دون تعنيف. ولذلك فقد لم يكن أحد يرغب فى مغادرة ذلك الكهف المسالم ليعيد أقلمة نفسه على العالم الخارجى بقوانينه الغريبة.. ولكننى كنت أريد الخروج بإلحاح.. كان شىء ما بداخلى لا يزال يريد الحياة. حاولت كل ما بوسعى لأقنع الطبيب بالإفراج عنى ولكنه قال ان الأمر صعب للغاية، فأنا أرقد هنا بأمر قضائى ولابد من الشفاء شبه التام حتى أترك هذا المكان ولا بد من مراقبتى لفترة طويلة قبل تسريحى...

لم يزرنى فى المستشفى غير أنطونيا المخلصة وطالب جزائرى واحد كنت أعرفه من الجامعة. كان معظم الزملاء يخشون من دخول مثل هذه الأماكن "الخطيرة". دخل علىّ الزميل العربى حاملاً القرآن فى يده وقال لى :

- "المؤمن مُصاب دائماً يا شاكر!"

- "والله لو كان هذا صدق فلابد أن أصبح أنا أمير المؤمنين" قلت له ساخراً.

- "ماذا تفعل هنا يا أخى؟ علاجك ليس فى دواء الغرب ولكن فى جذورك التى بعدت عنها!"..

تلى علىَ الزميل الجزائرى من القرآن "ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم" فقلت له

- "لست أنا من نسى الله بل هو الذى نسينى ونسى العالم كله منذ زمن!"

"إستغفر الله يا أخى واسأله الرحمة. فهو وطننا الوحيد فى الغربة ورجاؤنا إذا إنقطع الرجاء" قالها وأهدانى المصحف.

رحت أقرأ القرآن فشعرت براحة نفسية غريبة. لم تكن معانى الكلام الذى قرأت هى التى جلبت علىّ الإرتياح وإنما مجرد الترتيل نفسه كان يذكرنى بطفولتى وقتما كنت أجلس أمام أبى أتلو عليه القرآن فيهز رأسه مستحسناً. نعم.. لقد كنت بحاجة إلى دينى ولكن ليس كنظام عقائدى وإنما كحلقة وصل بينى وبين ماضىّ وجذورى. رحت أتذكر مفهوم الجهاد كما شرحه لى أبى على أنه جهاد النفس والتغلب عليها.. لقد كنت فى

أشد الحاجة لهذا الجهاد فى موقفى هذا. كنت بحاجة إلى أن أتخلّص من رفضى للدين ومن خوفى أن أفقد الدين. ربما كان ذلك هو الجهاد الحقيقى الذى يجب أن أقوم به.

وبعد شهور تحسنت حالتى بعض الشىء فصرّح لى الطبيب بمغادرة المستشفى. خرجت من القفص الذهبى دون أن أودع أحداً ورحت أتأرجح فى العالم "العادى" وكأننى جئت من عالم آخر. كان كل شىء غريباً وبارداً من حولى. كنت لا أزال أعانى من الخوف والكوابيس ولكننى كنت مصمماً على أن أبدأ بدايةً جديدة.. كنت أود السفر ولكننى كنت لا أزال ممنوعاً من مغادرة البلاد. كانت إحدى موظفات المحكمة تزورنى من حين لآخر لتتأكد أن "شعرة الجنون "لا تعاودنى من جديد. وبعد شهور من المراقبة والمتابعة حصلت على العفو وسُمح لى بالسفر والتوقيع على الوثائق الرسمية مرة أخرى..

سافرت إلى مصر ولكننى ظللت فى القاهرة. فكنت لا أريد أن يرانى أهلى بهذه الصورة. فكنت قد فقدت أكثر من عشرين كيلوجراماً من وزنى وكنت أبدو مثل الشبح. وكنت لا أريد أن يرى أبى أن نبوئته قد تحققت. أقنعنى صديقى "حسام" بالذهاب إلى أحد الشيوخ البارعين فى طرد الجان من داخل البشر. كان ما تبقى من عقلى يناهض مثل تلك الخزعبلات، ولكننى ذهبت معه لأننى كنت أبحث عن حل سريع لمشكلتى، حتى لو كان هذا الحل سراباً لا أكثر. كنت أبحث عن حل خارجى كى أتجنب فتح "الباندورة" العجيبة المليئة بالأفاعى.

دخلت مع "حسام" إلى ساحة المسجد فوجدتها مكتظّة بالناس وكأنَّ نصف شعب مصر قد مسَّه الشيطان! وراح الشيخ أبو سرّ باتع يتلو القرآن والتعاويذ على الجمع فراح الناس يخرّون على الأرض الواحد تلو الآخر ويرتجفون وكأنهم دجاج مذبوح. وكان الشيخ يقترب من الشخص "الممسوس" فيقرأ القرآن فى أذنيه ثم يكبّر ويقول: "أخرج من يده.. أخرج من رجله.. أخرج من دُبُره.. أخرج من قُبُله!" ثم يغرّ الشخص الطريح بإبرة فى إصبعه أو قدمه حتى تسيل منه كمية كبيرة من الدم. فيقوم الشخص عافياً وكأن شيئاً لم يكن.. كنت أنظر لهذا المشهد وكأنه حلم أو منظر إخترعه مخرج سينيمائى ساخر. وجاء دورى وراح الشيخ يلطمنى ويركلنى ولكن يبدو أن شيطانى كان عنيداً فلم يخرج فى هذه المرة. طلب منى الشيخ العودة مرة أخرى.. ولكننى لم أفعل!

السـلام التـام

شعرت بتحسن نسبى بعد هذه الرحلة. فعدت إلى ألمانيا ولكنى لم أواصل دراستى فى الجامعة التى لم أدخلها منذ أكثر من عام. عملت من جديد فى مغسلة السيارات ورحت أجمع المال. حاولت العودة للصلاة ولكنى لم أستطع هذه المرة، فرميت سجّادة الصلاة فى صفيحة الزبالة. أرسل لى "أولاف" رسائلاً شبه يومية من المستشفى يتفلسف فيها عن سر الشر فى نفوس البشر فقلّب علىّ المواجع. رددت عليه مرة واحدة كتبت له فيها ألاّ يراسلنى بعد اليوم لأننى لست من سكان الكواكب الأخرى! كنت لا أريد أن يذكرنى شىء بهذه الفترة العصيبة من حياتى.

تعرّفت من خلال طبيبتى "جيزيلا"على عالم التأملات الهندية. فقد كانت تنظم فى بيتها ندوات عن الروحانيات الشرقية والتأملات. وعرضت ذات مرة شريط فيديو يتحدث فيه رجل هندى وسيم يعيش فى أمريكا إسمه "ماهاراجى راوات" وكان يختلف عن أى "جورو" هندى آخر فقد كان حليق الذقن يرتدى ملابس غربية ويطير بطائرته الخاصة بنفسه. "هل تبحث عن إجابة؟ إنك أنت الإجابة! فكل ما تبحث عنه فهو بداخلك!" كانت هذه هى رسالته البسيطة التى كانت تذكرنى بالصوفية. قال "ماهاراجى راوات" إنه يعطى كل تلميذ يستمع إليه لمدة عام مجموعة من التمارين السرية تخلق منه إنساناً آخر. فإذا أبدى التلميذ جديةً فى الإنصات سيعلمه ماهاراجى هذه التمارين بنفسه وبدون مقابل. كانت دعوة مغرية وجاءت فى حينها.

تعرفت على الكثيرين من أتباع هذا الـ "ماهاراجى" فى ألمانيا وكان معظمهم مثقفين وأغنياء. بالطبع كان بينهم أيضاً بعض الرعاع والفقراء ولكن هؤلاء كانوا الإستثناء. وكانت "جيزيلا" قد تعرفت على "ماهاراجى" وهو طفل صغير جاء لإلقاء المحاضرات فى إحدى المدن الألمانية فأعجبت برسالته وتعلمت منه تقنيات التأملات السرية، فتحولت من إنسانة فاشلة مدمنة للمخدرات لإنسانة سعيدة أكملت دراستها وأصبحت طبيبة وتزوجت وأنجبت ستة أطفال.

كان نموذج "جيزيلا" يغرينى أن أخوض تجربة "ماهاراجى" ففعلت. عجبت كم من الألمان يبحثون عن الأشكال المختلفة للروحانيات. كنت أظن أن الله قد مات الى الأبد فى أوروبا ولكننى رأيت الكثير من البدائل التى يعرضها مجتمع الإستهلاك كعوض عن الله : دورات تأمل سريعة ودورات التعرّف على الذات. كان السوق يمتلىء بالكتب عن الروح وأسرار السعادة وتأثير النجوم على القدر. وكان ذلك يشبه ما تقوم به المصانع والشركات الكبرى مثل "مرسيدس" و"بى. إم. دبليو" فهى كثرما تقوم بتنظيم حفلات موسيقية للدعاية للحفاظ على البيئة بالرغم من أنها أكبر ملوّث للبيئة. ولكننى لاحظت أن أتباع "ماهاراجى" كان لديهم إستمرارية أكثر وإخلاص فى البحث. فكان معظمهم يعرف ماهاراجى منذ سنوات عديدة ويسافر لكل أركان العالم كى ينصت لمحاضراته. وكان كل من حصل على التقنيات السرية يقول انها حولت حياته تماماً.. وكان من بين مريدى ماهاراجى رجل كبير السن إسمه "هنرى". كانت تعجبنى بساطته فى التفكير والحياة وروحه الخفيفة. كان من

أسعد البشر الذين التقيت بهم فى حياتى وقد صرنا أصدقاء فى وقت قصير. ثم جاءت المفاجأة التى كادت تقضى على صداقتنا. فقد أخبرنى أنه يهودى الديانة وأنه يتعاطف - مثل كل اليهود - مع شعب إسرائيل رغم أنه أمريكى الجنسية. بل وقد علمت منه أنه كان يسكن إحدى المستوطنات الإسرائيلية فى سيناء فى السبعينات.. أى أنه كان يعمّر الأرض التى نهبتها إسرائيل من مصر بعد حرب النكسة.. الأرض التى فر منها أبى زاحفاً على الرمال. كانت مفاجأة قاسية. فقد كنت أعتز بصداقته وكان علىّ أن أقطعها لأننى لم أكن أستطيع أن أتناسى عداء السنين لمجرد أنه رجل ظريف..

وكان ما أدهشنى هو أن "هنرى" لم تنطبق عليه أية صورة من الصور النمطية التى كانت بذهنى لليهود: فهو لم يكن يمتلك بنكاً ولا محطة تليفزيونية ولا شركة إنتاج سينيمائى.. ولم يكن يبدو عليه أنه غليظ القلب أو متكبر أو بخيل. بل كان هذا الرجل فقيراً جداً ومع ذلك كان فى غاية الكرم والسخاء. كان حنوناً مرحاً. أصيب بالحزن عندما قلت له أنى لا أستطيع أن أستمر فى صداقتى معه وقال لى: أنت لست عبد الناصر وأنا لست "ليفى إشكول"".

رحت أنصت لمحاضرات ماهاراجى عبر الفيديو وكانت تعجبنى آراءه فى الحياة. وكنت أجهز نفسى لكى أتلقى منه التقنيات السرية للتأملات.. وفى الوقت نفسه قررت أن أترك ألمانيا وأبحث عن بلد جديد أبدأ فيه بداية جديدة. فقررت السفر الى اليابان. ولماذا اليابان؟ أولاً: نظرت إلى خريطة العالم وكنت أريد أن أذهب إلى أقصى الغرب أو أقصى الشرق. وكانت اليابان تقع فى آخر الدنيا من الشرق. ثانياً: أوحت إلى القصص والقصائد والرسوم اليابانية بجو من السلام والروحانية الهادئة.. كانت اليابان ترتبط بذهنى بحديقة منسقة ومنمّقة بها بحيرات صغيرة وأحجار جميلة. وكنت أتذكر مسلسل "أوشـــين" الذى أوحى لى أن الزوجة اليابانية هى أكثر النساء إخلاصاً لزوجها مهما كانت الظروف. واصلت عملى فى مغسلة السيارات كى أجمع المال لرحلتى الجديدة. كنت أتخيل ماهاراجى يحدثنى عن رأيه فى قرارى بالذهاب الى اليابان. أظنه كان سيقول: إلى أين تريد الذهاب؟ ومن ماذا تهرب؟ تخيّل لو أن حذاءك به حجر مدبب يضايقك. كم من الأميال يجب أن تجرى حتى يتوقف الحجر عن إيلامك؟!

كنت أعلم الإجابة. كنت أدرى أنه لا فائدة من الهروب وأن المشكلة بداخلى أنا. وأن علىَّ أن أتوقف عن المسير وأجد الشجاعة لأنزع حذائى وأخرج منه الحجر. ولكننى كنت مرهقاً وكنت لا أزال غير قادر على المواجهة.

إنتهت فترة إختبارى عند ماهاراجى وتم ترشيحى لكى أتلقى التأملات السرية منه مباشرة فى "تايوان" فطرت إلى أقصى الشرق وكنت أنتظر اليوم الموعود بفارغ الصبر. قضيت الليلة التى سبقت لقائى بماهاراجى فى إضطراب جميل. رحت أتخيل التأملات وهى تحول حياتى من بائس يائس إلى شخص متفائل وسعيد مثل "جيزيلا" و"هنرى". تجاهلت الفتاة التايوانية الجميلة التى جاءت لترتيب غرفتى قبل خروجى من الفندق رغم فضولها الكبير عنى ورغم غزلها الصريح معى. فقد كنت لا أريد أن أفسد الجو الروحانى الجميل المخيم علىّ. ذهبت إلى مكان الإجتماع سعيداً وكأنه يوم عرسى. جلست فى القاعة الكبيرة بين آلاف من طالبى الخلاص الروحى من كل أنحاء العالم. بدأ ماهاراجى فى الحديث بلهجة أكثر جدية من لهجته الناعمة المعتادة. طلب منا قَسَماً مقدساً ألّا نبوح بسر التأملات لأى شخص آخر وأن نكرس حياتنا لخدمة "المعلم". رحت أتساءل فى داخلى : أى مُعلم وأى خدمة؟ هل لماهاراجى "نظام" سلطوى أيضاً؟ ألم يكن يقول من قبل: كل ما تريده فهو بداخلك؟ فلماذا القسم؟ على كل حال كنت أنتظر أن يفرغ "المعلم" من محاضرته ويبدأ فى تلقينى أسرار التأملات. أقسمت له كيفما أراد فراح يزيح الستار عن السر الدفين: أربعة تمارين للتأمل كانت أقرب لـ "اليوجا". أدت هذه التمارين الأربعة الى نوع من الإسترخاء بداخلى بالفعل ولكننى لم أشعر بأى تغيّر وجدانى على الإطلاق. لم أحس بأى تجربة روحانية بالمرة. خرجت من القاعة ورأيت الدموع فى عيون الآخرين. يبدو أننى كنت هنا أيضاً الوحيد الذى كان قلبه مغلقاً.

ما سبب هذا؟ هل أنا سجين أزلى فى العالم الواقعى المؤلم؟ يبدو أننى لا أستطيع أن أرى الوجود إلاّ فى أكثر صوره تجرداً وعرياً. هل تحطّم هذا الجزء من مخى المسؤول عن الروحانيات؟ أم أننى ولدت بدونه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا ألهث راجياً خلف كل من يبيع الروحانيات؟ ولماذا لا أقتنع إذاً أنه لا يوجد شىء أكثر مما أرى وألمس من حولى؟ فلا روح ولا غيبيات ولا إله؟! ولكن أليست الرغبة فى البحث عن الله هى دليل على وجود الله؟ أليس العطش دليلاً على وجود الماء؟ ولكن أين هو هذا الماء؟ لماذا أتيه فى كل صحراء وألهث خلف كل سراب ثم أعود مرهقاً خائب الأمل؟ كانت خيبة أملى شديدة جداً أنى قطعت كل هذه الأميال من أجل بعض تمارين "اليوجا". وفى الصباح التالى دفعت لعاملة الفندق التى جاءت لترتيب غرفتى مبلغ 20 دولاراً فنزعت عنها ملابسها ومارست معى الجنس..

***

طرت بعد ذلك إلى اليابان ولم أر"انطونيا" بعدها أبداً، وكأنها لم توجد فى حياتى من الأصل. قدّمت أنطونيا بعد أسابيع من سفرى أوراق الطلاق إلى المحكمة وحصلت عليه فى غيابى. ربما كنت فقط أستغل هذه المرأة الطيبة. فقد كانت مجرد محطة هروب لى. لم أقل لها حتى "وداعاً" أو "شكراً على كل ما فعلتى من أجلى!"

نظرت من نافذة الطائرة إلى مدينة "أوساكا" فلم أر حدائق ولا معابد وإنما نسخة مشابهة لفرانكفورت.. مدينة حديثة ذات أنوار وبنوك ومصانع. فوجئت فى المطار أن اليابانيين يتحركون بسرعة شديدة دون أن يصطدم بعضهم ببعض.. لم يتكلم أحد ولكن كل الماكينات كانت تتكلم لإرشاد من يشترى التذاكر ثم شكرهم بعد أن ينتهوا من الشراء..

رحت أدرس اللغة اليابانية قرب "أوساكا" ثم بدأت بالعمل فى أحد المطاعم ثم كمدرس للغات الإنجليزية والألمانية بإحدى المدارس الخاصة. لم أذهب خلال إقامتى باليابان مرة واحدة إلى المسجد ولم أكن حتى أعلم أين يجتمع المسلمون. كنت مع الوقت قد نسيت حتى أنى "مسلم"، حيث أن أحداً من اليابانيين لم يسألنى أبداً عن دينى، فقد كانوا حينها لا يعلمون أى شئ عن الإسلام إطلاقاً. معظمهم كان يظن أنى "أمريكى" لأن اليابان

تكاد تكون خالية من الأجانب الغير آسيويين.
إشتريت جواز سفر لدخول المعابد فى اليابان، وهو ما يفعله الحجاج البوذيون هناك.. وكنت أحصل على ختم كل معبد وتوقيع راهبه. وكنت أعتبر كل ختم خطوة فى طريقى إلى سلامى الداخلى. حاولت جاهداً أن أحتفظ بصورة اليابان المثالية فى رأسى أكبر وقت ممكن. ولكن سرعان ما إكتشفت أن اليابانيين أيضاً بشر ولهم مشاكلهم وعدوانيتهم.. ولكنهم لا يسمح له بإبراز شعورهم لأحد. فاليابانى يفضل أن يحتفظ برأيه لنفسه حتى لا يعكر صفو الوئام الإجتماعى الذى هو أهم شىء فى اليابان بجوار العمل والمال. ولكن هذا السلام الإجتماعى لم يكن سوى نفاقاً مهذباً أو كومة من الكذبات البيضاء والسوداء.. إذ كيف توجد صداقة بدون مصارحة ورأى واضح.. وكيف يوجد حل حقيقى للمشاكل بدون نقاش مفتوح؟ ولكن اليابانيين كانوا يعتمدون فى حل مشاكلهم على نفس طريقة المصريين : بكنسها تحت السجادة!
رأيت المجتمع اليابانى مقسماً إلى طبقات وكل شىء مبنى على الأسبقية والمراتب.. فالشركات والمصانع وحتى الجامعات مبنية على نظام سلطوى درجى ليس فيه متكافئون بل "أعلى وأدنى".. وحتى الطلبة مقسمون الى سابق ولاحق.. وكان ذلك يزيد من صعوبة وجود صداقات. فاليابانى لا يقدم نفسه كفرد وإنما يذكر إسم شركته أو جامعته قبل ذكر إسمه..
اليابان جزيرة منعزلة عن العالم تماماً والمجتمع اليابانى مغلق إغلاقاً محكماً ومحاط بطقوس كثيرة وشاقة، مما يجعل إنصهار أى أجنبى هناك أمراً فى غاية الصعوبة. والأجانب فى اليابان مقسمون إلى : أجانب غير مرحب بهم وهم الكوريون والصينيون والآسيويون. وأجانب الدرجة الأولى وهم الأمريكيون والأوروبيون. وكان الصنف الأول غير مرحب به لأنه يعيش فى اليابان بصفة دائمة وله بنيته التحتية الخاصة به. كما أن علاقة اليابان بجيرانها مثقلة بجرائم اليابان فى الحروب العالمية ورفض اليابان الإعتذار عن هذه المذابح لسنوات طويلة. أما الصنف الثانى - والذى كان اليابانيون يحسبوننى عليه - فقد كان يعيش لفترة محدودة فى اليابان ثم يغادر إلى بلده.. وكان للأجانب المؤقتين معاملة خاصة، فلا ينتظر منهم أحد أن يتقنوا اللغة اليابانية أو طقوس الأدب المعقدة. وقد أعطانى ذلك قدراً من الحرية أن أتعرف على الكثير من جوانب المجتمع اليابانى وأخوض العديد من التجارب هناك دون أن أخاف من أن أقع فى خطأ إجتماعى فادح..
أعجبنى فى اليابان فى بادىء الأمر أن كل واحد كان فى حاله، فلا فضول ولا سؤال عن دين أو تاريخ ولا الخوض فى نقاشات عميقة. وكان ذلك مهم بالنسبة لى لكى أعيد توازنى من جديد. ولكن المميزات الخاصة بالأجانب المؤقتين سقطت عنى بمجرد أنى بدأت فى العمل فى اليابان.. فعندما لاحظ اليابانيون أنى أصبحت أجيد اليابانية كانوا ينتظرون منى أن أستخدم مصطلحات الأدب. وكنت قبل أن أعمل مدرساً قد وجدت عملاً كـ "جارسون" فى مطعم خمس نجوم. وكان علىّ عندما أقدم الأكل للزبائن أن أقول عبارة تقليدية من باب الأدب ترجمتها الحرفية هى "معذرة فأنا قليل الأدب!" وكنت أرفض أن أستخدم هذه العبارة وأكتفى فقط بـ"معذرةً" ولكن مدير المطعم أصرّ على أن أستخدم العبارة فقررت ترك العمل..
لاحظت أن حقوق المرأة في اليابان ليست أفضل حالاً من مصر، رغم أن اليابان بلد "ديموقراطى". كنت أجلس فى القطار ورأيت رجلاً يابانياً يصرخ فى وجه امرأة غريبة عنه لأنها كانت تضع "الماكياج" فى القطار وقال لها بفظاظة "توقفى عن قلة الحياء هذه فوراً!" فلملمت المرأة مساحيقها وقالت فى تواضع وهى تتحنى له "معذرةً يا سيدى لسوء سلوكى!". ومن العجيب أن جار هذا الرجل بالمقعد المجاور كان يتصفح مجلة بها صور عارية تماماً لفتيات لم يبلغن السن القانونى بعد. ولكنه لم يعنفه على الإطلاق. فمعظم الرجال فى القطار كانوا يفعلون نفس الشىء. إنه أمر طبيعى جداً أن تحصل المرأة على راتب أقل من الرجل حتى ولو كانت بنفس مؤهلاته وتؤدى نفس مهامه.. والمرأة فى العمل تطهو الشاى لزملائها ولا ترفع صوتها ولا تقاطعهم إذا تحدثوا. والقليل جداً من النساء يعملن فى الوظائف الهامة. ومعظمهن ربات بيوت أو يعملن كبائعات فى المحلات حتى من حصلت منهن على الدكتوراة... وكانت لى زميلة يابانية فى الجامعة تعمل فى إحدى المتاجر الكبرى، وكانت وظيفتها الوحيدة هى أن تقف طوال النهار فى المصعد لتنحنى لكل زائر يستقلّه.. ووقعت حادثة غريبة فى مدينة أوساكا أثناء وجودى هناك أثبتت لى أن المرأة فى اليابان مهما كان منصبها فهى مواطن من الدرجة الثانية: كانت مسابقة رياضة السومو تقام فى أوساكا، وهى الرياضة التى يتصارع فيها رجلان فى غاية السِمنة يكسب منهما من يطرح منافسه أرضاً أو من يدفع به خارج حلبة المصارعة. وليس للاعب السومو وظيفة أو نشاط سوى الأكل والنوم حتى يصل لأكبر درجة ممكنة من السِمنة. ومن التقاليد المتوارثة لإتحاد رياضة السومو أن يسلم مُحافظ المدينة الجائزة للاعب الفائز. ولكن كان من التقاليد المتوارثة أيضاً ألا تطأ قدم امرأة حلبة المصارعة، لأن دم المحيض يدنس المكان ويجلب الأرواح الشريرة. وكانت المشكلة تكمن فى أن أوساكا قد إنتخبت للتو إمرأة كمحافظ.. فرفض إتحاد السومو السماح لها بالدخول للحلبة. طال الجدل حول هذه القضية حتى توصل أحد العقول الفذة هناك لحل يرضى جميع الأطراف: قررت اللجنة المنظمة للمسابقة استئجار "وِنش" صغير مثل ونش المطافى ليحمل السيدة "النجسة" بطريقة تجعلها تصل للحلقة دون أن تطأ بأقدامها فوقها. وهكذا تمكنت المُحافظة من تسليم الجائزة.
وكان أتفه ما فى اليابان هو التليفزيون. فقد كانت برامجه مليئة بالألعاب الساذجة والفكاهة الرخيصة وصور لفتيات صغيرات يرتدين الـ"بيكينى" وكأن التليفزيون هناك قد اخترع لتسلية 130 مليون معتوه. ولكن لا يتسلى بالتليفزيون فى اليابان سوى ربات البيوت. فالرجال هناك يبحثون عن أنواع أخرى من التسلية : فهناك مشاهدة سبق الخيل ومباريات كرة "البيسبول" ولعبة قُمار إسمها "باتشينكو" بالإضافة إلى التسلية السرية الليلية. فهناك في اليابان 2 مليون فتاة يعملن فى الملاهى الليلية ونوادى الإستضافة وبيوت الدعارة. ويشير هذا الرقم الهائل من العاملات إلى الحاجة الملحة للترفيه عن الرجل اليابانى بعد عناء يوم عمل طويل. وذهاب الرجل إلى مثل هذه الأماكن أمر بديهى ومقبول للمرأة التى لا يُسمح لها أن تسأل زوجها أين كان. فهى تعلم أن هذا "عشاء عمل"..
اليابان ليس لها دين معين.. والمال هو الإله الحقيقى هناك. والعمل هو أول الأولويات. فلو فقد أحد وظيفته يوصم بالعار مما يؤدى فى أغلب الحالات للإنتحار.. ولكن بعضهم أيضاً ينتحر عملاً.. أى يموت من فرط العمل

.. وتقديس العمل يلاقى إحتراماً كبيراً فى اليابان.. فقد كان هناك مدرب لفريق "البيسبول" فى "أوساكا" وكان على فريقه أن يخوض المباراة النهائية فى نفس اليوم الذى كانت زوجته ستخوض عملية جراحية خطيرة. ففضل المدرب الذهاب اإلى مباراة فريقه على الوقوف بجوار زوجته. ثم جاءه نبأ وفاة زوجته أثناء المباراة. ولكنه لم يترك الملعب. ووقف يحتفل مع فريقه بعد المباراة بالفوز بالكأس ولم يلاحظ أحد أنه فقد زوجته للتوّ.. إنهالت وسائل الإعلام على الرجل بالمديح حتى لدرجة التقديس ولم ينتقد شخص واحد تصرفه. اليابان بلد مزدحم جداً ويتحرك فيه الناس بسرعة جنونية كالنحل الدؤوب. فلم أر هناك أبداً شخصاً يتسكع. الكل يعمل ويكد ثم يبحث فى آخر النهار عن تسلية رخيصة.. والرجال اليابانيون يعشقون البنات الصغيرة ويدفعون الآلاف من أجل فض عذرية الفتاة.. رأيت ذات مرة رجل يابانى "محترم" وهو يقف تحت سلم متحرك فى أحد المتاجر ويصور بعدسة كاميرا "الموبايل" فتيات المدارس وهن ينزلن من السلم ليلتقط ملابسهن الداخلية.. ورأيت أستاذى فى الجامعة فى "عشاء عمل" مع طلبة يابانيين وأجانب وهو يشرب الخمور بنَهَم.. وإدمان الخمور أمر مألوف جداً فى اليابان ويمثل مشكلة حقيقية لا يتحدث عنها أحد .. وفجأة بدأ الأستاذ في البكاء بدون سبب فراحت إحدى الطالبات اليابانيات تواسيه. فراح يحسس على شعرها وظهرها أمام الجميع وهى لا تستطيع إيقافه. حتى عندما جرح شعورها بقوله لها : " لماذا لا يزال ثدياك صغيران هكذا؟" لم تجرؤ الفتاة على أن تطالبه بالكف عن "قلة الادب!" "أى سلام إجتماعى هذا؟" رحت أسأل نفسى. فالمجتمع كله مبنى على مبادىء العمل الشاق والتنافسية الطاحنة والترفيه الرخيص.

وإذا كان اليابانيون يخشون شيئاً فهم يخشون جارهم المجنون "كيم جون إل" فى كوريا الشمالية الذى يهددهم من وقت لآخر بإلقاء الصواريخ عليهم . وهم أيضاً يخافون من الشيخوخة والعجز، فمجتمعهم هَرِم جداً. وكثير من العجائز محبوسون فى بيوت المسنين يقوم على خدمتهم "رجل آلى" يحملهم مرة كل يوم بذراعيه ويغطّسهم في "بانيو" ساخن ثم ينتشلهم منه كشرائح البطاطس المحمرة ثم ينشفهم ويعيدهم إلى السرير.. فلا يد حنونة تلمس ولا عين محبة تبتسم. وهذه نتيجة تقديس العمل أكثر من اللازم، فيصير من لاعمل له أو من هو غير قادر على العمل مجرد عقبة يجب التخلص منها..

كنت أعيش فى بيت عائلة يابانية ولكنى لم أخض معهم في حوار واحد، وكنت عندما أنتقد جوانب معينة فى المجتمع اليابانى كانوا يبتسمون بحرج ولا يردون. كان رب الأسرة يسهر فى الملاهى بينما تكسر زوجته مللها بشرب الخمور طول النهار. وهذه ظاهرة معروفة فى اليابان يسمونها "سُكّيرات المطابخ". ولكن الجميع يتغاضى عن مثل هذه الظواهر ولا يتعرض أحد لمناقشتها بصراحة. حتى زملائى في الجامعة كانوا لا يجيدون النقاش.. وفجأه شعرت بأنى أفتقد الألمان وصراحتهم.. كنت أفتقد نقاشاً ساخناً يقول فيه كل واحد رأيه بصراحة..

بدأت أتأكد أن مشكلتى ليست البلد الذى أعيش فيه وإنما "أنا" والحجر الأزلى فى حذائى!!

ولكن أعجبنى إحترام اليابانيين لكل دين.. كل الديانات مسموحة وكلٌّ له الحق فى بناء مسجده أو معبده أو كنيسته. ربما كان ذلك نابعاً من تسامح اليابانيين أو من عدم مبالاتهم بالآخرين. ولكنه شئ مدهش أن ترى المعبد "البوذى" بجوار المعبد "الشنتوى" بجوار الكنيسة.. واليابانيون يخلطون بين الطقوس المختلفة للأديان المختلفة. فالمولود الجديد أو السيارة الجديدة يباركها راهب المعبد "الشنتوى" الذى يؤمن بألوهية الأجداد والطبيعة.. وإذا تزوج اليابانى فإنه يعقد قرانه غالباً فى الكنيسة الكاثوليكية حتى لو لم يكن مسيحياً، وكأن ذلك دليل على المدنية والإقتراب من الأوروبيين والأمريكان.. أما الموت فهو فى يد بوذية، يجرى طقوسه المعقدة الراهب البوذى. ولا شئ فى اليابان أغلى من الموت، فطقوس الحرق غالية وطقوس الدفن أغلى ومكان الدفن أغلى وأغلى. فاليابانيون يحرقون جثث موتاهم ولكنهم لا ينثرونها فى الهواء مثل الهندوس. وهناك دين آخر له أثره فى اليابان وهو تعاليم الحكيم "كونفوشيوس" - الذى يسميه اليابانيون "كوشى" - المبنية على التسامح والوئام بين البشر والطبيعة واحترام المسنين.. وفى الواقع فإن تعاليم كونفوشيوس لا تُعتبر ديناً بالمعنى المألوف فهو لا يتحدث عن إله أو سماوات. واليابانيون لا يقدسون "كونفوشيوس" ولا يعتبرونه نبياً.. وأهم الفضائل عند كوشى هى الحب (جن) والحشمة (لى)، وهو صاحب الحكمة المشهورة: "أحب لغيرك ما تحب لنفسك!"

ربما لاحظتم أننى أتحدث طول الوقت عن اليابان ولم أتحدث عن نفسى أو عن حياتى بها. فلم تكن حياتى هناك إلا مجرد هروب. حاولت إرساء غطاء خرسانى فوق روحى المتألمة كما فعل السوفيت فوق مفاعل "تشرنوبل" بعد انفجاره. كنت أحاول أن أقنع نفسى أننى قد وُلدت من جديد.. حاولت أن أجرّب كل شىء بدون أدنى اعتبار لدين أو ضمير. كنت أريد أن أستمتع بالحياة فى اليابان وأن أستجم من عناء السنوات الماضية. كنت أصادق اليابانيات والأجنبيات الجميلات لفترة بسيطة ثم أقطع علاقتى بهن بدون سابق إنذار. ولكن اليابانيات يختلفن عن الأوروبيات فهن عندما يدخلن فى علاقة - حتى ولو كانت قصيرة - يلقون بكل ثقلهم فيها، ويقعون فى غرام الشخص بعمق. وقد جرحت مشاعر الكثيرات منهن. كنت أستغل الفتيات الطيبات كمنديل ورقى أمسح به عرقى أو دموعى ثم أرميه فى أقرب سله مهملات.. فأنا رجل من بلد الرجال يعيش فى عالم يحكمه ويكتب تاريخه ويخوض حروبه الرجال!

كنت أترك النساء بسرعة، ربما لأننى كنت أخشى أن يبادروا هم بتركى إذا علموا بحقيقتى. أو ربما كان يصعب علىّ الوقوع فى غرام إمرأة لأننى كنت أعرف أننى سأقارن حبها لى بحب أمى لأبى، فتخسر أى إمرأة أقارنها بأمى.. كنت غير قادر على الحب أوالإيمان بدوام المحبة بين البشر. كنت أظن أبى وأمى إستثنائين لم أجد لهما مثيلاً..

كنت أفضل العلاقات المفتوحة.. وكانت لى علاقه مفتوحة مع إحدى تلميذاتى فى المدرسة الخاصة التى كنت أدرِّس فيها الإنجليزية والألمانية، وكانت تلميذتى تعمل مغنية فى ملهى ليلى. ودعتنى مرة لحضور إحدى حفلاتها هناك فذهبت معها وتعرفت على صاحب الملهى، فراح ينظر إلى بغرابة وهو يقول: "أنت شاب وسيم.. ملامحك لاتينية وشعرك أسود ومموج.. رائع.. رائع.. هل أنت قادر على التدخين وشرب الكحول بكثرة؟" لم أفهم أى شئ مما قال أولاً وكنت أظنه شاذاً، ولكنة شرح لى الأمر، فقد كان يمتلك أيضاً ملهاً ليلياً خاص بالنساء فقط،

تأتى إليه النساء الثريات ليرفهن عن أنفسهن مع الشباب الصغير خلال رحلات عمل يقوم بها أزواجهن.. فقال لى صاحب الملهى ان النساء اليابانيات يعشقن الأجانب من عينتى.. وانه مستعد أن يدفع لى 400 دولار أمريكى فى الليلة لو قبلت العمل بملهاه. لم أفكر كثيراً وقبلت العرض، ليس فقط بسبب الإغراء المالى، ولكن لأننى كنت أريد أن أخوض تجربة جديدة... وقد كانت حياتى كلها تحولت منذ زمن إلى مجرد "تجربة معملية"... وحياتى كانت بالفعل مليئة بالعار فلا مانع من عار جديد مدفوع الثمن. كان علىّ فقط أن أشرب الويسكى والبراندى وأدخن السجائر مع اليابانيات الشاعرات بالملل فى حياتهن وأقدم لهن بعض المجاملات، فقد كن فقط بحاجة لمن ينصت إليهن. وكانت النساء - على عكس الرجال - يفعلن ذلك فى الخفاء. فلو عرف زوج إحداهن بذلك كان يحق له تطليقها وحرمانها من كل حقوقها المشروعة.. وقد كان يعمل معنا فى الملهى شاب أسترالى وقعت إحدى اليابانيات فى غرامه فتركت زوجها من أجله، فاستأجر زوجها "فتوة" من عصابات "الياكوزا" المشهورة وسلّطه على الشاب الأسترالى حتى أجبره على مغادرة اليابان.

بدين أو بدون الدين، الرجال دائماً قادرون على تضييق الخناق على زوجاتهم وحرمانهم مما يُحِلّونه لأنفسهم.

تعرفت فى عملى على كثير من النساء. ولم تكن كلهن كبيرات العمر بل كان بين زبائنى أيضا بنات مدارس من عائلات غنية، بل وعاهرات أيضا كن يرغبن فى تغيير الأدوار ولعب دور "الزبون". وكانت معظم النساء بالفعل لا ترغب إلا فى الحديث للتنفيس عن الكبت والملل، ولكن إحدى زبائنى دعتنى ذات مرة إلى العشاء فى مطعم بأحد فنادق المدينة الفاخرة.. وكانت هذه شفرة معروفة : إذا كان المطعم فى فندق يعنى "الليل وآخره!" قالت لى : "أريد أن أتناول معك العشاء ثم نستريح قليلاً بغرفة فى الفندق" لكى لا تدع مجالاً لسوء الفهم. ثم قالت "عندى لك هدية رائعة!" فقبلت دعوتها، فقد كانت لا تزال صغيرة وكانت على قدر لا بأس به من الجمال. قادتنى بسيارتها إلى الفندق وعندما وقفت معها أمام الفندق تحجَّرت قدماى فجأة ولم أقو على مواصلة الذهاب معها.

"أنا آسف جداً. أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك!" قلتها بحرقة.

شعرت المرأة بالخزى ولكنها فهمت موقفى وقادتنى بعدها لمنزلى.

إتصلت فى اليوم التالى بصاحب الملهى وقلت له انى سأترك العمل لألتفت لدراستى. وتنازلت بذلك عن مكسب كان يحلم به أى شاب. ولكن ما سر هذا "الشرف" المفاجئ؟ وما الفرق بين عار وعار آخر؟ ألم امارس الجنس مع خادمة فى الفندق التايوانى منذ شهور مقابل المال؟ ألم اضاجع العاهرات والساقطات من قبل؟ فماذا حدث؟

رائحة الحب الأول

مضت سنة لى فى اليابان وكنت لا أزال لا أدرى ماذا أفعل هناك بالضبط وماذا أنوى للمستقبل. ولكننى كنت أبحث من وقت لآخر عن نشاط يلهينى. شاركت فى مؤتمر دولى عُقد فى مدينة "كيوطو" العريقة والتى كانت عاصمة اليابان قبل "طوكيو". دار المؤتمر حول "دور الشباب فى زمن العولمة". وكانت تتناقش فيه نخبة من العلماء وصانعى السياسات والمفكرين مع 30 طالب وطالبة من 30 دولة مختلفة. وقد ذهبت إلى المؤتمر ممثلاً لبلدين، فقد كتب على صدرى "مصر/المانيا". إنتهى اليوم الأول بعد مناقشات ساخنة. نظم الطلاب فى مساء اليوم الأول حفلة رقص بإحدى قاعات الفندق الذى كنا نقيم فيه. وكنت أرقص مع طالبة إسرائيلية تعرَّفت عليها، وأعجبنى أنها كانت تنتمى لجماعة "جوش شالوم" أو "السلام الآن" وأنها تشارك فى إسرائيل فى مظاهرات إحتجاج ضد المستعمرات. كانت جميلة وكان لها طابع شرقى.. وكانت ترقص معى على أنغام موسيقى تركية رقصاً شرقياً "فشر سهير زكى"! كنت أمسك أثناء الرقص بزجاجة نبيذ أحمر وأشرب من فوهتها كأننى مسطول محترف. كانت الإسرائيلية ترقص بإغراء وصعد الخمر فى نفوخى وكانت كل الدلائل تشير إلى أن هذه الليلة ستكون طويلة وأن مفاوضات السلام لن تكون شاقة جداً فيها.. وأصبح واضحاً من نظراتها وإيماءاتها أنها تود عقد معاهدة سلام من نوع خاص فى نهاية المطاف.

وفجأة دخلت القاعة الطالبة التى تمثل اليابان فى المؤتمر.. وكانت أجمل إمراة رأيتها فى اليابان بل وفى العالم كله.. كانت طويلة.. أنيقة ذات شعر أسود طويل جداً وعيون واسعة لم أر مثلها فى اليابان من قبل وبشرة بيضاء تختلف عن البشرة الأسيوية. دخلت القاعة بثقة وراحت "تتمختر" فى فستانها الأزرق الغالى وجلست على كرسى بأحد أركان القاعة.

كنت أتذكر أنها كانت الوحيدة التى طلبت مثلى غذاءً نباتيا هذا الصباح وكانت مثلى أيضا تمثل دولتين. ولكنى نسيت الدولة الأخرى. حاولتُ مواصلة الرقص حتى لا تلاحظ الإسرائيلية أن إهتمامى قد تحول تماماً. ولكننى لاحظت أن اليابانية الجميلة كانت تنظر إلى طول الوقت. حاولت تجاهل ذلك وبدأت فى الرقص بطريقة "هستيرية" كى أطرد الإضطراب الذى بدأت أشعر به. نظرت إلى فاتنة الشرق مرة أخرى خِلسةً فوجدتها لا زالت تنظر إلى بعين حنونة مبتسمة وكأنها كانت تريد أن تقول لى : "إهدأ قليلاً!". توقفت عن الرقص وقادتنى قدماى بطريقة غير إراديه إليها. فوقفت أمامها لا أدرى ماذا أقول. لاحظت أن كوبها قد فرغ من عصير

البرتقال الذى كانت تشربه فصببت لها من خمرى فى كأسها ولكنها ردت بحنان "آسفة.. أنا لا أشرب الخمور". جاء هذا الرد قاس جداً على نفسى ، ولكنى لم أدر لماذا.

نظرت إلى بإبتسامة ساحرة وسألتنى : "هل أنت مسلم؟"

شعرت بزلزال داخلى عندما سمعت هذا السؤال. فقد كنت أتوقع أى شئ منها إلا هذا السؤال فى هذا المكان. لم يكن الوقت المناسب على الإطلاق.. إذ كانت قنينة الخمر بيدى وإسرائيلية جميلة فى حلقة الرقص تنتظر السلام العادل الشامل فى آخر الليل. خيّم على الصمت تماماً ولم أجد رداً لها ولا لنفسى. رحت فقط أنظر لعينيها الجميلتين وجبينها الذى ينم عن شخصية شجاعة وشفاها الخمرية التى توحى بأنها إنسانة عنيدة وحساسة فى نفس الوقت.

"هل أنا مسلم؟" طرحت السؤال على نفسى بداخلى. "من أنا؟ أنا لا أعرف من أنا. أعرف فقط من لست أكون. أستطيع أن أقول اننى لست يابانياً، لست أمريكياً.. ولكننى حتى لا أستطيع القول انى لست ألمانياً" قلت لنفسى دون أن أفتح فمى. لاحظت الجميلة صمتى وإرتباكى فقالت :

"أنا آسفه جداً إذا كنت قد سببت لك أى إحراج بسؤالى. فقد ذهبت فى العام الماضى فى رحلة مع جدتى إلى "ماليزيا" ودخلت هناك الى أحد المساجد فشعرت بداخله براحة نفسية لم أعهدها من قبل. وإشتريت ترجمة للقرآن ورحت أقرأ فيها.. أعجبنى أن الله فى الاسلام ليست له صورة ولا ولد ولا صنم، وأن كل الناس سواسية أمامه.. وأن المسلم يستطيع أن يصلى لله مباشرة دون وساطة قسيس أو قديس. ولكن لا يزال عندى الكثير من الأسئلة التى لا يجيبها القرآن.. ولم أقابل منذ عودتى شخص مسلم واحد أطرح عليه هذه الأسئلة. وقد قرأت إسمك على صدرك هذا الصباح واستنبطت منه أنك مسلم" كان صوتها عذب جدا ولغتها مؤدبة للغاية.

"صوت الموسيقى عالٍ جداً هنا. دعينا نذهب لمكان آخر كى نتكلم بدون إزعاج" قلت لها لكى أكسب بعض الوقت أرتب فيه أفكارى. خرجنا من القاعة والإسرائيلية تنظر إلينا وهى لا تصدق ما ترى. جلسنا فى بهو الفندق وكنت لا أزال لا أجد ما أقوله.

-"ما اسمك؟" سألتها لكى أغير الموضوع بعض الشئ.

-"إسمى كونستانس" قالت بإبتسام. فأصبح من الواضح لى أنها ليست يابانية فحسب.

-"من أين يأتى هذا الإسم الأوروبى؟" سألتها بفضول.

-"أبى دانماركى وأمى يابانية" جاءت إجابتها توضيحاً لعيونها الواسعة وبشرتها البيضاء النقية. وقد جمع جمالها أجمل ما فى الشرق وما فى الغرب. وكانت نظراتها نابعة من شخص ينتمى إلى عالمين. حكت لى أن جدتها الدانماركية نصف بولندية، وأنها نشات فى عائلة تختلط فيها البوذية بالكاثوليكية بالبروتستانتية. كانت "كونستانس" تتكلم بجوار اليابانية والدانماركية والسويدية الإنجليزية والفرنسية والكورية، وقد بدأت فى التو فى تعلم الروسية والعربية.

-"مرحبا بك فى نادى الهويات المركبة!" قلت لها بإبتسام. يبدو أن أصحاب الهويات المعقدة لديهم جاذبية أكثر لعالم الروحانيات، وكأنهم يهربون من الإنشطار إلى الكمال!!

لم أحك لـ "كونستانس" شيئاً عن الإسلام التقليدى وعقيدتة ولكنى حكيت لها الكثير عن عالم الصوفية وفلسفتة. وقلت لها ان هذا هو أكثر جانب يعجبنى فى الإسلام.. كانت سعيدة جداً بما حكيت لها وقالت لى انها تشعر أنها غريبة فى كل مكان. فإذا ذهبت إلى الدانمارك لا يراها الدانماركيون كواحدة منهم لأن ملامحها الأسيوية واضحة وإذا عادت إلى اليابان لا يصدق اليابانيون أنها يابانية، فهى تختلف عنهم من حيث الشكل والشخصية وأسلوب الكلام. قالت انها لاقت صعوبات كبيرة عندما عادت مع عائلتها لأول مرة من الدانمارك التى ولدت ونشأت فيها واستقرت فى اليابان فى عمر الثانية عشر. فقد عانت فى تعلم اللغة والتعود على أسلوب الحياة والتفكير المختلفين عن أوروبا تماما. قالت انها كانت تبكى فى المدرسة عندما كان يقول عليها زملائها الطلاب "أجنبية". وقالت انه صعب جداً أن يكون لك وطنان وفى الوقت نفسة تكون بلا وطن. أحسست بتقارب شديد بين قضيتى وقضيتها، وكانت هى أيضا تشعر بذلك بفطرتها رغم أنى لم أحك لها أى شئ عن نفسى. أحسست أنى أريد أن أبقى معها طول الوقت.

-"كونستانس.. أريد أن أطلب منك طلباً، ولكن برجاء ألا تسيئى فهمى. هل ممكن أن تقضى هذه الليلة معى؟"

هزت رأسها بالإيجاب وهى تبتسم ابتسامة تنم على أنها فهمت أن نواياى غير سيئة.. ويبدو أنها كانت لديها نفس الرغبة أيضا. ذهبت معها إلى غرفتى وألقيت بنفسى على السرير. فإرتمت بجوارى ورحنا ننظر لبعضنا بعمق.. لم نقل أى شئ بعد ذلك فى هذه الليلة ولم نفعل شيئا. راح كل منا يغوص فى عيون الآخر ويقرأ فيها ما لم تقله الكلمات حتى غفلت عينانا ورحنا فى نوم عميق. كانت كونستانس أول إمراة تنام فى سريرى دون أن ألمسها. فقد كان إحترامى لها يفوق كل شئ وكانت مشاعرى تجاهها أقوى من أية رغبة جسدية.

وفى اليوم التالى كنا نستغل كل دقيقة فراغ ونقضيها مع بعضنا. بدأ الطلاب الآخرون يهمسون ويلمزون ولكننا لم نكترث بذلك. وبعد يومين إنتهى المؤتمر وعدت أنا إلى"أوساكا" بينما بقت "كونستانس" فى "كيوطو" التى كانت تعيش فيها وتدرس بجامعتها اللغات الأجنبية. ولكننا كنا نتزاور كثيراً. كانت تنام فى سريرى دون أن أمسها، وكنت أنام فى سريرها كطفل عاد إلى ذراع أمه بعد ضياع سنين.

ذهبت كونستانس معى فى جولة بمدينة "كيوطو" وراحت تشرح لى معالمها التاريخية. فكيوطو مدينة الحدائق والمعابد ولا يزال عرش اليابان موجوداً بها رغم إنتقال العاصمة لطوكيو. وكيوطو هى مدينة "الجيشا" والـ "دايو" وهن عاهرات مقدسات فى اليابان. فحتى الدعارة فى اليابان مقسمة إلى طبقات ودرجات أعلاها هى "الدايو" وقد كانت عاهرة خاصة فقط بالإمبراطور وحاشيتة و"الجيشا" كانت راقصات غاليات الثمن لا يقدر على زيارتهن سوى "الساموراى" أو أثرى الأثرياء. والـ"مايكو" وهن تلميذات الجيشا. وكانت عذرية "المايكو" تُشترى بمبلغ يكفى لشراء قصر. أما الـ "أويران" فهن عاهرات تقليديات للطبقة المتوسطة.. ثم تأتى العاهرات العصريات وبنات الشوارع فى آخر القائمة.

أصبحت أرى اليابان بعيون جديدة منذ أن التقيت بـ"كونستانس". كانت هى نظارتى ومرئاتى. وعندما دخلت شقتها لأول مرة رأيت صورتين معلقتين بجوار بعضهما لا يمكن أن أراهما معاً فى أى مكان آخر فى العالم: صورة الكعبة بجوارها لوحة زيتية رسمتها كونستانس بنفسها لرجل بلا وجه يعانق إمراة عارية من الخلف. أحسست أن ما يجمعنى بهذه المرأة الجميلة أكثر بكثير من الهوية المزدوجة..

ذهبت مع كونستانس لمعبد "شيمو جامو" ووقفنا بمواجهة قدس الأقداس. كان يعجبنى فى كونستانس أنها كانت قادرة على الصلاة فى كل مكان ببساطة الطفل وإيمانة الفطرى. ألقت كونستانس ببعض النقود فى صندوق التبرعات وصفقت بيديها ودقت الجرس الكبير المعلق أمام قدس الأقداس لكى توقظ الآلهة من نومها. ثم راحت تهمس بأمنياتها وصلاتها. ثم ذهبنا إلى ركن آخر فى المعبد لقراءة الطالع. جذب كل منا ورقة من صندوق الحظ. جاء فى ورقة حظى: "العمل: إذا بذلت جهداً أكثر ستجنى ثماراً أكثر. العائلة :لا تغيير. الحب: كن متواضعا! المستقبل: سيصبح كل شئ على ما يرام" ضحكت بسخرية ثم سألت كونستانس عن حظها المكتوب فى ورقتها فقالت:

-"أسوء حظ!"

-"أخبرينى عن المكتوب فية!" سألتها.

-"لا أستطيع ذلك. فلو فعلت لتحققت النبوءة. سأذهب الى هذه الشجرة وأعلق الورقة هناك وستعالج الشجرة قدرى. ذهبنا بعد ذلك إلى خيمة بقاع المعبد فخلعنا أحذيتنا ودخلنا فى خندق قادنا إلى نهر صغير غير عميق فأمسكت كونستانس بيدى وقادتنى إلى النهر بعد أن كشفنا عن ساقينا. شعرت برجفة فى جسدى عندما لمست مياة النهر بقدمى، وتذكرت حلمى القديم بأن أخوض مرة فى نهر النيل. وبعدما عبرنا النهر ذهبنا إلى صخرة عليها شمعات بيضاء أخذت كونستانس منها إثنتين وأوقدتهما وأعطتنى واحدة، ثم عدنا إلى النهر من جديد وقالت لى:

-"حذار أن ينطفئ ضوء الشمعة منك قبل أن تصل إلى المنصة!"

-"لماذا؟"

-"لو حدث ذلك فسينطفئ نور حياتك"

-"وما معنى ذلك؟"

-"لا تكن مُلِحَّاً فى أسئلتك مثل الألمان!" قالت فاتنتى بإبتسام. وصلنا الى الجانب الآخر من النهر وثبتنا الشمعتين فى أماكنها على المنصة، ثم ذهبنا إلى نافورة صغيرة طبيعية تدفقت منها مياة يطلقون عليها "ماء الله". قالت كونستانس:

"لقد طهرنا جسدنا من الخارج عندما خضنا فى مياة النهر. والآن سنطهرها من الداخل عندما نشرب ماء الله.. فتسقط عنا كل الذنوب!"

رحت أفكر فى كل ذنوبى.. هل تكفى حفنة من الماء لغسلها؟ وقفنا فى طابور طويل إصطف فيه اليابانيون للشرب من "ماء الله" وكان بعضهم يملأ زجاجة بعد أن يشرب ليأخذها معه للبيت.. ربما لتطهير الذنوب القادمة.. كان ذلك يذكرنى بماء "زمزم". وكان اليابانيون يشربون من النافورة ثم يغسلون أيديهم ووجوههم وكأنهم يتوضأون. يبدو أن الطقوس الدينية فى كل العالم متشابهة.. فللبشر جميعاً نفس الأحلام ونفس المخاوف.. وكلهم يشعرون بالوحدة والعجز.

كنت أتعلم الكثير عن المدينة من صديقتى الجديدة وكنت أحصل على ختم من كل معبد أدخلة وكاد "جواز السفر" يمتلئ بالأختام، وهذا يعنى أن رحلة سلامى الداخلى أوشكت على نهايتها. إنتهت الفترة المحددة لدراستى فى اليابان، فقررت مغادرة البلد. سألتنى كونستانس لماذا لا أقدم طلباً للجامعة لتمديد فترة الدراسة، فقلت لها : "كُلّما خُيِّرت بين البقاء والذهاب فإننى دائماً أختار الذهاب!"

قضيت مع كونستانس أربعين يوماً كانت أسعد وأهدأ أيام حياتى. ولكن سعادتى لم تدم طويلاً. فقد كان يطاردنى هروب بعد هروب.. هروب من هروب!!

قررت العودة لألمانيا وحجزت تذاكر السفر. ذهبت لزيارة كيوطو فى آخر يوم لى فى اليابان. ولكننى لم أقو على زيارة كونستانس أو حتى الإتصال بها. ذهبت وحدى إلى معبد "الماء الطاهر" فوق إحدى هضاب المدينة، وهو مكان لم أذهب إليه مع كونستانس من قبل. لم يعد هناك مكان خالى فى جواز سفر المعابد لكى أتلقّى ختماً جديداً. كان المنظر من فوق الهضبة جميلاً رأيت منه الجبال المحيطة بـ" كيوطو" وبعض مناطق المدينة. وكانت "باجودة" المعبد هى أقدم برج فى اليابان.. وكان بجوار المعبد خشبة مسرح "النو" التقليدى التى بُنيت من الخشب الخالص دون مسمار واحد بطريقة فنية معقدة.. وكان المسرح على حافة الهضبة مباشرة. وقد كان هذا المسرح مكاناً محبباً للإنتحار فى اليابان. وكانت الأسطورة تقول إن من يسقط من هذا المكان دون أن يموت فسوف تُحل مشاكله.. ومن يلاق الموت بعد القفز سيذهب إلى جنة الخلود.. أى انه شئ مثل "الجهاد فى سبيل الله"!!

"سأقفز من أجلك من فوق مسرح الماء الطاهر" يقول اليابانى عندما يريد أن يبدى إخلاصه ووتمسكة بأحد. لم أستطع أن أقول مثل هذه الجملة لأحد فى حياتى، حتى للمرأة الوحيدة التى أحبها قلبى وشعرت معها أنى فى وطنى، والتى قالت لى ذات مرة انها ستدخل للجحيم إذا طلبت منها ذلك.

كانت تعجبنى فكرة "الإختفاء" فى فلسفة "الزن" البوذية : الرجوع الى العدم.. بقاء.. فناء.. توكل.. توكل.. فناء.... فناء. السقوط الى الوراء.. السقوط الى العالم من جديد.. ألقيت بجواز سفر المعابد من فوق الهضبة وذهبت. غادرت اليابان دون أن أودع "كونستانس" ودون أن أشرح لها تصرفى.. وكان الإستنتاج الذى خرجت به من إقامتى فى اليابان هو أن واحة السلام التام لا توجد على ظهر الأرض، وأنى غير قادر على إصلاح نفسى المتعفنة.

رحت أراقب من الطائرة ألمانيا الخضراء من جديد.. لم يعد هذا اللون يخيفنى. لم يعد شئ يهددنى ولا يمكن أن يحزننى شئ أكثر مما أنا حزين. أحسست بالقرف والغثيان من نفسى.. أحسست أنى أستحق أى شئ إلا السعادة .لا أستحق إلا حياة الغجرى الرحّال إلى الأبد. لم أكن ولن أكون سوى ريشة تعبث بها الرياح فى يوم

عاصف.. ولكننى ليس لدى توكُّل الصوفى كى أتأرجح فى الريح بإيمان.

ألمانيا .. قدرى!

رجعت إلى ألمانيا وحاولت إبتلاع آلامى. واصلت دراستى من جديد وبدأت العمل فى مكتب رعاية الطلاب الأجانب بالجامعة. كان رئيسى فى العمل إمرأة.. لأول مرة فى حياتى. كانت إمرأة عظيمة ومحترمة وكانت تحارب فى عالم ملئ بالرجال. كانت تبذل أقصى مجهود كى تحسن وضع الطلاب الأجانب فى الجامعة. كانت وظيفتى هي تنظيم الندوات التى تدمع الطلاب الأجانب والألمان. سكنت فى بيت أحد الاساتذة فى الجامعة مؤقتا، وقد كان أستاذ علم نفس من أصل سورى. كان يعيش حياة غربية ويفكر بمنطق غربى ولكنه فى الوقت نفسه كان مؤمنا بالله ويصلى بإنتظام.. أدهشنى هذا الخليط العقلانى الإيمانى. ولكنى عرفت فيما بعد أنه كان لا يقرب المسجد حتى عمر الستين. فيبدو أن كبر سنه وقربه من الموت هما اللذان جعلاه يغازل الله من جديد.

إستأجرت بعدها غرفة فى بيت طبيبتى "جيزيلا" ورأيت لأول مرة عائلة ألمانية من الداخل. ولكن عائلة "جيزيلا" لم تكن مثل كل العائلات. فقد كان منزلاً مملوءً بالحركة والحياة على عكس معظم البيوت الألمانية. كانت جيزيلا أماً رائعة. كانت برغم إنشغالها بعيادتها الخاصة وندوات "ماهاراجى "لا تزال تجد الوقت لتطبخ لأبنائها بنفسها وتخيط لهم ملابسهم. وفوق كل ذلك كانت تذهب مرتين كل عام إلى مدينة "تشرنوبل" فى أوكرانيا وتأخذ معها المعونات والملابس للأطفال اليتامى والمشوهين. كما كانت تدعو بعض طلاب المدارس الثانوية فى أوكرانيا للبقاء فى بيتها لمدة شهر وكانت تتحمل كل نفقاتهم بنفسها. كان زوجها "سيجفريد" بحيرة هدوء عميقة. كان لا يمكن أن يثير غضبه أى شئ. كان يجلس فى ورشتة بالمنزل بالساعات فى صمت وهو يصنع الحلى والمجوهرات من الأحجار الكريمة الغالية التى كان يستوردها من الهند. كنت أتسامر والعب كثيرا مع الطفلة "صوفيا" التى كانت حاضرة البديهة وجميلة الصوت. كانت تلعب على "البيانو" وتغنى لى بصوتها العذب. كان "رالف" يبلغ من العمر 16 سنة وكان يعشق "البانجو" والبنات. كان يغير صديقتة كل أسبوع تقريباً وكان أحياناً يجمع بين الصديقتين. وكان يزرع نباتات مخدرة يمنعها القانون الألمانى فى غرفتة. وقد جاءت الشرطة مرة لتفتيش المنزل.. فكانت كل العائلة مشغولة بتهريب قصريات النباتات المخدرة من الشبابيك لبعضهم قبل أن يدخل رجال الشرطه للغرفة.. راح الجميع يضحكون بعدما ذهبت الشرطه ولم يلُم أحد "رالف" على إحتفاظة بالمخدرات.

وكان ابنهم "ديفيد" ذكى وطموح وكان يبلغ من العمر 11 سنة . وكان له مزاحا سخيفا أحياناً . سألنى مرة :

-"ما هو دينك؟"

-"أى الديانات تعرف؟"

-"المسيحية واليهودية و.... "

-"هل تعرف اننى فى مثل سنك كنت أبحث عن الله، أيها المعتوه؟" قلت له بمزاح وواصلت سؤاله :

"هل لديك زملاء أتراك فى المدرسة؟"

-"نعم"

-"هل تعرف ما دينهم؟"

-"لست أعرف.. ربما دين "الشاورما" أو شئ كهذا؟"

وكانت الأخت الكبرى "هايدى" قد هربت من منزل الأسرة فى عمر 17 سنة وذهبت إلى المكسيك وعادت بعد أربعة أعوام بزوج وطفلتين، فسكن الجميع فى البيت الكبير. أما الأخ الأكبر "أنجلو" فقد ترك المنزل عندما إكتشف أن "سيجفريد" ليس أباه الحقيقى. أما الطفل السادس فقد كان شاحبا ومملاً للغاية، ولا عجب أنى قد نسيت إسمه.

بدأت كونستانس فى الإتصال بى عبر الإنترنت وراحت تسأل عن صحتى وأحوالى. ولكنها أبدا ما وجهت لى اللوم على ما فعلت. وكانت تتصل بى هاتفيا عند بيت جيزيلا حتى طلبت منها أن تكف عن ذلك.

وبعد فترة شعرت بالتعب من البيت الممتلئ دائما وذهبت الى أحد بيوت الطلبة. وكان هذا المكان أفضل الأماكن لصيد البنات ولكننى داومت صومى وعزفت عن بنات حواء. وبرغم وحدتى وعزلتى فإننى لم أقو على فتح ذاكرتى ومواجهه نفسى بقصة حياتى. راحت آلامى الروحية المدفونة تحت طبقات خرسانية عديدة بداخلى تكشر عن أنيابها وترسل لى الإشارات من خلال آلام الكلى والظهر والقرحة المزمنة.

كنت أزور بيت "جيزيلا" فى كل عطلة نهاية الأسبوع. وذات مرة إتصلت بى كونستانس وأنا هناك بالصدفة، ولم تكن تعلم أنى غادرت المنزل. قالت لى انها تود زيارتى فى ألمانيا. ولكنى قلت لها انى أعتقد أن هذه فكرة غير جيدة. قالت ان أمها قد منحتها رحلة سياحية إلى إسطنبول كهدية عيد ميلادها. وكانت ترغب أن تأتى بعد ذلك لألمانيا لزيارتى. فأقترحت عليها أن أذهب أنا إلى إسطنبول لرؤيتها هناك. فقد كنت أرغب فى لقائها على أرض محايدة، كى أهرب إذا إستدعى الأمر وقتما أشاء. وسافرت الى إسطنبول واحتفلت معها بعيد ميلادها هناك ولكننى كنت أحتفظ بمسافة بُعد بينى وبينها. لاحظت كونستانس تحفظى فلم تحاول الإقتراب منى. كنت أسكن فى فندق آخر وكنت أذهب اليها كل صباح وأصطحبها للمدينة. ذهبت معها الى مسجد السلطان أحمد ومسجد السليمانية. وكانت أول مرة أدخل فيها مسجد منذ سنوات. كنا نقف ذات مره على كوبرى "جالاتا" الذى يربط آسيا بأوربا.. فحكت لى "كونستانس" أن إسمها يعنى "إسطنبول". قالت إن أباها الدانماركى وأمها اليابانية كانا يبحثان لها عن إسم يربط آسيا بأوروبا فاختاروا "كونستانس" وهو يرمز إلى "كونستانتينوبل" أو "القسطنطينية" بالعربية. وقالت إنها كانت تحلم بالمجىء لإسطنبول والوقوف على هذا الكوبرى منذ طفولتها وانها سعيدة أنها تقف عليه الآن معى أنا بالذات. ثم ذهبنا بعدها لمقهى "بيير لوتى" وهو مبنى فوق أعلى قمة فى "إسطنبول" وشاهدنا من هناك الميناء والمآذن وأبراج الكنائس واستمتعنا بشاى التفاح الذى يشتهر به هذا المقهى. وزرنا مقبرة الصحابى "أبو أيوب الأنصارى" المدفون فى مسجد صغير عند أطراف المدينة. إرتددت كونستانس الحجاب ودخلت إلى ضريح الأنصارى وراحت تبكى عندما رأت الزوار يلمسون الضريح ويبكون. ولكننى كنت أقف فى المكان مثل سائح عادى.. وهكذا شعرت عند دخول أى مسجد هناك. ثم أخذنا "تاكسى" لوسط المدينة من جديد وكان سائق التاكسى ظريفاً جداً، وقد أعجبه إرتداء كونستانس للحجاب وقال لها "موسلمان تشك جوزل" أى "المسلمون هم الأفضل!" ثم بدأ السائق فى الكلام بلغة إنجليزية ضعيفة وشرح لنا مفهومه للإيمان :
"عمرى الآن 40 سنه. أريد أن أستمتع بالحياة وأشرب الخمور لبعض الوقت. وعندما أصبح فى الخامسة والخمسين أو الستين أريد أن أذهب إلى مكة وأحج وأغسل ذنوبى، ثم أعود وأصبح إنساناً صالحاً قبل أن ألاقى الله!"

فى الواقع كانت إستراتيجية السائق الإيمانية إستراتيجية جميلة ومنطقية. وكنت أسأل نفسى لماذا لا آخذ الأمور ببساطه مثلة!

قادنا التاكسى إلى "البازار" الكبير واشترت كونستانس العديد من الأطباق والتحف المنقوش عليها آيات القرآن بينما اشتريت أنا شرائط كاسيت لـ "طارقان" و"إبراهيم طاطلسيس". وكانت كونستانس تحصل بفضل حجابها على تخفيض كبير فى الأسعار. ثم أكلنا العشاء فى "دار الضيافة" وهو المطعم التاريخى الذى كان يعد الطعام للسلطان العثمانى. وكان بالمطعم فى ذلك اليوم عرس فراحت كونستانس تراقب العروسين وهى تبكى، فحاولتُ تجاهل ذلك. كنا نرى فى كل مكان نذهب فيه عروسين وفى كل شارع قطط شاردة. كنت أشعر كل ليله برغبه أن آخذ كونستانس فى أحضانى، ولكننى كنت أكافح ضد رغبتى كى لا أجرحها فيما بعد وكى لا أعذب نفسى. أعطيتها بدلا من ذلك هدية صنعتها بنفسى فى ورشة "سيجفرد" وهى عقد من الأحجار الكريمة ففرحت به كثيرا. وبعد خمسة أيام انتهت رحلة كونستانس وكان عليها الرجوع لليابان. كنت دائما أكره مشاهد الوداع، لذا فقد قررت عدم الذهاب معها إلى المطار. ووقفت معها أمام الفندق فراحت تحارب دموعها بلا جدوى وهى تقول: "أريد أن أراك قريبا مرة أخرى. فأنا أحتاجك كثيراً". رحت ألوح لها مودعاً و"التاكسى" يتحرك بها فى إتجاه المطار.

وكان علىّ أن أبقى يوما آخراً فى إسطنبول. فقد كانت رحلة عودتى إلى ألمانيا لا تزال فى الغد. ذهبت بعدما ودعت كونستانس إلى وسط المدينة ودخلت مسجد "يينى" المطل على خليج الفوسفور. دخلت للمسجد لا بغرض الصلاة وإنما للارتياح من عناء اليوم الحار.. ولكننى عندما سمعت المؤذن ينادى للصلاة ورأيت المصلين يصطفون، خجلت أن أبقى جالساً. فوقفت فى الصف بدون وضوء وحاولت تقليد المصلين. وكنت قد وضعت حقيبتى خلفى. وبالطبع لم أشعر بأى شىء فى صلاتى. كنت فقط أتذكر رجاء كونستانس الأخير لى. وبعدما فرغت من الصلاة نظرت خلفى لألتقط حقيبتى فلم أجدها .. سُرقت حقيبتى فى بيت الله وبها جواز سفرى وتذاكر السفر وكل نقودى. ذهبت إلى مكتب شرطة السياحة لعمل محضر فقال ضابط الشرطة انه متأكد أن سارق حقيبتى ليس تركياً. فالأتراك لا يسرقون أبداً فى المساجد.. فلابد أن يكون السارق إما شيشانياً أو روسياً. وقد طمأننى ذلك كثيراً بالطبع. فقد كان كل ما أخشاه أن يكون سارق شنطتى -لا سمح الله- من نسل الأتراك!! نصحنى الضابط بالذهاب فوراً للقنصلية المصرية وطلب استخراج جواز سفر حتى لا أقع فى مشاكل مع الشرطة التركية. وكان الضابط كريماً فأعطانى ثمن تذكرة الأتوبيس بعدما عرف أنى لا أمتلك مليماً واحداً.

عندما رأيت العلم المصرى يرفرف فوق القنصلية شعرت بالأمل. كان قصراً شامخاً فى أجمل أحياء اسطنبول.
رننت جرس البوابة الحديدية فرد علىّ صوت كسول من خلال السماعة:
-"نعم!"
-"أنا مواطن مصرى.. وضاع منى جواز سفرى وتذاكرى وكل فلوسى وعايز أطلع جواز سفر جديد" قلت راجياً..
-"معاك ما يثبت شخصيتك؟" سأل الصوت من خلال جهاز التحدث.

-"مانا لسه قايل لحضرتك إن جواز سفرى ضاع" قلت مستغرباً.
-"إنت عايش فى تركيا؟" سأل الصوت من جديد.
-"لأ.. أنا عايش فى ألمانيا"
-"خلاص.. يبقى لازم تطلع جواز سفر من سفارة مصر فى ألمانيا"
-"بس عشان أروح ألمانيا لازم يكون معايا جواز سفر الأول!"
-"أنا آسف جداً. لو مش عايش فى تركيا ما اقدرش أعمللك أى حاجة" قال الصوت بلا رحمة.
-"يا أستاذ.. آنا اتسرقت. راحت كل أوراقى وفلوسى. أروح لمين تانى فى البلد دى؟"
-"وعلى فكرة محدش فى السفارة حيديلك فلوس. انت عارف كام واحد مصرى بييجى يتسكع هنا كل يوم ويرمى بلاه ويقول فلوسه ضاعت علشان يطلع له بقرشين؟ إسطنبول مليانة شباب مصريين صيّع!"
-"يا سيدى أنا مش عايز منكم فلوس. أنا عايز جواز سفر"
-"واديلك بس جواز سفر إزاى وانتا ممعكش اللى يثبت انك مصرى؟ وان ايش عرفنى انك مش اسرائيلى مثلاً؟"
-"يعنى انت مش سامع انى بكلمك بالمصرى؟"
-"ماهو فيه اسرائيليين كتير بيتكلموا مصرى أحسن منى ومنك!"
غادرت بوابة السفارة المغلقة دون أن أرى وجه من كان يتحدث معى ورجعت الى المدينة ماشياً لمسافة ستة كيلومترات رغم آلام ظهرى الشديدة لأننى لم يكن لدى ثمن تذكرة الأتوبيس. جلست منهكاً ويائساً على كوبرى "جالاتا" ورحت أراقب البحر والمآذن والمارة. ماهى قيمة شخص غريب بلا أوراق تثبت هويته ولا نقود يسد بها جوعه؟ لم يتبق لى سوى إبتسامة ساخرة متعبة. ساقنى الجوع الشديد إلى وسط المدينة باحثاً عن الطعام. دخلت أحد المطاعم التى أكلت فيها مع كونستانس وكنت آمل أن يتذكر أحد وجهى ويتذكر أنى دفعت بقشيشاً كبيراً عندما أكلت فى المطعم. سألت أحد العاملين هناك بإحراج شديد أن يعطينى "شوربة" أو أى شىء بلا مقابل. فطردنى من المطعم بأدب. يبدو أن المطاعم هناك كانت معتادة على أمثالى كثيراً. حتى صفائح الزبالة كانت خاوية من بقايا الطعام القابلة للأكل، فقد كانت القطط تملأ المكان. فى النهاية لم يبق لى إلا أن أذهب للفندق وأنام بلا غداء أو عشاء. وفى الصباح أكلت الفطور فى الفندق كالمسعور وملأت حقيبة بلاستيكية من "البوفيه" بالجبن والمربّى والخبز . وكنت لا أعبأ بنظرات النزلاء الإحتقارية لى.. فلا خجل مع الجوع .
حكيت لموظفة الإستقبال فى الفندق عن مشكلتى فأعارتنى بعض النقود البسيطة. ذهبت إلى السفارة من جديد وتكلمت مع موظف آخر عبر جهاز التحدث. وكان أكثر كرماً من زميله ففتح لى الباب. ذهبت إلى الموظف المختص بالجوازات فقال لى انى أحتاج لمعجزة كى أحصل على جواز سفر. فقد جاء إلى القنصلية قبل ثلاثة شهور شاب مصرى قال أيضا انه يعيش فى ألمانيا وانه فقد جواز سفره. فأصدرت له القنصلية جواز سفر، وعندما استقل الشاب المصرى الطائرة المتوجهة إلى ألمانيا إقتحم كابينة الطيار وهدده بقلم رصاص دسّه فى عنقه وطلب منه أن يغير مسار الطائرة.. وقد تم التغلب عليه فى الطائرة. وبعدها أصدرت وزارة الداخلية قراراً يمنع القنصليات من استخراج جوازات سفر لمصريين لا يسكنون فى البلد الذى توجد به السفارة.
-"طيب . وأنا اعمل إيه دلوقتى؟" سألت الموظف.
-"المسألة سهلة جداً. حضرتك هتروح الفندق وتقول لهم هناك انك ممعكشى فلوس تدفع الحساب. الفندق هيتصل بالشرطة والشرطة هتتصل بينا. إحنا ندفع حسابك ونرحلك لمصر، ولما حد من أهلك ييجى يستلمك من المطار فى مصر لازم يدفع حساب الفندق ومصاريف الطيارة والترحيل والذى منه. بس ده لو كان معاك ما يثبت شخصيتك. لو ممعكش مايثبت شخصيتك يبقى برضه هنرحلك بس مش حنسلمك لأهلك وانما لمديرية الأمن وبعدين يلففوك كعب داير لحد ما يتأكدوا انك مش هربان من حكم ولاّ من بلوة سودة"
يانهار اسود ومنيّل! كان كل من الخيارين أسوأ من الآخر. بل أن الأسوأ أن يتلقانى أبى فى المطار وأنا مكبل بالكلبشات.
لقد ذقت مرارة البيروقراطية المصرية مراراً من قبل، ولكن مذاق هذه البيروقراطية فى الغربة وفى أشد لحظات الضيق مُرّ جداً ومحزن جداً. ولكن لم يبق لى إلاّ ان أزور القنصلية كل يوم. وصار ذلك طقساً أعتمد عليه... أبدأ النهار بالأمل وأنهيه باليأس وسب الدين. وكان حسابى فى الفندق يتضاعف يوماً بعد يوم حتى وصل إلى 2000 دولار بعد أربعة أسابيع.
وكنت أنتظر أوراقى من ألمانيا على أحر من الجمر. كنت قد طلبت من زميل مصرى بالجامعة أن يذهب لبيت الطلبة الذى أسكن فيه ويسأل البواب أن يفتح له غرفتى ثم يبحث عن بطاقتى الشخصية وشهادة إنهاء الخدمة العسكرية. وقد وجدهما الزميل ولكنه أرسل الأوراق بالبريد العادى من باب الإدخار فتأخرت أكثر من عشرة أيام. عندما وصلت الأوراق ذهبت بها إلى القنصلية. ولكن الموظف كان لا يزال مصمماً على موضوع الترحيل.
ولكننى خرجت عن أدبى وصبرى ورحت أصيح فى القنصلية:
"أَحَّه.. هى وزارة الخارجية بعتاكو هنا عشان تتاجروا فى "الموبايلات" والا عشان تساعدوا المصريين اللى واقعين فى ورطة؟ أنا عايز أكلم القنصل شخصياً والاّ مش خارج من المبنى دا النهارده"
قال موظف القنصلية ان القنصل ليس لديه وقت لكل من إدّعى أنه فقد جواز سفره. فزاد ذلك من غضبى وواصلت الصراخ. فلم يجد فى النهاية حلاً إلا أن يذهب إلى القنصل ليسأله عن قضيتى. عاد الموظف بعد قليل وقال:
"اتفضل يا سيدى . القنصل عايز يكلمك!"
دخلت الى غرفة القنصل فاستبشرت عندما رأيته. كانت ذبيبة الصلاة تزين جبينه وكانت تملأ غرفته الآيات القرآنية.. هبّ واقفاً للترحيب بى وقال لى:
"احكى لى يابنى إيه مشكلتك؟"
أنصت القنصل المحترم لقصتى وراح يهز رأسه:
"لاحول ولا قوة إلا بالله! .. فى الجامع؟"

وقال لى إن إبنه فى نفس عمرى تقريباً وانه يدرس فى أمريكا وممكن أن يحدث له ما حدث لى فى أى وقت. وقال انه سيفعل كل ما فى وسعه ليحل مشكلتى. وقال لى انه تلقى فاكس من الجامعة التى أدرس فيها فى ألمانيا تفيد أن لدىّ إمتحانات وعمل فى قسم رعاية الطلاب الأجانب ولا بد من عودتى فوراً، وان هذا سيسهل القضية. كانت مديرة مكتب رعاية الأجانب قد تفضلت بإرسال الفاكس..

إتصل القنصل أمامى بمدير مصلحة الجوازات فى القاهرة وطلب منه أن يحصل على إستثناء لإستخراج جواز سفر وأن يرسل هذا الإستثناء بالفاكس لأن الحقيبة الدبلوماسية تستغرق طويلاً حتى تصل. وأمر القنصل موظف الجوازات بإستخراج جواز سفر فورى لى. وأثناء إعداد جواز السفر جاءت إلى زوجة القنصل التي تسكن معه فى نفس القصر بغذاء لذيذ: دجاج وأرز وخضار. كانت أول مرة آكل فيها وجبة ساخنة منذ أسابيع. وقبل خروجى من باب القنصلية دسّت زوجة القنصل مبلغ 200 دولار فى جيبى وقالت "إعتبرنى زى والدتك".

وكان الزميل المصرى فى ألمانيا قد قام بحملة جمع تبرعات من الطلبة العرب بالجامعة وأرسل إلى حوالة بريدية استطعت صرفها بعد حصولى على جواز السفر وتمكنت من تسديد ديونى فى تركيا. قدمت طلباً للسفارة الألمانية وحصلت على التأشيرة في نفس اليوم. فقد كانت مديرة مكتب رعاية الطلاب الأجانب قد أرسلت فاكساً آخر للسفارة الألمانية. شعرت ايضاً بالارتياح عندما رأيت أنى أتلقى العون من كِلا الألمان والمصريين.

أجنبى نموذجى

أقنعتنى مدرّسة اللغة اليابانية بالجامعة أن أشارك فى مسابقة للخطابة باللغة اليابانية تنظمها السفارة اليابانية فى برلين. كان على أن ألقى خطاباً غير مقروء عن اليابان وثقافتها. وكسبت التصفيات الأولى لمنطقة جنوب ألمانيا. ذهبت للمسابقة النهائية، ورحت أتنافس مع 15 متسابق من النمسا وسويسرا وألمانيا. ألقيت خطبة عن الفرق بين مصر وألمانيا واليابان وحصلت بها على المركز الأول. وكانت الجائزة هى رحلة مفتوحة لليابان تشمل تذاكر الطيران والإقامة وتذاكر مفتوحة لإستخدام القطارات السريعة. ذهبت إلى اليابان والتقيت بـ "كونستانس" هناك. لم يكن الوقت مناسباً بالمرة للطيران فقد ذهبت لليابان أياماً معدودة بعد أحداث 11 سبتمبر. وكانت إجراءات الأمن مشددة جداً. ولكن رجال الأمن فى اليابان كانوا أشد صرامة من الألمان. أصبح اليابانيون الآن يعرفون ما هو الإسلام وأين تقع "قندهار" و"طورا بورا" بالضبط على الخريطة. مصرى يسكن فى ألمانيا؟ يبدو أن ذلك ذكرهم بـ "محمد عطا" الذى أصبح أشهر من النبى محمد نفسه. أستجوبونى بالساعات فى المطار بل وأرسلوا "مخبرا" يمشى ورائى أينما ذهبت ليراقبنى. إستغليت هذا الموقف للدعابة. ورحت ألعب مع المخبر لعبة القط والفار فأختبىء فى المتاجر أو أجرى بسرعة شديدة أو أتظاهر أنى سأخرج مسدساً من جيبى.. وهكذا...

كان لقائى بـ "كونستانس" مثل لقائى بها فى اسطنبول: دون عناق. كنت لا أزال أشعر بحبى لها ولكننى طلبت منها أن تنسانى أفضل وتبحث عن رجل آخر أكثر استقراراً يمكنها الاعتماد عليه. ولكنها قالت: "سأنتظرك حتى الموت"".

عدت إلى ألمانيا فوجدت خطاباً لى فى صندوق بريدى يدعونى إلى مركز الشرطة. ذهبت إلى هناك فراح الضابط يسألنى أسئلة خاصة عمّا إذا كنت أزور المسجد باستمرار وإذا ما كانت لدىّ عشيقة وهل أشرب الخمور أم لا وهل لى علاقة بأية جماعة متطرفة. رفضت الإجابة على هذه الأسئلة وقلت للضابط إن الذى يزور المساجد باستمرار ليس إرهابياً بالضرورة. ومن يشرب الخمور اليوم قد يكون إرهابياً بالغد، وان من له علاقة بإرهابيين لن يبوح لضابط مباحث بذلك. لم تضايقنى أسئلة الضابط كثيراً. ولم يضايقنى شعور الألمان بالخوف من كل مسلم.. كنت أفهم نظرات الرعب فى عيونهم عندما يرون شاباً عربياً يدخل القطار.. ولكن كان يضايقنى مبالغة بعضهم فى وصف أحداث سبتمبر على أنها نقطة تحوُّل فى تاريخ العالم. أثار غضبى تعليق أحد الأساتذة فى الجامعة الذى وصف الأحداث على أنها أبشع ما رآه العالم منذ الحرب العالمية الثانية. فرددت عليه ثائراً "أىّ عالم؟ عالمى أم عالمك؟ ماذا عن فيتنام وفلسطين ورواندا والبوسنة والشيشان وكوسوفو؟ أم أن العالم هو فقط غرفة نومكم؟"

أنهيت دراسة الماجستير بسرعة. وصرت بين عشية وضحاها أجنبى نموذجى . نُشرت لى العديد من المقالات عن الإرهاب والعنف ومشاكل الهجرة والإندماج ورحت ألقى المحاضرات فى جميع أنحاء ألمانيا. إنهالت علىّ الجوائز والأوسمة التقديرية، وكأننى لم أكن مجنوناً بالأمس ممنوعاً من التوقيع على الأوراق الرسمية. إختفت مخاوفى وهلوستى لفترة وكنت أبدو لكل من يرانى كرجل مثقف متوازن. لم يكن أحد يدرى أن خلف هذه الواجهة الجميلة روح مريضة وآلام غير منتهية. حاولت تجاهل ماضىّ ورحت أستمتع بالحياة العادية.

ولكننى كنت من فترة لأخرى أسمح لنفسى بتخطى الحدود لأثبت لنفسى أننى ما زلت قادراً على الجنون. فقد عرض علىّ أحد المخرجين الشباب أن ألعب دور البطولة فى فيلم تجريبى قصيرعن حياة طالب تركى يدرس الحقوق ويعانى من مشاكل فى الهويّة. قبلت العرض بدون تفكير. وكان علىّ أن أخلع كل ملابسى فى الفيلم

وأزحف فى القطار تحت أقدام المسافرين. كما كان علىّ أن أقبّل امرأتين قبلات حارّة فى الفيلم. قبلت العرض لأنه يذكرنى بقصّة حياتى.. ولأن الممثلتين كانتا فى غاية الجمال!

حصلت أيضاً على جائزة الهيئة الألمانية للتبادل العلمى كأفضل أكاديمى أجنبى بالجامعة. وعقدت مراسم تسليم الجائزة فى مبنى المحافظة. وراح محافظ المدينة ورئيس الجامعة يلقيان خطب المديح والإطراء علىّ. ثم جاء دورى فى الكلام. قررت ألا أشكر أحداً وأن أستغل فرصة وجود 600 مستمع ووجود وسائل الإعلام وقمت بإنتقاد سياسة المدينة مع الطلاب الأجانب وقلت للمحافظ: "أنتم اليوم تكرمون أكاديمى أجنبى وستضايقون غداً الآلاف من زملائى فى مكاتب الهجرة. أنا أرفض أن تستخدمونى دليلاً على سماحتكم وتعاونكم".. ثم وجهت كلامى لرئيس الجامعة: "سيدى الرئيس. لقد أطلت فى إطرائى ومديحى ولكن هل تعرفنى؟ أنت لم تتحدث إلى من قبل أبدًا، فكيف تصفنى بكل هذه الصفات الجميلة؟ أليس من الممكن أن يكون هذا الشخص الذى أطلت مديحه مجنوناً مثلاً؟ أيّها المغرورون، توقّفوا عن الحديث عنا، وابدأوا فى الحديث معنا!"..

هاجت القاعة بتصفيق الحضور وخرج المحافظ منزعجاً من الحفل. وبالفعل غطّت الصحف هذه "الفضيحة" وكان لكلامى على ما يبدو أثر بالغ. فقد أمر المحافظ بعدها بإنشاء قسم خاص للطلبة لإجراءات الهجرة داخل الجامعة نفسها. وكانت التجربة الأولى من نوعها فى ألمانيا كلها..

ولكننى كنت فى قرارة نفسى أقول : "لماذا ألوم الألمان؟"

حصلت على وظيفة محترمة فى أحد مكاتب هيئة "اليونيسكو" فى مدينة "جنيف" السويسرية. أعجبنى الجو هناك فقد كانت مدينة تنصهر فيها كل الثقافات والأعراق. وكان الأجانب فى هذه المدينة يختلفون عن أجانب المدن الأخرى. فقد كانوا فى أغلب الأحيان أكاديميين أو دبلوماسيين أو من رجال الأعمال. وكان رئيسى فى العمل هنا أيضا امرأة قوية وحاسمة. كانت تصارع الرجال وكانت "بألف رجل". ولكن موظفيها كانوا قلّما يكرسون عملهم لخدمة التعليم والثقافة. ولكن كانوا يخدمون أنفسهم على "بوفيه" الأمم المتحدة المفتوح وكانوا يتصارعون فى الخفاء بخبث وعقلية البلطجية. حتى أجانب البلاد الفقيرة الذين كانوا يعملون هناك كانوا لا يستغلون مناصبهم الحساسة لمساعدة بلادهم.. ولكنهم كانوا يلهثون خلف الدولارات الخضراء فقط.

عرضت علىّ مديرة المكتب الأرجنتينية الأصل وظيفة ثابتة براتب محترم وأعطتنى مهلة شهرين للتفكير. وفى نفس الوقت حصلت على عرض آخر من إحدى الجامعات الألمانية أن أصير محاضرا بقسم الدراسات الإسلامية فيها رغم أن ذلك لم يكن مجال تخصصى بالتحديد . فقد أدت أحداث سبتمبر إلى إهتمام الألمان فجأة بالإسلام والمسلمين. فكّرت كثيراً ثم قررت العودة لألمانيا من جديد بعد سنة من الغياب. رأيت فى تدريس الإسلام فرصة أن أحقق لأبى حلمه القديم وأتقرب منه بذلك بعض الشىء. وبالفعل فرح أبى كثيراً عندما سمع ذلك الخبر وكان فخوراً بى جداً.

مرت سنوات وبدا أن شيئاً مثل الاستقرار قد دخل إلى حياتى. وفجأة وبدون مقدمات كتبت كونستانس لى خطاباً إلكترونياً طويلاً تقول فيه انها لا تزال فى إنتظارى وانها لن تتخذ فى حياتها زوجاً غيرى.. وأنها سوف تنتظر سواء أعطيتها الأمل أو سكتّ كعادتى. هز هذا الخطاب كيانى وغير كل حساباتى. فقد كان كل شىء يبدو على ما يرام فى حياتى.. ولكن مثلى يحن دائماً للعواصف. فكتبت لـ"كونستانس" وبحت لها لأول مرة أنى أحبها ولن أحب غيرها.

وعادت كونستانس إلى أحضانى بعد غياب سبعة سنوات. عادت وكأنها لم تغب عنى يوماً واحداً. فقد كانت دائماً فى أفكارى ووجدانى. جعلتها السنوات أكثر جمالاً وأكثر رصانة. ذهبت معها فى رحلة إلى "كوبنهاجن" و"باريس" وأثناء سفرنا بالقطار كانت كونستانس تنام بجوارى كالملاك فأيقظتها وسألتها: "هل تقبلين الزواج من مجنون مثلى؟" فردت مبتسمة: "نعم، وبأقرب وقت ممكن قبل أن تغيِّر رأيك!" سافرت معها إلى مصر وعقد أبى قراننا فى القرية، وإحتفلنا بالعرس الذى حضره آلاف من أهل القرية. رقص أبى يوم فرحى لأول مرة فى حياته.. وقال وهو "ينقّط" المطرب : "أريد إن أحيى زوجتى المخلصة. فأنا وهى أول قصة حب فى هذه القرية". لم أكن أصدق ما أسمع، فقد تحول أبى تماماً وصار مرحاً مقبلاً على الحياة. راح يقضى الوقت الكثير من الوقت مع أحفاده يداعبهم ويحكى لهم الحكايات.

حصلت على وظيفة ثانية بجانب وظيفة الجامعة بأحد المعاهد التربوية فى شمال ألمانيا. وكانت وظيفتى هى إعداد المؤتمرات حول إصلاح التعليم العربى. وكنت أنظّم مؤتمراً فى القاهرة وكان علىّ زيارة السفارة الألمانية للتنسيق لهذا المؤتمر. تذكّرت الليلة التى قضيتها أمام السفارة وأنا أدخل من الأبواب. ولكن هذه المرّة فُتحت لى الأبواب بسهولة ورحبت بى الملحقة الثقافية للسفارة بنفسها وقدّمت لى الشاى ذا الطعم الكريه، فتذكرت شاى "خميس" الذى كان يبيعه خِفيةً أمام السفارة. وكانت ظاهرة الطوابير أمام السفارة قد انقرضت.. ليس لأن الشباب أصبح لا يقدم على الهجرة، ولكن لأن السفارة إكتشفت إمكانية الربح من هذه الجموع، فأعدَّت بالتعاون مع إحدى شركات الإتصالات خطّاً ساخناً غالى الثمن يحجز من خلاله المتقدمون للسفر مواعيدهم. بالطبع كانت فكرة جيدة. ولكنى رحت أفكر بـ "خميس" ماذا يفعل الآن وأين يبيع شايه وسندوتشاته!؟..

***

كنت أعيش فى هدوء مع زوجتى "كونستانس" فى ألمانيا.. كان يبدو أن حياتى قد دخلت أخيراً فى مسارها الصحيح. ولكن البركان الخامد بداخلى بدأ فى الغليان من جديد.. وكانت بعض قطرات الماء غير قادرة على كبح جماحه..

طلب منى أستاذى فى الجامعة أن أكتب ملخصاً لقصة حياتى كى ينشره فى كتابه الأخير عن "الهجرة والدين"، ولكن "كونستانس" رفضت هذه الفكرة وقالت إنى لابد أن أتفاوض أولاً مع قصة حياتى بنفسى قبل أن أعرضها على جمهور عريض قد يكون على غير المسؤولية المرجوّة.. ولكننى عاندت وجلست لأكتب قصة حياتى. ربما كانت الأنانية وحب الظهور هما الدافع وراء ذلك. أو ربما كانت رغبتى الملحة أن ألملم أشلاء قصة حياتى فوق الورق حتى لا أتمكن من الهروب منها مرة أخرى.. رحت أكتب وأكتب وكان ما لا أكتبه يؤلمنى أكثر مما كتبت. فلم أتمكن فى 25 صفحة سوى من رصد بعض محطات هروبى فى الغربة دون التعرض للمصائب التى غيرت مسار حياتى. حاولت أن أختتم قصتى المصغرة بنهاية سعيدة، فاخترت قصة زواجى من كونستانس لأختتم

بها. ولكننى كنت أشعر أن هذا كذب. فرغم حبى الشديد لزوجتى إلا أننى لا أزال أشعر أنها مجرد وهم مؤقت. فحياتى أعمق من ذلك وآلامى أكبر....

يقول لى البعض اننى عشت خبرات فى 35 سنة لم يعشها من فاق عمره الثمانين. ربما كان ذلك صحيحاً. ولكننى أشعر أنى، ورغم خبراتى الكثيرة، كنت أسير فى طريق وتسير الحياة فى طريق آخر، فلم نلتقِ بعد. فقد كنت دائماً أعيش من أجل آخرين.. كنت أعيش من أجل أبى وأمى وأخى الذى ورثت إسمه وشهادة ميلاده. بل إنى قد صرت أعيش من أجل الرجال الذين إنتهكونى وعذبونى. لم أحس أبدا بطعم الحياة إلا عندما كنت أمارس العادة السرية أو عندما تنطلق بى الطائرة إلى السماء.. حتى إرتمائى فى أحضان زوجتى يشبه الحلم..

بعد أن فرغت من كتابة قصة حياتى الملخَّصة أحسست أنى تغيرت تماماً. فجأة عاد الإنسان المكسور المشتت مرة أخرى. أحسست أن كل الأساس الذى بُنيت عليه حياتى وشخصيتى هشّ وعفن. أحسست أنى مثل إنسان سحب كل رصيده من البنك ثم أكثر من الديون ليعيش بلا فكر ولا مبدأ. ثم جاء اليوم لكى يسدد كل ديونه بما فيها الفائدة. كم كذبة .. كم جرح عميق سينفجر داخلى من جديد؟

خلّف صراع الهويّات وإضطرابات المشاعر وتناقضها عبر السنين آثاراً لا يمكن طمسها بعد ذلك. أدّى الهروب المتواصل إلى إنهاكى التام. أحسست ببركان الغضب ونافورة العنف تقترب شيئاً فشيئاً من الإنفجار....

شعرت بموجة غضب شديدة تتحرك بداخلى، وأحسست برغبة قوية فى أن أواجه أبى بكل شئ. سافرت إلى مصر مجدداً وأمضيت أسبوعين فى قريتى. صارحت أمى لأول مرة بقصتى وحكيت لها ما حدث لى فى القاهرة منذ ثلاثين عاماً. بكت أمى كثيراً ولكنها ذكرتنى أننى رغم كل شئ يجب ألا أنسى أيضا الجوانب الإيجابية فى حياتى: "مراتك اللى زى حِتة السكرة ووظيفتك اللى كل الناس بتتمناها وشباب البلد كلهم اللى واخدينك مَثل أعلى ليهم." ترجَّتنى أمى ألا أحكى قصتى لأبى لأنه مريض ولن يتحمل أية صدمة أو تعنيف. ولكننى كنت مصمماً على المواجهة. ذهبت فى نزهة بين الحقول مع أبى. كان قد بلغ السبعين فى هذا العام. أردت أن أفتح معه ملف حياتى بطريقة غير مباشرة، فسألته عندما كنا نسير بجوار أحد الحقول التى كان يمتلكها فى الماضى إذا كان يندم على أى شىء فى حياته الطويلة فرد قائلاً: "الدنيا ما تستاهلش ان الواحد يندم عليها، ولو كانت تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء! وبعدين يابنى خلاص، أنا بالله حُسن الختام والندم مش هيغير حاجة". إنعقد لسانى للحظات فرحت أنظر إلى عينيه طويلاً ثم قلت:

"ربنا يدّيك طولة العمر!"

ذهبت للقاهرة قبل أن أغادر مصر بيومين. كنت أسير مع صديقى حسام فى شارع طلعت حرب فى المساء وكان الشارع شديد الإزدحام فى هذا اليوم حتى كدتُ أشعر بالإختناق. كنت أتعجب بداخلى على حال هذه المدينة التى تشبه برج بيزا :لا تستقيم ولا تسقط. راقبت فيضان البشر من حولى وقلت لحسام: "سبحان من يطعم كل هذه الأفواه ثلاث مرات يومياً". قال حسام إن البلد تقترب من ثورة جياع وقال إن حوادث السرقة والإحتيال زادت بشكل غير عادى. حكى لى قصة سائق تاكسى استوقفه أحد الشيوخ المسنين قبيل الفجر قرب ميدان رمسيس وطلب منه أن يوصله لأحد المساجد. كان الرجل يرتدى جلباباً أبيض وكانت له لحية بيضاء طويلة. وبعد مائة متر استقل التاكسى رجل آخر كان يرغب أن يذهب إلى نفس الإتجاه. راح السائق يتحاور مع الرجل المسن بجواره فاستوقفه الراكب الآخر من خلفه قائلاً:

-"انت بتتكلم مع مين يا ريّس؟"

-"بتكلم مع عم الحاج. إيه مش شايفه؟" سأل السائق مستغرباً.

-"لا أنا مش شايف غيرى وغيرك"

عندئذ تكلم الرجل العجوز وقال للسائق:

-"يا بُنى .. لا أحد يستطيع رؤيتى غيرك. أنا ملك الموت وقد أرسلنى الله لكى أقبض روحك الليلة."

هلع السائق وركن التاكسى على جانب الطريق بجوار المسجد وراح يبكى. ولكن ملك الموت طمأنه وقال:

-"أمامك فرصة للتوبة. إذهب للمسجد وصلى لله صلاتك الأخيرة. وسآتى إليك وأنت ساجد وأقبض روحك بسلام. لا توجد مكرمة أكبر من ذلك."

قفز السائق من التاكسى ودخل المسجد وتوضأ وراح يصلى ويصلى، وكان قلبه ينقبض فى كل مرة يسجد فيها. وبعد فترة طويلة دخل نور النهار للمسجد وكان السائق هو الوحيد الذى لا يزال بداخله. فخرج السائق فاكتشف أن ملك الموت لم يأخذ روحه ولكنه أخذ التاكسى وفر.

حاولت التظاهر بالضحك على هذه القصة رغم شعورى بالمرارة. وعندما وصلنا إلى سينيما ميامى، حكى لى حسام أن هذا المكان شهد منذ عام أكبر حادث تحرّش جنسى عرفته مصر.. حيث راحت مجموعة من الشباب تحاصر البنات فى الشارع وتمزق ملابسهن وتتحرش بهن. ضاعفت هذه القصة من شعورى بالإختناق. رحت أتفحص وجوه المارة من حولى وأنا أتساءل من منهم جاء إلى هنا للتحرش ومن منهم جاء للسرقة! وفجأة سمعنا صرخة أنثوية مروعة لفتت إنتباه المارة رغم الضوضاء الشديدة فى الشارع: "يوسف.. إبنى.. يووووسف!!" راحت امرأة بدا من لهجتها أنها غريبة عن القاهرة تصرخ بحدة وتنادى على طفلها الصغير الذى تاه منها بين حشود البشر. أصابت صرخات الأم الشارع كله بشلل تام. توقف كل الناس بلا إستثناء عن المسير وراح كل منهم ينادى "يوسف.. يوسف!" أحسست لأول مرة فى حياتى أننى جزء من هذه الجموع ورحت أنادى بأعلى صوت "يوسف.. يوسف!" بدا لى مصير هذا الطفل وكأنه مصيرى أنا.. كأنه مصيرنا جميعاً. كنا نبحث عنه وكأننا نبحث عن شئ ما تائه بداخلنا.. وكأننا نبحث عن أنفسنا. جاء رجال الشرطة بسرعة غير معهودة وراحوا يسألون الأم الباكية أمام سينيما ميامى عن عمر الطفل ولون ملابسه. ولكن الجموع واصلت النداء بإسم الطفل لأنها تعلم بحكم التجربة أن الحكومة بالها طويل. راح كل من يسمع اسم الطفل ينادى به ويسأل من حوله أن يفعل نفس الشئ. انصهر شارع طلعت حرب كله وصار كياناً واحداً. بل إن النداء قد وصل إلى شارع 26 يوليو حيث كان الطفل يوسف يمشى باكياً. سأله أحد الشباب إذا كان اسمه يوسف، وحمله وراح يسأل عن مكان الأم. أفسحت الجموع الطريق له وهم يصيحون "لاقينا يوسف..لاقينا يوسف!"

وصلت هذه الصيحة إلى الأم قبل وصول الطفل. "لاقينا يوسف.. لاقينا يوسف!" صعقت حالة من النشوة كل من رأى يوسف يعود إلى أمه. كان من الصعب على كل من رأى هذا المشهد أن يتحكم فى دموعه. شعر كل منا أنه جزء من هذا الحدث. أحس كل من كان فى طلعت حرب وسليمان باشا و26 يوليو أنه هو يوسف.
شعرت فى بادئ الأمر بالسعادة، ولكن هذه السعادة سرعان ما تحولت تدريجياً إلى تجهّم ثم إلى ميلانكولية شديدة. تركت شارع طلعت حرب وأنا أشعر بغضب غير طبيعى.. لست أدرى بالضبط لماذا! ربما تذكرت أن المدينة التى اتحدت اليوم لتعيد طفلا غريبا إلى أمه هى نفس المدينة التى انتهكت طفلاً غريباً بلا رحمة منذ ثلاثين عاما.
***
عدت إلى ألمانيا تملؤنى مشاعر متضاربة. عدت أحمل تناقضات مصر وتناقضات أبى وأمى فوق ظهرى وصرت لا أقوى على حمل متناقضاتى أنا. حاولت أن أكتم موجة الغضب بداخلى بأى طريقة. إشتريت بروازاً جميلاً ووضعت به صورة أبى وأمى وهما يبتسمان وثبّت الصورة بمكان بارز فى غرفة المعيشة ورحت أراقبها لفترة طويلة. جلست كونستانس إلى جوارى بحذر ثم قالت:
-"أنت تعلم كم أحب والديك وأحترمهما ولكنى أظن أن هذا ليس الحل"
-"ماذا تقصدين؟"
-"أنت تحاول تقديس أبيك وأمك لأنك عجزت عن مواجهتهما!"
شعرت بصدق ما قالت فزاد غضبى وقلت لها بجفاف:
-"هذا ليس شأنك"
-"بالطبع هذا شأنى. أنا زوجتك وأنا أرى أنك تخادع نفسك.. تتظاهر بالتسامح مع من ظلموك ثم تعاقب نفسك فى النهاية"
طلبت منها أن تغرب عن وجهى فرفضت فأفلتت يدى وصفعتها بعنف على وجهها. نظرت كونستانس إلىّ غير مصدقة وهى تضع يدها على وجهها ولم تنطق بكلمة. كان شئ ما بداخلى يدفعنى أن أعتذر لها فوراً وشئ آخر يوسوس لى أن أواصل ضربها. صفعتها مرة أخرى، ثم إنهلت عليها ضرباً ورحت أرطمها وأركلها دون وعى حتى سقطت على الأرض بلا حراك. وبعد أن أفقت من سكرة الغضب وجدتها تبكى وآثار العنف واضحة على وجهها.
سألتها إذا كانت تريد الذهاب إلى الطبيب فلم تسمعنى. فقد كنت فى غباء عنفى قد خرقت طبلة أذنها الرقيقة. أخذتها بسرعة للمستشفى فأجريت لها جراحة عاجلة. ولكنها ظلّت شهوراً بعدها لا تسمع.. كنت أشعر بالخزى كل مرة آخذها فيها إلى الطبيبة التى كانت تنظر إلىّ بإحتقار وكأنها تقول "أهذه هى ثقافتكم وحضارتكم يا مسلمين؟"
كان عقابى الوحيد أن قررت كونستانس أن تستمر فى العيش معى رغم أنى قلت لها انى غير قادر على مواصلة الحياة الزوجية بصورة طبيعية ، فما بدا منى ما هو إلاّ أول القصيد وقمة جبل الجليد. رفضت زوجتى الرحيل وقالت إن إنفصالنا سيكون عقاباً لها وحدها وليس عقاباً لى، فهى تريدنى أن أراها كل يوم وآثار عنفى على وجهها حتى أواجه ما فعلت فلا أكرره مرة أخرى..
كنت أراها وهى تحاول الرجوع إلى طبيعتها وأشعر بالألم الشديد عندما أقول لها شيئاً فلا تسمعه. أحسست بالخزى والعار لأنى تشبعت بالعنف الذى كنت أرفضه. فمن يغسل عن روحى قرفها وعناءها؟ من سيعطينى تفسيراً مقبولاً لحياتى؟؟
لقد ورثت - مثل جميع البشر- من أبوىّ حزمة من التصورات والقضايا والمهام الحياتية. وكان يجب علىّ أن أفهمها وأتغلب عليها. لكننى لم أفهم شيئاً ولم أتغلب على شىء. هذه هى خطيئتى الأولى التى وُلدت بها وما زالت تكتم أنفاسى. كان علىّ أن أسلك مسلكاً آخراً، ولكننى ذهبت إلى آخر الدنيا كى أكرر ما فعله أبى..
عجز أبى عن الإمساك بالعدو الإسرائيلى فعاد يصب إنتقامه على أمى وعلىَّ أنا، وراح يهرب إلى عالم الحشيش. وعجزت أنا عن الإنتقام ممن انتهكونى فصببت عنفى على من لا حول لهم ولا قوة. كان علىّ أن أهرب مرتين وأنا طفل ممن لا يرحم.. ولأننى لم أتمكن من ذلك فقد قضيت حياتى كلها هارباً......
كنت فى حياتى أكثر من رجل واحد. وهاهم هؤلاء الرجال الذين كنت والطفل الذى رفض أن يكبر، كلهم يتصارعون بداخلى أيهم أنا وأيهم يملك لجامى. يفترسنى الخوف الجائع من أحشائى وتدفعنى قوة سوداء أن ألقى بكل شىء فى حياتى وأهرب من جديد، كى أبدأ بداية جديدة بعد فترة.. كى أفتح صفحة جديدة.. ولكن كتاب حياتى كله لا يتكون إلاّ من صفحة واحدة كتبت عليها وشطبت ثم أعدت الكتابة ومسحت.. فلم يختف شىء من حياتى، ولكن صار كل شىء غير مقروء وغير مفهوم..
وقفت أمام تلامذتى فى الجامعة فانعقد لسانى وعجزت أن ألعب أمامهم دور المعلّم. خرجت من قاعة المحاضرات دون إعتذار وعدت إلى بيتى وأغلقت علىّ بابى. قضيت ثلاثة شهور مختفياً فى بيتى لا أذهب إلى الجامعة ولا أردّ على التليفون.. عادت الكوابيس والهواجس ترافق ليلى الطويل.. شممت رائحة الجنون تقترب من جديد....
وعدت الى مستشفى الأمراض العقلية.. ملجئى الاخير بقدمىّ.. وكانت المستشفى مثل أَسِرّة النساء التى عاشرت ومثل سطح منزلنا بالقرية ومثل الجسر الذى تركنى عليه الغجر. ويبدو أن قصة الغجر هذه بالذات هى أصدق قصة فى حياتى رغم أنها لم تحدث بالفعل. فأراني عند نهاية كل مرحلة فى حياتى أعود إلى نفس الجسر وأقف عليه حائراً ..لا أبنى جسوراً ولا أحطّم جسوراً.. فقط أقف فوق الجسر وأنتظر أن يأتى أبواى الحقيقيان ويلتقطانى من جديد. ولكننى لا أرى شيئاً ولا أحد حولى حتى الأفق. يقف النسيم متحجّراً ولا تهتز ورقة توت فوق شجرتها ..لا يسير شىء فى حياتى ولا يسيل سوى عرقى ودموعى .لا أسمع شيئاً سوى نباح الكلاب الضالة. رائحة الخوف والعجز تملأ أنفى وتخدّرنى....
وكان الله دائماً ملاذى من الملاذ.. كنت أفرّ منه إليه. لم يساعدنى تظاهرى بالإيمان ولا محاولتى لتصنّع الكفر. لا أستطيع أن أكون مؤمناً ولا أستطيع أن أكون ملحداً.. لم استطع أن أتنازل عن الله ابداً، لاننى لم أجد له بديلاً. فكنت أفضل صمته الأزلى على ضباب الشك الرهيب..

مقابلة الرب فى "ماكدونالدز"

لو لم تكن زوجتى معى لما صدّقت ما حدث لى فى هذا اليوم. بعد شهور من العلاج بالمستشفى تلتها شهور من العزلة والخوف وجدت الشجاعة أن أواجه قصة حياتى كاملة وأرصدها على الورق. بدأت بكتابة الصفحات الاولى ورحت أبحث عن عنوان يناسب قصة حياتى: "وداعاً أيتها السماء!" بدا لى كعنوان مناسب. إقترحت العنوان على كونستانس فقالت لى : "إن امرك عجيب، فإن من يريد أن يستغنى عن "السماء "لا يقول لها "وداعاً!" كانت آثار عنفى قد إختفت تدريجياً من وجهها وبدأت تسمعنى بصورة أفضل بعد شهور من العلاج المكثف. وكانت تحاول أن تعيدنى تدريجياً للحياة العادية.

- "أنتِ على حق! فأنا لا أستطيع أن أعيش بغير تصوُّر أن هناك إلهاً، ولكنى أعتقد أن هذا الإله مختلف تماماً عما يتصور جميع البشر" قلت لزوجتى. فقالت "كونستانس":

- "هذا كلام جميل جداً. ولكن يجب أن نذهب الى المدينة الآن قبل أن يغلق مكتب البريد وتسكّر المتاجر!"

وكنت قد وعدتها أن أذهب معها إلى المدينة بعد شهور من العزلة.

"وداعاً أيتها السماء" كتبت العنوان بالبنط العريض وتوجت به قمة الصفحة الأولى من الصفحات العشرين الأولى التى كتبتها فى الأيام الماضية. قمت بحفظ ما كتبت على "الكمبيوتر" وتركته مفتوحاً وذهبت مع زوجتى الى وسط المدينة. قضينا حاجياتنا بسرعة ودخلنا مطعم "ماكدونالدز" لنأكل وجبة سريعة. ولم يكن من عادتنا أن نأكل فى "ماكدونالدز" لأن كونستانس نباتية، ولكننا كنا على عجل. جلسنا نأكل كالمعتاد فإذا بطفل صغير لا يتجاوز التاسعة يقترب منى ويعطينى ساندويتش "هامبورجر" ويقول :"هل تريد هذا؟" فقلت له وأنا منشغل بالحديث مع زوجتى لا.. شكراً" فذهب بعيداً. وبعد عشر دقائق تقريباً عاد إلىّ الطفل من جديد وكأننى الوحيد المتواجد فى المطعم وقال لى :

"هل من الممكن أن تعطينى ثلاثة يورو ونصف؟"

فسألته :

- "هل أنت جائع وتريد شراء ساندويتش؟"

- "لا.. أنا فقط أريد شراء اللعبة التى هناك".

فذهبت معه إلى إحدى البائعات وطلبت منها شراء اللعبة، فقالت إن اللعبة ليست للبيع ولكنها هدية مع وجبة "هابى ميل" الخاصة بالأطفال. فاشتريت له الوجبة واللعبة فتهلل وجهه فرحاً. عدت إلى زوجتى فلحق بى الطفل وسألنى أن يجلس معنا. كان سؤاله بلا قيمة فقد كان قد جلس بالفعل. قام بفتح اللعبة ولم يهتم بالطعام. راح يجرّب اللعبة الإلكترونية البسيطة وهو يضحك وكأنه وجد كنزاً.

-"من أى البلاد تأتى صديقتك الجميلة؟" سأل الطفل.
-"من اليابان. هل تعرف أين تقع اليابان؟" سألته.
-"نعم .. هناك .. وراء الـ .... هناك!" قال وهو غير متأكد.
-"وما هو إسمها؟"
-"إسمها كونستانس" قلت له.
-"حقاً؟ أمى أيضاً إسمها "كونستانس" قال وهو ينظر إلى زوجتى بفرح.
-"وأنت؟ من أى بلد تأتى؟"
-"من مصر. هل تعرف مصر؟"
-"نعم . إنها البلد التى توجد فيها الأشياء المربعة الشكل .. ما اسمها؟ .. نعم تذكرت: الأهرامات"
-"وأنت؟ ما اسمك؟" سألته وأنا أنتظر إسماً ألمانياً معتاداً مثل "كيفين" أو "ماريو"
-"إسمى "ستيفين جوت - Steven Gott" قالها فكاد الطعام يسقط من فمى من فرط الدهشة. فقد كان إسم عائلته "Gott" هو كلمة "الرب" وهو إسم نادر جداً يكاد لا يوجد فى ألمانيا.
-"إسمك الرب؟" سالته باستغراب.
-"نعم.. أبى إسمه السيد الرب" قال بروتينية وكأنه إعتاد إستغراب الناس عندما ينطق إسمه.
-"واو! يال الدهشة : الرب يأكل فى ماكدونالدز. ربما كانت هذه آية من السماء!" قلت وأنا أحاول المزاح. ولكن زوجتى لاحظت أنى متأثر جداً. شىء غريب للغاية أن يقابلنى طفل إسمه "الرب" فى نفس اليوم الذى قررت فيه أن أقول للرب وداعاً .لا ..لا.. لقد قررت أن أقتص الغيبيات والروحانيات من حياتى. هذا طفل كان يريد لعبة، وهاهو أخذ لعبته وانتهت القضية!" حاولت تهدئة نفسى بنفسى فى سرى. حتى بعدما سمعت من الطفل أن بيته لا يبعد عن بيتى أكثر من مائة متر لم أغير منطقى ولم أنساق لإغراء الإعتقاد بمعجزة صغيرة. ولم يكن الطفل يبدو كالملاك على الإطلاق، ولكن كطفل فقير لا يجد الإهتمام الكافى من عائلته ولا يأخذ منهم مصروفاً يكفى لكى يأكل فى "ماكدونالدز". كان النهم الذى يأكل به قطع الدجاج وأسنانه الصفراء وعيناه التائهتان ينمّوا عن طفل محروم منسى. توقف "الرب" الصغير فجأة عن الطعام وذهب إلى المنضدة الجانبية وجاء بشفاطة عصير وطلب من زوجتى أن تشاركه عصير البرتقال.
-"وأنا؟ هل نسيتنى؟ ألست من إشترى لك هذه الوجبة؟" سألته بلوم ساخر.
-"إنها إمرأة. والرجل يجب أن يكون عطوفاً مع المرأة أولاً!" قالها فأحسست بألم شديد وأنا أتذكر ما فعلته بزوجتى منذ شهور .
قمت واقفاً من من فرط الألم وقلت لزوجتى "هيا بنا إلى المنزل"
فقام "الرب" أيضاً وكان لم يكمل طعامه بعد وقال: "وأنا أيضاً شبعت. هل ممكن أن اذهب معكم؟ هل لديكم سيارة؟" سأل بإلحاح .
-"لا للأسف ليست لدينا سيارة. سنذهب بالترام" قالت زوجتى له.
-"هذا حسن. سأذهب معكم بالترام. سأنزل فى محطة " كنيسة لوثر".
بالطبع! ففى أى المحطات يجب للرب أن ينزل؟
وقد كانت بالفعل نفس المحطة التى سننزل فيها. وعندما نزلنا من الترام وأردنا أن الذهاب لبيتنا طاردنا الطفل الصغير وهو يسأل:
-"هل لديكم أطفال؟"
-"لا.. ليس بعد" رددت عليه .
-"وهل لديكم جهاز كمبيوتر؟"
-"نعم.. لدينا كمبيوتر"
-"وألعاب كمبيوتر أيضا؟"
-"لا للأسف.. ليس لدينا فى البيت ما يدخل السرور على قلبك" قلت له.
-"هل تسمحوا لى أن أذهب معكم للبيت؟ أعدكم أن أكون طفلاً مهذباً!" قال بالحاح غريب.
نظرت زوجتى إلىّ وهزت رأسها راجية مستحسنة . لو كنت وحدى ما وافقت ابداً . فأنا لا أثق بنفسى أن أختلى بالأطفال منذ فعلتى الدنيئة فى منزل أقربائى فى القاهرة.
فتحت باب البيت فاندفع "ستيفين" إلى الداخل قبلنا وتوجّه مباشرةً إلى غرفة العمل وجلس على مكتب الكمبيوتر كأنه يعرف البيت تماماً وضغط بإصبعه على زر التشغيل والإغلاق فانطفأ الكمبيوتر.
"يا إلهى.. قصة حياتى!" إنتابنى إحساس غريب أن كل ما كتب قد ضاع. وبالفعل فإننى بعدما أعدت تشغيل الكمبيوتر لم أجد مما كتبت شيئاً. وجدت الملف ولكنه كان تالفاً.. لم أجد فيه نصاً ولكن أرقام وعلامات غريبة.
""ماذا فعلت أيها الغلام؟" سألته معنفاً. فابتسم غير مبال وجرى إلى المطبخ وفتح الثلاجة وأخذ طبق "مهلبية كانت زوجتى قد أعدته بالأمس وراح يأكله كالمسعور. جلست زوجتى بجواره مستمتعةً بوجوده، فتوقف عن الطعام وقام يفك ضفائرها فساعدته فى ذلك. ثم أخذته إلى الحمّام وغسلت له يديه وعادت معه فراح يضع رأسه على كتفها.
-"ألن تقلق أمك عليك إذا عدت متأخراً؟" سألته زوجتى وقد لاحظت أن عقارب الساعة تشير إلى العاشرة مساءً..
-"لا.. أمى لا تقلق أبداً" قالها بلا اكتراث.
ولكنى صممت على اصطحابه لبيته، وعندما أردنا الخروج من الشقة رأى بعض النقود على منضدة التليفون فأخذها ودسّها فى جيبه.
"ألم يعلمك أحد أن السرقة عيب؟!" قلت له لائماً فلم يرد إلاّ بإبتسامته البلهاء المعهودة. لم تكن مشكلة كبيرة فقد كانت فقط بعض الجنيهات المصرية مما تبقى من زيارتى الأخيرة لمصر.

خرجنا من البيت وأخذت زوجتى معها مظلّة لحمايتنا من المطر. فأخذ "الرب" منها المظلة وراح يظلل عليها وتركنى وحدى فى المطر. لابد أن يكون هذا هو الرب فعلاً!!
رحت أفكر فيما حدث. لماذا يطاردنى هذا الطفل؟ وما معنى كل هذه الصّدف؟
أعلم أن هناك نظرية معترف بها فى علم النفس إسمها "سببية المصادفة" وتقول هذه النظرية بأن الشخص إذا شغل باله بفكرة ما لفترة طويلة فإنه يصادف بطريقة غير إرادية أشياءً كثيرة مرتبطة بهذه الفكرة... ولكننى لم أجد فى ذلك تفسيرا كافيا لما حدث.
كان علينا فقط أن ندخل فى الشارع الموازى لشارعنا فوقفنا بعد أمتار أمام بيته. ذهبت لباب البيت أتفحص الإسم المكتوب على الجرس. وبالفعل قرأت كلمة "Gott" - "الرب" مكتوبة بخط ردىء بقلم أزرق. شرحت له حقيقة النقود التى سرقها منى وقلت له انه لا قيمة لها فى ألمانيا. ولكننى قلت له انه إذا أراد زيارة بلدنا الجميل خلف السحاب فانه يستطيع أن يستخدمها هناك. قبّل "الرب" زوجتى على خدّها ثم لوّح لى بيده مودعاً... نظرت إليه بألم وأنا أقول :
"وداعاً أيها الرب!" فضحكت زوجتى بينما كنت أكافح ضد دموعى.

وبعد أسبوع إنتهى بى المطاف فى مستشفى المجانين من جديد. أتجرّع كل يوم حبة "تريفيلور" ضد الإكتئاب وحبة "أوبى براءمول" ضد نوبات الخوف والإضطراب الداخلى. ولكن هذه الحبات تسبب لى الدوخة والغثيان فأتناول معها 60 قطرة من قطرات "إم بى سى" أما التشنجات فتعالجها الصعقات الكهربائية والحبوب المسكنة للألم واسمها "اركوكسيا". وتسبب هذه الحبوب لى آلاماً فى معدتى المصابة بالقرحة أصلاً فأتناول بعدها حبة "نيكسوم موبس". وفى الليل أتناول حبة منوّمة ضد الأرق.
وقبل أن أسقط فى موت منامى تنفلت من بين شفاهى نفس الجملة بتلقائية مثل كل ليلة وتكسر صمت الغرفة الرهيب:
"يا أرحم الراحمين ارحمنا يا رب!!"

[